# حُروب مالك الحَزين

رواية

علي بداي

# حُروب مالك الحَزين

رواية

علي بداي

السويد 2021

عنوان الكتاب: حروب مالك الحزين .

اسم الكاتب: علي بداي .

إصدار: ميزر للنشر والتوزيع www.maizar.se

لوحة الغلاف(C): الفنان ساطع هاشم .

تصميم الغلاف: غيث سلمان .

الطبعة الأولى: نوفمبر (تشرين الثاني) 2021 .

حقوق النشر (C) محفوظة للمؤلف .

رقم الإيداع الدولي:

**Titel: The wars of the sad Malik.**

**Författare©: Ali Badai.**

**Maizar förlag: www.maizar.se**

**Omslags bild: Kasem Alsaedi.**

**Omslags layout: Ghaith Salman.**

**Första upplagan: november 2021.**

**ISBN:**

# 1

صاحت الفتاة الشهباء ذات الوجه المستدير الساحر والشفتين الحمراوين:

– أنا لا أعرف حتى اسمه، تصوري! طلبتُ معلومات من موظف سفارتنا هناك في بغداد فرد أن الفاعل مازال مجهولاً. كل ما كان يمكننا فعله هو ترك أرقام الهاتف ودعوة تجارية مفتوحة له، عله يتصل لاحقاً!

تجعد جلد مالك عند سماعه اسم عاصمة بلاده تنطقه بعذوبة فائقة الفتاة الهولندية الجالسة بمواجهته، فخفض من صوت الموسيقى الى أقل حد مسموع واقترب من لوح الزجاج المعتم حتى لم يعد يفصله عن الفتاتين سوى علوّ مترٍ واحدٍ. هو في الظلام والفتاتان مغمورتان بالضوء. كان كمن يشاهد فيلماً مثيراً في صالة سينما غارقة بالعتمة. هذا الملاك الأشهب الجالس قبالته والمنهمك بقص حكاية لم يتوقع يوماً سماعها، قد استفز كل قوى الإنصات وطاقة الحفظ لديه كي لا يفلت منه أي تفصيل. أية صدفة باهرة تلك التي ساقت هذه الفتاة المبهرة الى مكان عمله السري لتروي حدثاً جرى في مدينته البعيدة التي هرب منها قبل سنين؟ وما الذي جرى هناك؟

سمع الفتاة الثانية التي لم يتمكن الا من رؤية شعرها القصير مهتزاً بمرح مع اهتزاز كتفيها ترد:

– القصة كلها غريبة، لم تخبريني عن هذه التفاصيل عندما كنتُ في نيويورك! قلتِ لي أن والدك قد تعرض لحادث خلال رحلته الى الشرق الأوسط ثم عاد سالماً ولم يفقد شيئاً. حكاية غريبة، فما كان في الحقيبة يغري حتى الملائكة!

ردت الشهباء وهي تدفن رأسها بين كفيها:

– نعم لم أخبرك لأني كنت أنتظر أن يكشف الفاعل عن نفسه فنسمع منه القصة بتفاصيلها. بصراحة يا لويزا لم يكن إرجاع الحقيبة هو ما أدهشني، بل المغامرة وشجاعة الفاعل، لقد جازف بنفسه فالخاطفون كانوا أربعة. وهو أنقذ أبي المخدّر بمفرده!

– أربعة؟ كيف استطاع بمفرده تحرير مخطوف من أربعة قطّاع طرق؟ لا أفهم، هناك فصل غائب في القصة عزيزتي دورين!

– نعم، هذا الفصل الغائب هو بالضبط أهم ما نريد معرفته. للآن لا أحد يعرف. أما الفصل المعروف من القصة الذي سمعتُه عشرات المرات من فم أبي وآخر مرة قبل أن يسافر لهيملايا، فهو مضغوط لا يتعدى ما يتذكره قبل أن يفعل المخدر مفعوله التام بجسده ثم بعد أن تلاشى مفعوله في صباح اليوم التالي للحدث. قال إنه لا يتذكر سوى أن سيارة اللصوص الذين اختطفوه توقفت بعد مسافة قصيرة لسبب ما، فانزلوه منها وحشروه وهو معصوب العينين في سيارة أخرى. في الصباح، وجد نفسه برأس ثقيل

من أثر التخدير نائماً في سيارة، ورجل قد أخفى ملامح وجهه تحت نظارة داكنة ولف رأسه بشال ينحني عليه ويسأله بالإنكليزية عن اسمه وبلده. ظنه أول الأمر من الخاطفين، لكن الرجل طمأنه وطلب منه الهدوء وأخبره أنه أنقذه بمجازفة لم يكن يصدق أنها ستنجح، وأن عليهما الآن الانتقال الفوري الى مكان آخر آمن. لم يفصّل الرجل أكثر، كان مرتبكاً ربما بسبب خشيته من تعقب الخاطفين له. سأل أبي إن كان يشكو من شيء كي يوصله الى المستشفى فأخبره أن ما يشعر به مخلفات التخدير لا أكثر، صداع ودوار ثم همس يائساً كمن يحدّث نفسه: سرقوا حقيبتي وفيها كل شئ! فتش الرجل السيارة فوجد الحقيبة الثقيلة تحت المقعد الخلفي، وضعها أمام أبي المندهش طالباً التأكد من محتواها. كانت كاملة غير منقوصة، عندها اطمأن له فأخبره انه هولندي تعرض لعملية احتيال وخطف..

– قصة مثيرة كأنها فيلم، فيلم غير مكتمل!

– دعيني أكمل الفصل الوحيد الذي نعرفه، لم يجد أبي وسيلة لشكره على صنيعه غير أن يستل رزمة نقدية ضخمة ويدسها بجيبه لكن المنقذ رفضها بإصرار ورد: "أرجوك أنا لا أريد مكافأة لأني فعلت ما يرضي ضميري، ولكن لدي طلب واحد لا غير: تذكّرني وأنس الخاطفين وما فعلوه بك.. هذا هو رجائي لك. صدقني ما رأيته لا يمثلنا ابداً، هؤلاء طارئون! نحن نقيس أخلاقنا بالضيافة فكيف يمكن أن نغدر بضيفنا ونسرقه؟ لا أريد هذه الصورة المعتمة عنا تبقى برأسك. أتعدني؟" حفظ أبي هذه القطعة مثل

تعويذة مقدسة. يرددها يومياً مرات حتى حفظتها أنا منه وحفظها كل موظفيه! بحذر أوصله الرجل للسفارة الهولندية القريبة من مكان الحادث، وهناك أيضاً كان متعجلاً. ودع أبي متمنياً له العودة سالماً، ضغط جرس باب السفارة ثم ابتعد وبعد أن تأكد من دخول أبي بابها غادر دون أن يثير حفيظة أحد.

– يا للنبل ويا للشجاعة! لم يكن لدي أي تصور عن سكان تلك البلاد من قبل، كنت أظنهم رعاعاً. ولكن هل مازال لديك أي أمل بأن يتصل بكم بعد أن مر قرابة الثلاثة أشهر على الحادث؟

– آه، لقد مرت أربعة أشهر لكننا لم نيأس بعد، مازلنا نعيش على أمل أن يفاجئنا يوماً ما. قال لي أبي أن أجمل ما يمكن تخيله أن يعود من هيمالايا فيجده جالساً في بيتنا!

ضحكت لويزا وهمست:

– تتحدثين عنه بعاطفة كما لو كان فارس الأحلام المنتظر، هل كان شاباً!

ردت دورين مستثارة، فزادها تدفق الدم الى وجهها سحراً:

– ما أدراني إن كان شاباً أم لا؟ أبي نفسه يقول إنه لو رآه الآن لما ميّزه عن غيره، كان متنكراً. أنا ما زلت تحت تأثير الحدث فنحن نقرأ عن

الأبطال في الروايات ويسحروننا رغم كونهم أبطالاً على الورق لا غير، لا وجود لهم الا في مخيلة المؤلف. وها أنت ترين البطل الآن إنساناً مثلك ومثلي وتلومين تأثري.

– لا تغضبي عزيزتي أنا لا الومك أبداً. أنا نفسي منبهرة بالحدث وأتمنى أن يلبي دعوتكما فيصل قبل عودتي الى نيويورك، لكني أخاف عليك. أخاف أن تبقي بانتظار ما لا يأتي! فمرور شهور على الحادث دون أن يرد عليكم قد يعني أنه لن يرد أبداً. قولي لي ما الذي دعي والدك للذهاب الى تلك البلاد؟

– هو كما تعرفين يمثل الشركة في آسيا، لقد تحسنت الحالة هناك وأرادت الشركة أن تعرض خدماتها في مجال استثمار الآبار الجديدة وحمايتها من العبث وحصر سعة وحجم ما تخرّب منها فأرسلته لينوب عنها.

– ولكن هل كان من الحكمة أن يحمل معه كل هذا المبلغ؟

– المال كان ثمن العقار الذي باعته الشركة هناك. كان النظام المصرفي معطلاً ودفعوا لهم بالنقد! كانت مصادفات نحسة رغم انها انتهت الى خير لكننا نريد الوصول لمنبع هذا الخير وتقديم فروض الامتنان والشكر، نروم الاحتفاء بالبطل بما يستحق..

وقفت لويزا فجأة لتعدل وضع كرسيها ورمقت صديقتها بنظرة لا تجيدها سوى المرأة عندما تعبر عن فهمها لما تقوله امرأة أخرى، فيما مرّرت

الشهباء كفها البيضاء لتزيح خصلات شعرها الطويل المنهمر على نصف وجهها. إنزاح قلب مالك من اليسار الى اليمين مع انزياح الشعر هامساً بخفوت واااااااااااو! وهي صيحة اعجاب تعلمها في الفترة الأخيرة. انطبعت برأسه لقطة الكف البيضاء بأظافرها الحمر، الكف المرفوعة لتزيح الشعر الأشهب المنهمر على جيد ناصع وأحس برغبة مجنونة أن تتجمد هذه الفتاة مثل لقطة فوتوغراف لتبقى ماثلة أمامه كأيقونة مقدسة.

دقائق استراحته القصيرة تمضي سراعاً بعد أن أكمل إعداد السلطات وغسل قبلها الصحون وجلس في زاوية المطعم التي اختيرت له عمداً لكيلا يراه أحد الزبائن أو المعارف. هذه هي الساعة الأخيرة من يوم عمله الرابع هو طالب اللجوء الذي صدر قرار إعادته الى بلده مرفوضاً، فلجأ بعد سنين تشرد للعمل الاضطراري غير الشرعي في هذا المطعم بديلاً عن عامل مريض. كانت قصة الاختطاف التي جرت في عاصمة بلاده قد هزته هزاً. أكثر من مرة، أثناء حوار الفتاتين، كاد يصرخ:

أنه مواطني، ذاك الذي أنقذ أباك!

لقد ثأر ذلك الشجاع، ابن بلده، لكرامته هو المركول بقوانين لا تريد الاعتراف به مقيماً شرعياً فعاملته كما يُعامل اللصوص. لابد أن يعرف هذا الملاك الأشهب أنه مواطنه، لكن حتى هذه المتعة الصغيرة، متعة الاقتراب من هذه المهرة الشهباء ملوحاً لها بصلة المواطنة مع الذي أنقذ

أبيها، واقتناص متعة النظر لرفيف جفنيها وارتفاع حاجبيها بدهشة وهي تقول: "وواو.. أنت أيضاً إذن من هناك"، حتى هذه الأمنية التي يمكن أن تشحن أيامه الشاحبة بضوء الحياة، لا يمكنه تحقيقها، فأول شروط العمل في المطعم هي ألا يكشف نفسه لأحد وألا يتصل بأي أحد لأنه يعمل بدون عقد قانوني..

دقت ساعة الكنيسة معلنة الثامنة مساءً. أوت آخر الطيور المشاكسة الى أعشاشها محدثة جلبة في فضاء باحة المطعم وانتهت آخر فعاليات عمل مالك في المطبخ بعد أن أكمل تنظيف آخر الصحون. تعود ببطء عمله غير الماهر، حركات مسرعة لكنها بليدة رتيبة كالعادة تحتاج ألا يحس الدماغ بها كي لا يضرب عن العمل احتجاجا. ولرتابة المهام، ولكيلا يموت العمال مللاً تاركين الزبائن بلا طعام، منحهم صاحبُ المطعم يومياً أربعة كؤوس من البراندي. لم يجرب مالك شرب البراندي الا عند بدء عمله في هذا المطعم الأثيوبي. كان يبدأ كأسه الأول في الثامنة فيصل شواطئ التاسعة والنصف محمولاً على أجنحة الخيال بمزاج رائق يتيح له تبادل بضع كلمات لطيفة مع آخر عاملين قبل أن يقفلا الباب، ثم يلج الباب الخلفي الى زاويته التي يبات بها والتي تشبه زاوية قططهم في بيتهم الريفي القديم.

زحف مؤشر ساعة الكنيسة باتجاه التاسعة، عندما أفرغ الكأس الرابع في جوفه. بدأ آخر العمال المتبقين بتنظيف المطبخ مستعداً للمغادرة، ولم يبق

في الصالة التي رقصت في فضائها موسيقى ناعمة غير الفتاتين اللتين راق لهما خلو المكان فانهمكتا بحديث حميم طويل بدا بلانهاية وشيكة. لم يتناول بعد وجبته من السمك هذا المساء، سيتناولها بعد انصراف الملاك الأشهب. لا السمك ولا غيره يحق له مصادرة لحظة واحدة من هذا العرض الممتع مع دورين وصاحبتها. ألا يستحق مالك الحزين بضع دقائق من الفرح؟ فجأة تذكر حديث المعلم المناكد، الذي كان يلقبه مالك الحزين ويلومه على هدوءه المبالغ به:

– هل تعرف كيف يصطاد مالك الحزين السمك عندما لا تفلح طريقته المعتادة بمد منقاره والامساك بسمكة؟ يرمي بقطعة من بقايا طعامه الى الماء ثم يترقب مثلما يفعل أي صياد، ما أن تقترب السمكة منها حتى ينقض عليها بمنقاره الطويل. هكذا والا مات جوعاً"

ما الذي ذكّره بهذه الحكاية العتيقة؟ البراندي الذي بدأ الدبيب الى أصابع أقدامه؟ أم الحكاية التي سمعها من الفتاة الشهباء، أم السمكة المشوية التي تنتظر في الفرن؟ تأوه بصوت خافت:

– بحيرتي المالحة خالية من الأسماك يا استاذ، أحتاج لمعجزة!

عاد صوت المعلم يهمس مقرّعاً:

– المعجزة تصنعها أنت! الحظ قد لا يطرق الباب الا مرة واحدة!

اهتزّ مالك وفرك عينيه جيداً فأحس بحرقة الخلّ الذي ما يزال يبلل أصابعه، لكن المعلم لم يتركه، بقي ينظر له مستفزاً مثلما كان قبل قرابة عشرين سنة:

– مشكلتك في هذه الحياة هي الهروب، والمعجزة تصنعها أنت لا أحد آخر!

– أنا؟ كيف أصنع المعجزة؟ أنا غير قادر على ضمان مبيت ليلة في مكان دافئ!

– لأنك لم تفكر لحد هذه اللحظة سوى بالهروب. أنت لا تقاوم، بل تهرب، ولذلك فأنت تُغري أضعف كائنات الأرض باللحاق بك! جرّب أن تهرب أمام أضعف المخلوقات، أمام نعجة، أو دجاجة، أو بطة، أو حتى سمكة، ثق أنها ستترك الماء وتركض خلفك! ارفع يدك بوجه الحياة، اكشف لها عن أنيابك!

نعم. المعلم محق، هو يهرب. كل ما فعله حتى الآن هو الهروب! آآآآخ.. لماذا تجتمع كل الآمه في هذه اللحظة؟ أجمل لحظات الحاضر غالباً ما تنتهي بنا الى ضفاف الألم والذكريات المحزنة. حدق بوجه الفتاة الشهباء، كانت قد رفعت رأسها الى أعلى ناظرة بتأمل الى السماء فظهر جيدها الأبيض كما لو انها كانت تنتظر قبلة من أحد ما. أحس بصعود البخار الى رأسه فصاح بخفوت:

"آه.. ما هذا الذي أرى؟"

صمت صوت المكنسة الكهربائية ونزل آخر العمال ليلم الصحون والفناجين الفارغة من طاولة الفتاتين. دقائق وتنصرف دورين وصاحبتها فيعم الصمت المكان. فجأة قرر الانتقام لكرامته التي ديست مراراً منذ حلوله في هذه البلاد، سيكون الرجل الأجرأ على الأرض! سيكون مثل ذاك المجهول الذي أنقذ اب دورين! برقٌ ومضَ برأسه فقرر شيئاً. حتى لو كُشف الآن خارقاً لاتفاق العمل، ليذهب كل شيء للجحيم، الاتفاق، والعمل، والسمك، واللجوء، والقوانين! لابد أن يقترب من هذه الفتاة بعذر ما، لابد أن يراها عن قرب أكثر. أرخى القبعة على جبهته ونزل من سلّم البار بهدوء منكساً رأسه الى الأرض. لم يثر انتباه أي من الفتاتين المنهمكتين بحديث عن مجتمع نيويورك الا بعد أن أسقط ملعقة على الأرض فانتبهتا له. أحس بالحرج وتقدم منهما محني الرأس بخجل وارتباك. صمت لحظه لا يعرف ما الذي يفعله ثم وبلغة سليمة وبأدب جم قال متوجهاً لدورين:

– مساء الخير، سامحيني على الازعاج، هل يمكنني خدمتكما بشيء؟

ردت الفتاتان بصوت متداخل:

– كلا، شكراً نحن على وشك المغادرة، هل آن أوان إغلاق المطعم؟

قال والاحراج بادياً على ملامحه:

– كلا ليس هذا المقصود، يمكنكما البقاء حتى العاشرة، أردت القول.. إذن، هل لي أنا بخدمة يا آنسة؟ تلفوني النقال ضاع بين الأواني وأنا بانتظار إجراء اتصال مهم، هل لك أن تطلبي رقمي من هاتفك لو سمحت لعله يرن هناك!

على عجل تناول من جيبه ورقة وكتب عليها رقمه وسلمها للفتاة الشهباء التي بدت له أجمل بكثير من صورتها التي رآها من خلف الزجاج المعتم وهو في زاويته. إستغل الثواني التي مدت دورين خلالها أصابعها الدقيقة البيضاء الى حقيبتها الحمراء التي تطابق تماماً لون شفتيها فحاول، اثناء فرصة انشغالها بكتابة الرقم، تعبئة ذاكرته بكل ما أمكنه رؤيته من بهاء حضورها، ليتأمل ويمعن النظر بتفاصيل وجهها. ملاك، ملاك يجلس في مطعم! استلت تليفونها، ثم انتبه لنفسه يتمتم:

–لا بد أنه سيرن في مكان ما..

جربت الفتاة الرقم فأنبعث الرنين من بين الصحون وصاحت الفتاتان بصوت واحد ضاحكتين:

–هناك، هو يرن!

هرع باتجاه مصدر الرنين رافعاً يده شاكراً. التقط الهاتف وعاد الى زاويته المعتمة محاولاً استرجاع تفاصيل ملامح الشهباء.

# 2

ما كان ممكناً لأن يغدو مالك مشغولاً بنفسه وبتفاصيل اللحظة الراهنة كل هذا الكم المكثّف من الانشغال، لو لم يلتو مسار الزمان ثم يستدير راكضاً نحو ضغائن التاريخ وأحقاده التي لا عد لها. لو سارت الأيام بإيقاعها التراتبي المعهود، لما وجد نفسه بحاجة الى بلد بديل يستعطفه السماح له بمبيت ليلة تحت سقف، فهناك حيث ولدته أمه، لم يكن قوت اليوم، ومكان النوم، يشغلانه يوماً. هناك كان يهتم بانشغالات أكثر سعة وعمقاً، مثلاً، التفكير برشاقة قانون الاستمرارية وهو يتحرك بهدوء ورزانة وصبر منهمكاً بتسيير حياة الجموع وحل إشكالاتها العرضية المتشابكة دون كثير من الضجة. ولطالما أغراه الغوص في أعماق الاثنين: الكائن البشري الذي يراه أمامه يعيش حياته الانسيابية المتكررة محشوراً في جوف حافلات النقل العام، أو واقفاً بصبر أمام دكان الخباز ينتظر دوره تحت المطر راضياً أن يشترك ببلله مع الجميع، والقانون رهيف القوام الذي كان يشير للأول غامزاً بطرف عينه: لا عليك. عش واملأ البيت بنيناً وبنات. سيعيشون مثل غيرهم ثم يموتون مثل غيرهم، لا جديد في القصة!

كان متأملاً من طراز فريد، وربما كان مشروع فيلسوف لم يكتمل بعد، نعم هكذا كان اساتذته ينعتونه: الفيلسوف الحالم! في البيت غالباً ما ينتشله صوت أمه المتكرر:

– فنجان الشاي قد برد سآتيك بفنجان آخر.

– هذا ايضاً تجل آخر لقانون الاستمرارية..

– ماذا قلت؟

– لا شيء. قلت شكراً. لأنك أتيت بي لعالم لا يعرف نفسه!

تضحك أمه من شروده وحواره معها التي لا تفهمه.

كان حرياً به إذن أن يكتب القصة لا أن يكون هو بالذات موضوعاً لها. وفي يوم لم يتوقع حلوله، تغيرت الوجوه وكأنها لم تكن طيلة السنين التي عاشها وجوهاً، بل أقنعة ألقيت الآن جانباً لتكشف عن أشكال حامليها الحقيقية. فجأة انفجر كل شيء مثل قيح جرح مسموم. كان الوقت يمرق سريعاً حتى لم يسعه التفكير بإجابات على أسئلة مثل: كيف تبدلت النفوس بهذه السرعة؟ من أين للناس هذه الطاقة العجيبة على الكره واختلاق المواقف المضادة والبحث في طيات الماضي عن الاختلافات والمتعارضات؟ من أين لهم هذه القدرة على نسيان بعض من ماضيهم واستحضار بعض آخر لم يكن أحد يفكر به من قبل؟ لا مفر، فقد اشتبكت ديكة القوم مع بعضها وتعالت زوابع الريش المنتوف. فتش مالك في أعماقه فوجدها خاوية من مخزون الكره والانتقام والتحامل، ماذا سيفعل؟ بدون هذه العدة ستدوسه الأقدام! كان عليه أن يملأ جعبته بالصراخ والسباب

ويهرع مع القطيع، أن يتسلح مثل الكل بالبنادق، والأحجار، والخناجر، والقنابل، والعبوات الناسفة ثم يقف ويقول لنفسه:

"إن لم تبادر بالقتل تُقتل".

أليست هذه هي فلسفة الحروب منذ بدء الخليقة؟ أليست هذه هي الفزاعة التي يرفعها خالقو المعارك أمام جنودهم لكيلا يتراجعوا ويمعنوا بالمضي في القتل؟ تصور مثلاً أن ترزق الطبيعة عالمنا بمن يعيد ترتيب هذه الجملة بصيغة أخرى:

"إن لم تبادر بالقتل لن تُقتل"!

وتصور أن كل جندي في أية معركة، من الطرفين، لا يبادر بالقتل، عندها سوف تنتهي الحرب قبل أن تبدأ، أو على الأقل ستكون حرباً سلمية، ستكون حرباً بلا قتل ولا قتلى مثل معارك الأطفال! لكن هذه لا تعدو أن تكون أمنية مثل أماني الأطفال وكلام عن غيب ربما لن يأت، أما عندما انشغل الأبناء ببعث تراث الأجداد الأباعد في حرق خيام الأعداء وسبي نسائهم وقتل أسراهم، فقد اكتشف مالك في نفسه موهبة لم يعرفها من قبل؛ هي موهبة الاعتراض على قواعد القطيع! قفز قفزة هائلة في الهواء فرفض طلب أهله تسليمهم صديقه لأن أقاربه متهمون بقتل أحد أقاربه هو! وهذه القفزة غير المتوقعة، هي الحدث الكبير الوحيد بحياته الذي جعل من قصته الرتيبة مرشحة لأن تقفز بدورها لكي تُسجّل كرواية. لم يكن ما فعله متوقعاً

فهو تمرّدَ على قانون الحرب في زمن الحرب، وبدلاً من الانتظام بالقطيع، الذي كان يعيش حالة التوحش والهياج والانفلات، أصرّ على الخروج منه. وجد نفسه واقفاً بمواجهة أهله حاملي البنادق المعدة للإطلاق مدافعاً عن صاحبه. صرخ، فلم يفهم لغته أحد. كانت على ما يبدو لغة قديمة بمفردات اندثرت أو كادت. كان يتحدث عن زمن مضى أما الآن فكل شيء تغير.

أجابوه:

– اشتر بفلوس اليوم لا بفلوس راح عهدها!

– كيف راح عهدها؟ متى راح؟ ومن أعطاكم الحق بإلغاء فلوس الأمس؟

بالنتيجة كان لابد له، بعد أن اشتعلت الآفاق وعُدَّ هو وصاحبه من الخائنين، أن يتسرب من بلاده خفية ضمن حقبة سيحكي التأريخ عنها يوماً، حين كان الناس المطارَدون، المقهورون يأتون من بلدانهم الهشة، المدماة كديك عراك منتوف الريش، بلدانهم التي أنهكتها سنين من التعاضض والخرمشة مع بعضها، وغرقت فيها القوانين والكتب والأغاني بدماء لا يعرف أحد لمن تعود، الى بلاد بعيدة، هادئة، متينة، متعافية، للاحتماء بقوانين يسمونها "قوانين حقوق الإنسان". كانوا يحكون قصصهم، ثم يمنحون حق البقاء كلاجئين يتدرجون في التدرب على العيش كبشر كاملي الحقوق. هكذا كان ووصل الى البلاد المتعافية الهادئة بعد رحلة مريرة غير هادئة. المعضلة الثقيلة التي واجهها بقواه الواهنة، أن "قوانين

حقوق الإنسان" هذه تقاس كما يقاس خط لمعرفة مدى انطباقه على حد مسطرة. لكل محقق مسطرته، يسمع القصة ثم يمد المسطرة عليها: ما قلته هنا لا ينطبق على ما هو موجود على مسطرتي وهذه النقطة تحيد عن تلك، وتلك عن هذه وتفضل عد الى وطنك أيها الولد العاق!

في جلسة التحقيق التي أعقبت انتظاراً عبثياً طال لقرابة عام كامل، سأله محقق ذو وجه منطفئ الملامح مثل ذئب مسّن:

– احك لنا كل ما يخص وضعك، ابدأ أولاً بشخصيتك.

– عمري 23 سنة. متخرج من كلية الفلسفة. أعزب، لم أزر أوربا من قبل. لم يحكم عليّ بالسجن لأية قضية. لم أطلب اللجوء في أي بلد آخر. ليست لدي أية نية لاستدعاء أي من أفراد عائلتي الى هنا. وجودي هنا مرهون بانتفاء الخطر الذي أجبرني على الرحيل. نملك بيتاً بثمان غرف وبستان نخيل وسيارتين طراز العام الماضي..

قاطعه المحقق:

– لم يسألك أحد عن الملكية والبيت! هل أنت منتم لحزب سياسي معارض وملاحق؟

– لا

– مضطهد من قبل السلطة بسبب كونك من دين آخر أو من طائفة دينية أخرى؟

– لا.

– مضطهد بسبب كونك من قومية أخرى؟

– لا.

– ما قصتك إذن؟

صمت شاعراً بحرج غير مسبوق ولم يجد المدخل الملائم لشرح قصته، ماذا يقول؟ هل سيحكي عن قبائل رعاع تتعارك مع بعضها على حصصها من رمال التاريخ؟

لم يترك صمته أثراً مُسرّاً على ملامح المحقق فسارع الى القول:

– أثناء الهيجان، أقصد الحرب الداخلية، واكتشاف الناس أنهم ينتمون لمجموعات مختلفة لا واحدة، دافعت عن صديقي ورفضت تسليمه الى جماعتي لكي تقتله. فعلتها بتلقائية لأني لم أتمكن من فعل غيرها، ولما اندلعت المعارك وسقط قتلى من الطرفين اعتبرت متمرداً ومرتداً مثل صاحبي وحملونا مسؤولية دماء الضحايا. لم يكتفوا بذلك، فبما أن لكل مجموعة حزبها جعلوا مني ومنه متمردَين على حزبي المجموعتين! هربنا، هو الى جهة غير معلومة وأنا الى هنا.

– ما سبب اختيارك هولندا بالذات؟

– بصراحة لم يكن ذلك اختياري، بل اختيار المهرّب الدليل. كان من الممكن أن أصل السويد، أو الدنمارك، أو المانيا، او فنلندا، أو النرويج أو حتى كندا، ولكن لو أتيح لي الاختيار لما اخترت غير هذه البلاد!

– هل لك أن توضح كلامك، لماذا كنت ستختار هولندا؟

كان متلهفاً لسماع هذا السؤال فعادت له ثقته بنفسه التي سلبتها منه أسئلة المحقق فأجاب بصوت خلى من ارتعاشه الذلّ هذه المرة:

– نعم سأختارها، هولندا هي البلاد التي استقبلت في القرن السابع عشر الانكليزي جون لوك رائد مبدأ التسامح والديموقراطية، والرياضي والفيلسوف الفرنسي الأبرز ديكارت فانتج فيها خلال عشرين عاماً من حياته أفضل ما كتب في الرياضيات والفلسفة. هولندا كانت الجمهورية الفتية النشطة التي احتضنت كبير فلاسفة النهضة سبينوزا، البلاد التي قدمت كرسياً جامعياً إلى العالم الإيطالي غاليليو بعد أن هددته محاكم التفتيش في بلده ايطاليا بالتعذيب.. أولى الديموقراطيات التي..

لم يكمل المترجم ترجمة جملته الأخيرة حول تهديد غاليليو إذ اضطر لترجمة سؤال المحقق المباغت:

– إذا ما أعدناك الى بلادك ما الذي تتوقع حدوثه؟

هوى مالك للقاع من جديد، بعد أن تخيل نفسه قد أقنع المحقق بتماثل معاناته مع معاناة الذين أنصفتهم هولندا قبل قرون! فزع من كلمة أعدناك وتصور نفسه مكبل اليدين برفقة شرطيين غليظين فصاح مأخوذاً بالمفاجأة:

– تعيدوني؟ هذا مستحيل. أنا الآن ميّت بنظر معارفي وأنتم مسؤولون عن سرية وجودي حياً هنا. عودتي ستعني ليس قتلي فقط، بل النفخ في الجمر مجدداً.

منحه المحقق فرصة أخرى لإثبات أن إعادته ستشكل خطراً على حياته فاستطرد بسرد الكثير من الأحداث المليئة بالمجازفات والمخاطر، ولكي يحمل المحقق على الاقتناع بحاجته للحماية لم ينس أن يبين بصدق وتلقائية أنه لا يريد أن يكون عالة على البلد المضيّف:

– أنا على استعداد للعمل مباشرة وأرفض أي شكل من المساعدة المالية بدون مقابل.

ضحك المحقق والمترجم معاً وابتسم هو ببلاهة مجاملةَ لأنه لم يجد مبرراً للضحك، لكن المحقق هاجمه بجملة مهشمة مباغتة:

– فهمتُ، هذا يعني أنك قادمٌ للعمل، أي أن مشكلتك اقتصادية!

عبثاً حاول انتزاع قدميه من الوحل اللزج الذي دفعه اليه هذا المحقق:

–كلا، ربما أخطأت في اختيار الكلمات المناسبة، أنا لا أريد تكليف الدولة، أنا مستعد للاكتفاء بإقامة مؤقتة تجددها الدولة وفقاً لتطور الحالة!

بعد انتهاء التحقيق أحنى المحقق رأسه وتبادل بعض الكلمات مع المترجم الذي أبلغه بانتظار قرار وزارة العدل. لكن مالك لم يكن مطمئناً لسير التحقيق، ولا لأجوبته التي مرت على ملامح المحقق بدون أن تترك أي أثر عليها وكأنه كان يستمع نشرة أخبار محلية مسلية تحكي عن مسابقات عرض أزياء أو حالة الطقس المتوقع. تحدث بانفعال عن الرصاصات الخمس التي اخترقت رأس ابن عمه لتصيب أخاه بعينه، وعن المخطوفين السبعة من معارفه الذين عُلق ثلاثة منهم من أقدامهم بين الماء وحديد الجسر المعلق، وأخت صديقه ذات العشرين التي سحبتها شبكة صياد من قاع دجلة بعد اختفائها بشهر، لكن وجه المحقق بقي كما هو حيادياً مثل وجه خروف محنّط. أما المترجم فلم يكن وجهه معبراً عن حد أدنى من التفاعل مع الأهوال التي يسمعها.. لذلك خشي مالك من ألا يترجم المترجم ما يقول فكان بين جملة وأخرى يعيد عليه السؤال: هل أن ما أقوله واضح؟ وهي الجملة التي أرهقت أعصاب المترجم فردعه بجملة ناسفة:

– ما هذا؟ هل تعلمني اختصاصي؟ أنا لدي شهادة عليا في الترجمة الفورية!

عرف فيما بعد أنه تسرع وأخطأ في تحمسه وتبيان استعداده للعمل، لقد دفعه صدقه ونزعته في تمييز نفسه عن القادمين الكسالى المتطفلين الى محاولة القول:

أنا لست مثل هؤلاء.

ولكن كيف سيفهم هذا المحقق الأمر؟ هل سيرى فرقاً بين لاجئ وآخر؟ وهل سينجو من مصيدة الشك بأنه قدم هرباً من الفقر؟ ربما اعتاد المحققون على أكاذيب الغرباء القادمين فلم تعد لديهم قدرة التمييز بين الصدق ونقيضه!

في مركز استقبال اللاجئين، خط مالك لنفسه مساراً منعزلاً. قبل كل شيء بسبب حراجة وضعه وخوفه من تسرب وقائع هروبه الى من طارده. وباستثناء علاقته الودية مع سيناي الطبيب الأثيوبي الذي يعيش في المركز سنته الخامسة، تجنبَ الاختلاط بأي من طالبي اللجوء. كان هؤلاء خليطاً من بشر قدموا من بلدان الجفاف والفقر وكوارث الطبيعة، وخبل السياسة، واندس بينهم لصوص صغار، ومزورون يتلاعبون علناً ببطاقات النقل اليومية بتغيير تواريخها، ويبيعون بضائع مسروقة، ويروجون تعاطي الحشيشة، وينهمكون باكتشاف وتطوير تقنيات مستحدثة للمرور من باب السوبر ماركت دون أن يكشف الجهاز ما تحت ستَرهم. سلوكيات الكثيرين منهم مريضة، مخجلة دعته لتمييز نفسه عنهم.

كان يجد عزاءه في يوم الأحد الهادئ حيث يخلو المركز من فتية الشرق ويبقى هو بصحبة سيناي الذي كان مثله لا يزور منطقة المقاحب. كل طالبي اللجوء يلجأون نهاية الاسبوع الى الريد لاين في العاصمة. هناك تعرض النساء العاريات خلف الزجاج مثلما تعرض الألبسة الداخلية، والأحذية، منهن السمراء والبيضاء والسوداء لا يصدنّ أحداً مادام يملك ما يسمح له الولوج الى أجسادهن.

وفي المساء يستعرض القوم الغزاة، نتائج مغامراتهم:

– كانت شريكتي سوداء بوجه بشع لكنها هائلة العجيزة، ولكن ما يهمك من وجهها؟ أنا رأيت عجيزتها من وراء الزجاج وداخلني الخبل..

– أما أنا قلت لها أريد على الطريقة الفرنسية ولم ترض، قلت أدفع ضعفاً فرضخت.

– صاحبتي كانت تعض، تصرخ بالإنكليزية I dont want وتبكي، والله لا أكذب عليكم أنظروا أكلت جسمي عضاً، قلت لها ابنة الكلب أنا دفعت نصف ما أملك وأنت dont want!

– المرة القادمة نتبادل، كل منا يجرب التي جربها غيره!

– احمد ربك، نحن أفضل ألف مرة من جماعتنا بالسويد، هناك سقرطة حقيقية!

كان سيناي يعلق على حديثهم بشعور من القرف:

– أنتم لستم طلاب لجوء، أنتم طالبو قحاب! حتى الثور لا يراود البقرة عن نفسها الا إذا قرأ الرغبة في عينيها وأنتم تنكبون على بائسات لا تعرفوهن قد جربهن الآلاف غيركم! لو كنت أمثل حكومة هذا البلد لأرسلت لكم قطيعاً من القحاب وتخلصت من مشكلة اللجوء!

حادثةٌ حدثتْ، خُطط لها أمام عينيه ونُفذّت بعد أن توهمها مزحة، جعلت مالك يعتكف في غرفته، منشغلاً بتعلم اللغة أو بقراءة كتاب، أو بالنظر للأفق المزروع بالبقر السارح، لا يود حتى تبادل الكلام مع أي إنسان. حدث ذلك أثناء أول شهر له في المكان، قدم شرطي الى غرفته وطلب منه بلطف، ولكن بجبين مقطب مرافقته على الدراجة دون أن يوضح الى أين:

– نحتاجك لمساعدتنا!

خاف أول الأمر، فمساعدة الشرطة تذكره بأعمال التجسس والابتزاز، لكن رتبة وملامح الشرطي الذي تبادل معه بضع كلمات، تدل على حاجته الفعلية لمساعدة ما لم يعرف طبيعتها. قاده الشرطي الى بداية الغابة ثم انعطف يساراً الى حيث بحيرة سياحية منع اللاجئون من دخولها قبل عام بسبب أعمال تخريب سابقة، وقتها، كما سمع من آخرين، تظاهروا رافعين لافتة كبيرة تحمل كلمتين:

لا للعنصرية!

لكن إدارة المنتجع أصرت على موقفها وبقيت البحيرة محرمة على اللاجئين. كانت سماء الربيع فوق البحيرة باهتة الزرقة تتقاطع على سطحها سحب بيض خلفتها طائرات رائحة غادية من والى مطارات العالم. فوق صفحة الماء حلقت عشرات النوارس مثل جناح نسر عظيم مطلقة قهقهتها، فيما انتظمت أسراب بط بمجموعات تهرع باتجاه أي قادم يقترب من الضفاف طلباً للهدايا من فتات الطعام. راح خياله بعيداً الى البط هناك في البلاد التي طاردته، وفجأة توقف الشرطي وأشار الى مساحة جرداء فارغة داهمت عينيه كصلع مباغت في رأس فتاة جميلة. هناك تناثرت قصاصات صحف وقنان فارغة وعلب متروكة فوق مساحة كئيبة من الرماد والعشب المحترق تقارب العشرة أمتار مربعة وسأل:

– من تعتقد فعل هذا؟

دهش مالك من المنظر والسؤال معاً وقال:

– يا للبشاعة، حقاً من فعل هذا؟

رد الشرطي مطمئناً:

–أعرف أنك إنسان متعلم ومهذب تجيد الانكليزية وأردتك أن تبلغ الآخرين علّنا نعثر على الفاعل. كل اللاجئين يأكلون لحم الدجاج ثلاث مرات في الأسبوع، لم هذا الاعتداء الشرس على كائنات وجدت لتزيين المكان؟

لم يفهم أول الأمر قصد الشرطي في الكلام عن طعام اللاجئين الى أن وقع بصره على كومة ريش منتوف! يا للهول، ثمة من اصطاد بطاً من بط البحيرة المحمية وأولم على ضفافها! شعر وقتها بخجل لم يسبق له أن شعر بمثله حاول ستره بأن تشاغل عن وجه الشرطي فحول وجهه الى ناحية أخرى. لابد أن وجهه اصطبغ باللون الوردي فجبهته قد نضحت عرقاً. هو متأكد الآن أن شريكيه في غرفته، يوسف الذي لا ينام قبل أن يرتل نصف ساعة من الذكر الحكيم وأمين المختص بأعمال تزوير بطاقات النقل، هما من فعل ذلك وبطريقة لا بد أن الشيطان قد سجلها في سجلاته بإعجاب منقطع النظير. عادت له وقائع تلك الليلة حين كانت الأنوار مطفأة وكل شيء في الصالة يستعد للنوم سوى بضع بعوضات شرسات درنَ حول رأسه فلم يتمكن من الإغفاء. كان يوسف وأمين يثرثران كعادتهما قبل النوم. هذه المرة كان موضوعهما عن طريقة مبتكرة لصيد بطة من البحيرة، وكان مالك يعتقد أول الأمر أنهما يمزحان مثل كل مرة.

قال يوسف:

– أتعرف كيف يُصاد البط؟ لديّ طريقة مبتكرة لم تسمع بها من قبل، ستأتيك البطة بسهولة وأنت واقف على الشاطئ!

– كيف؟

– قبل كل شيء لابد من أنبوب بلاستيكي رفيع طويل، سأثبت في طرف منه بإحكام قطعة من سمكة والقيه في الماء، ستأتي البطة سابحة نحوه وتلتهمه. بعد أن يدخل الطرف جوفها أنفخُ من الطرف الآخر فتختنق وأسحبها. طريقة مجربةّ!

– أشهد أنك عبقري، ولكن كيف تضمن أنها لا تهرب مسرعة ساحبة الانبوب فتلويه وتغلق مجرى الهواء؟

–هذا يعتمد على سرعة تنفيذ المهمة، لا تستغرق العملية على يدي أكثر من نصف دقيقة، ما أن تلتهم السمكة سأنفخ ولن أمنحها فرصة إخراجه من مرئها!

–وسأتكفل أنا بالحطب والخبز..

رد أمين.

ذلك هو بالضبط ما فعلاه!

كانت تلك طريقة مبتكرة لصيد البط البري. قُتلت البطة وصار قاتلاها يوسف وأمين لاجئين قانونيين، ولم يقتنع المحقق بقصة مالك التي عدها خارجة عن نطاق الملاحقة السياسية أو الدينية، فجاء قرار وزارة العدل صارماً: بما أنك غير مطارد لسبب سياسي، ولست مضطهداً دينياً، إذن سيرتك لا تتطابق مع خط المسطرة القانونية فقضيتك خاصة لا تستوجب الحماية. عليك مغادرة البلاد خلال أسبوعين!

أول الأمر، ورغم توقعه مثل هذا القرار، لكن كيانه كله اهتز من عبارة: " مغادرة البلاد خلال أسبوعين" فكيف يعود وهناك خمسة قتلى يحملونه مسؤولية قتلهم؟

صرخ، هو هادئ الطبع عادة، بوجه المترجم:

– مغادرة البلاد الى أي بلاد؟ مغادرة البلاد بعد أن صادفت الأهوال لكي أصل اليها؟

–لا تصرخ، هل أنت في بلاد رعاع حتى تصرخ؟ أنت الآن في أوربا!

دفع اليه المترجم بورقة مدحرجاً بضع جمل يابسة من فمه:

– بإمكانك الاستئناف، لكن بعد ترك هذا المكان الى آخر. خذ هذه التوصية اذهب غداً في الثامنة الى موظف التسفيرات سيشرح لك كل ما تحتاج فهمه.

مبكراً، في صباح اليوم التالي وقف أمام شباك موظف التسفيرات. كان الصيف قد شاخ، هزلت أطرافه وتعب من فرط التكرار والملل، فبدا مثل فلاح أشيب يتكئ على جدار طيني متآكل. انتبه الى أن شجر الحور أمسى ممتقع اللون كمريض يائس. كم مر الوقت بسرعة منذ أن أورقت براعم الأشجار، حتى لم يكد تمييز الربيع الذي أتى برفقة الصيف فاختلطت معالمهما، كلاهما مطر وسماء رمادية. بأقل من دقيقة استل الموظف ورقة من آلته الطابعة ودفعها لمالك من تحت حافة الزجاج.

تمعن بالورقة التي استلمها وفهم أنها شرح لكيفية الوصول الى عنوان مكانه الجديد: "نزل سد البقر" لصاحبته مفراو سانتيفورت" مع وصف مسهب للقطارات التي يتوجب عليه الانتباه الدقيق الى مواعيدها، وأماكن انطلاقها ثم الحافلة الأخيرة التي ستوصله الى موقف يسمى درب القرية وهو محطته الأخيرة. لم يتمكن من كتم شعوره بخيبة الأمل والقنوط فتمتم مع نفسه متبرماً:

– نزل هذا أم منفى؟

فأجابه موظف الترحيل كمن فهم ما يدور في رأسه:

– أنا آسف جداً، المكان بعيد عنا، يتوجب عليك الوصول للنزل هذا المساء، يؤسفني إبلاغك، إذا تعذر عليك الوصول لا تعد، لأن مكانك

سيكون مشغولاً واسمك مشطوباً، أعرف أنه إجراء قاس لكن الضغط على هذا المكان هائل.

قال ذلك وخط بالأسود القاتم على اسمه في سجل النزلاء فمحاه تماماً متعمداً أن يكون ذلك أمام عينيه، ربما كي ينحر آخر أماله في العودة. عاد الى غرفته كازاً على أسنانه بقوة مَن يقاوم انفلات شتيمة متخمرة من بين شفتيه طال أمد تخمرها فانتفخت الى حدود الانفجار. لكم يبدو هذا النزل بعيداً؟ سبع ساعات من القطارات والحافلات لا يتصور المرء أن يكون خلالها قد بقي ضمن حدود هذا البلد الصغير! رأى أمين منشغلاً بتغيير تأريخ بطاقة سفر بمساعدة سائل تنظيف نفّاذ الرائحة، أراد أن يرشقه ببصقه لكنه تجاهله ولم يكلمه. جمع أمتعته القليلة بسرعة ودسّها في حقيبة الظهر الزرقاء العتيقة، ولم ينس أن يحتاط للوقت الطويل الذي سيمر بانتظار مواعيد القطارات فالتقط عدداً قديماً من مجلة تايمس ثم مضى الى المطعم ليتناول وجبته الشرعية الأخيرة كنزيل قانوني.

لماذا نشعر بالتعب عند السفر رغم أننا نجلس طوال الوقت؟ ربما هو ثمن فقدان حرية الحركة. كان الوقت قد قارب الغروب عندما أنهى رحلة القطارات وتوجه الى موقف الحافلة التي ستنقله الى "نزل سد البقر لصاحبته مفراو سانتيفورت". هذه هي المرحلة الأخيرة من يوم طويل، كانت المحطة الصغيرة خاوية الا منه وكأنه الكائن الوحيد على الأرض. توقفت الحافلة فتقدم راسماً ابتسامة ودية على شفتيه وأبرز الورقة الموقعة من

مركز اللاجئين للسائق كي ينبهه للموقف المطلوب. أطال السائق ذو الوجه الرخو المثلث الشكل مثل قطعة جبن البقرة الضاحكة، النظر لوجهه بدون أن ينطق كلمة واحدة. كان مثل من ينتظر تفسيراً أو شرحاً، فشرح له محتوى الورقة بتأن كما لو كان يتحدث مع من لا يعرف القراءة، لكن السائق بقي محملقاً بوجهه بشكل أثار استغرابه فسأله:

– وات؟ سمثنك از رونغ، آي سي!

رد السائق ببضع كلمات مبهمة بما لا يدع مجالاً للشك أنها كلمات مسبة فصفحة وجهه تجعدت كمن يشم رائحة فطيسة. ربما كانت شتائماً محلية صعبة الفهم فأعاد مالك السؤال:

– هل ثمة ما يستوجب الغضب؟

ولما لم يسمع جواباً، دلف لجوف الحافلة الفارغ خوفاً من تضييع الفرصة فقد تكون هذه الأخيرة. اختار آخر المقاعد وأسئلة متلاطمة تضطرب بأعماقه. ما الذي أثار السائق؟ لقد حياه وسأله بأدب عن العنوان فما الخطأ الذي ارتكب؟ لو كان له الخيار لما صعد و لأنتظر التالية، ولكن التالية قد لا تأت الا بعد ساعة. شعر فجأة بذل يسحقه سحقاً. لو أن السائق تكلم، لو كان أفصح عن سبب غضبه مهما كان لأمكنه معالجة الموقف، ولكن هذا التجاهل المريع الذي قابل به أسئلته قزّمه كطفل علم من ملامح أمه أنه أخطأ دون أن يعرف خطأه. لو وُجد ميزان عدالة لكان

هو أحق بالغضب، فقد بدأ رحلته قبل ثمان ساعات قضاها ركضاً للحاق بالقطارات والحافلات ضمن مرحلة أولية من عملية طرد مذلة من البلاد. في تلك اللحظة الميتة أدرك مالك معنى مفردة المواطنة!

كان المشهد بائساً لباص يقطع الحقول الفارغة الموحشة، خال الا من سائق غاضب بلا سبب وراكب يجلس في آخر مقعد أهين دون أن يعرف السبب. ألهى نفسه بقراءة المجلة ثلاث مرات من الغلاف الى الغلاف حتى الوصول لمحطة "درب القرية" والشمس قد سقطت خلف تلال البقر الذي كان يستحث الخطى باتجاه معالفه. غادر دون أن ينظر للسائق ومضى في الشارع الوحيد الذي ظنّه سيفضي به الى القرية، باحثاً عن علامة دالة على طريق لبلوغ نُزل سد البقر. توالى تكرار الاسطبلات والزرائب بلا انتظام، ما أوحش هذا المساء؟ وما أخفض هذه السماء؟ في صدر الأفق الرمادي الذي تخللته خيوط حمر، ذكّرته بمنظر قنبلة انفجرت قبالة حيهم، عندها صنع الدخان والنار لوحة مصغرة لجهنم كما تعلمها في درس الدين. دارت مجموعة من مئات العصافير دورتين استعراضيتين منهية يومها ثم غابت وراء أغصان أشجار الزان مخلفة عاصفة من زقزقة جماعية وداعية. مشى قرابة نصف ساعة دون أن يرى غير زرائب البقر واسطبلات الخيل تتناثر على جانبي الطريق، ثم انتهى الشارع المعبّد الى مجموعة أشجار زان مصفوفة بشكل تحذيري متغطرس كأنما تصرخ: ممنوع الدخول! تسائل من ذاك الذي تمكن من اكتشاف هذا النزل النائي؟

لم يشاهد أثراً لقرية فكان عليه التوقف لتحديد اتجاه مسيرته المتبقية. جال ببصره في الفضاء الذي غزته العتمة فلم ير في الأفق غير تراقص أضواء بعيدة فقصدها مختاراً الجهة الأكثر وميضاً باعتبارها الأكثر حضارة وعمراناً ولم يكن اختياره خاطئاً، فبعد مسيرة زلقة في الطين سقط خلالها مرتين على وجهه وسط تقافز الضفادع والهواء الرمادي يحجز الأفق عن الرؤية، تمكن من مشاهدة لوحة خط عليها بصبغ متساقط الحواف: "نزل سد البقر بإدارة مفراو سانتيفورت" وسهم نحيف يشير الى جهة اليمين. لم يشعره شكل السهم بالسرور، كان سهماً خبيثاً مثل لسان أفعى ماكرة. سار باتجاه لسان الأفعى الماكرة وكلما اقترب من مكان النزل المفترض، تكاثفت في الجو رائحة روث متعفن مختلطة بأبخرة مشاحنات وضغائن متخمرة تتصاعد في الهواء لا تُحسّ الا في الأمكنة التي يجبر سكانها على العيش بها. هناك، في مثل هذه الأمكنة القسرية لا يتكلم المرء الا صراخاً وينعدم احساسه بملكية المكان الخاص، والوقت الخاص، والاختيارات الخاصة، فيعوضها بالفوضى. وصله خليط أصوات بلغات مختلفة يهرب من مدخنة المنزل وصوت شجار يتصاعد وخليط لروائح طبخ ودخان وعفن فعلم أنه وصل.

بدا واضحاً أن اسم سد البقر لم يكن قد اختير عبثاً، كلا، فالنزل في الحقيقة هو ما يراه أمامه وظنه واحداً من الاسطبلات والزرائب. وكما وشت بذلك عمارته البائسة التي كشفتها مصابيح النيون، كان في أصله زريبة

كبيرةً للبقر امتدت بشكل أفقي طويل سقيم وممل من الشرق للغرب، علاها طابق ملفق بني من الخشب والقرميد. كان الإنهاك قد هده هداً، وطين وحشائش المزارع التي قطعها قد لطّخت رأسه وحذاءه وأسفل سرواله فبدا كتلميذ صغير في يوم ممطر. كل أحلامه الكبرى الآن تقلصت لتعلن عن نفسها بحلم صغير: النوم حتى الصباح بعد حمّام يزيل عنه ما أسمته العرب وعثاء السفر! كان باب النزل مواربا فدفعه باحتراس وبوغت بما بعد الباب الأول، لا وجود لممر، ولا بهو، ولا مقدمة تخصص عادة لتعليق المعاطف أو المظلات، أو خلع الأحذية. لا وجود لمساحة تمهّد لولوج فضاء آخر وللقيا وجوه جديدة، فألقى به الباب الأول مباشرة الى صالة يتوسطها تلفزيون ضخم ومجموعة تتحلق حوله. وما أن لامست أولى خطواته الأرض حتى وصلته من مكان ما وسط قهقهات الحاضرين صيحة امرأة بدت مثل مصاب بزكام مزمن:

– لقد لوثت الأرض بحذائك هذا، الا ترى أنك قد خضت بفضلات الأبقار حتى ركبتيك!

بهتَ، وماتت على شفتيه كلمتا التحية اللتان أراد أن يفتتح بهما دخوله النُزل. تذكر معلمه في الثاني الابتدائي الذي كان يصفهم لتفتيش أظافرهم الطويلة ونظافة مناديلهم؛ ولم يعرف كيف يتصرف إزاء هذا الاستقبال العدواني فدفع صامتاً بورقة الترحيل الى المرأة التي قدمت نحوه بوجه مجعّد بملامح من يستعد لتوجيه صفعة ثم صاحت ثانية:

– اخلع أولاً حذائك الملوث، لا حاجة بي للورقة فقد اتصلوا بي البارحة وأعلموني عن قدومك. لم نحسب حسابك للعشاء، أتيت متأخراً لذلك بإمكانك الذهاب مباشرة الى غرفة رقم 4 حيث ستشارك فيليكس الغرفة. الفطور من الثامنة حتى الثامنة والنصف. من يتأخر عن السادسة لا عشاء له..

كان على وشك الاختناق. لابد أنها مفراو سانتيفورت.

مرة قال له سيناي: كلما توغلت أبعد باتجاه القرى كلما بدت لك صورة التوحش أكثر وضوحاً، عكس بلداننا. خلع حذاءه وحمله بيده دون أن يتفوه بكلمة واحدة أو يحيي أحداً من المتجمعين حول التلفزيون ومضى الى حيث أشارت المرأة ذات الصوت المخنوق. كل يومه منذ أولى ساعات الصباح كان عدوانياً، المترجم والسائق وها هي مفراو سانتيفورت!

وقف أمام الغرفة المقصودة وطرق بابها فلم يسمع رداً، دفع الباب بهدوء فأحدث هذا صريراً مؤلماً وتسمر مالك أمام ما رأى. مسح فضاء الغرفة الضئيل الواجم بنظرة مندهشة ومحبطة في ذات الوقت فهذه لم تكن غرفة، بل ربما كانت نموذجاً مكبراً لعلبة كبريت مستطيلة ضيقة. لو أن بقرة وعِجْلتها من سكان نزل سد البقر، قبل أن يتحول لسكن للاجئين، أرادتا النوم في هذه الحظيرة لصرفتا ساعتين في تجريب سُبل الانبطاح والضوي قبل أن توفقا في إيجاد الوضعية الممكنة. كانت العلبة بطول مترين وعرض

متر ونصف، صُف على ارضها سريران لا تفصل بينهما أية مسافة فتلاصقا. لكي يفلح أحد النائمين فيترك السرير كان عليه الانتباه كي لا يتشقلب فينقلب على سطحه الرخو فيهوي على النائم الآخر. أما الفراش المحمّل برائحة الروث والذي عشعشت بأنسجته أبخرة أجيال من البقر المتثائب، فيغطي قاعدة سرير من مشبك القصدير تقّوس بفعل الإنهاك المستمر لأعوام، وكأن عشرات الثيران والأبقار قد تعاقبت في التزاوج عليه حتى كادت أطرافه أن تتقطع. والأكثر إثارة للاشمئزاز، غير رائحة الروث المعّتق التي تشربتها الأرض والسقف والجدران والعفن الأخضر الممتد في الزوايا على امتداد التقاء السقف بالجدران، كانت عفونة خاصة مجهولة الهوية تشبه رائحة بيوت فئران فاطسة تنبعث من مكان ما في الغرفة تعذر على مالك في ليلته الأولى تحديد منشأها.

لم يشاركه ليلته الأولى أحد، منحه فيليكس على ما يبدو حق تحمّل صدمة رؤية الغرفة منفرداً. في الليلة الثانية جاء شريكه الأفريقي، كان شاباً يافعاً تلقائياً يتكلم الإنكليزية بسلاسة. تعارفا بالاسم الأول لا غير. قبل النوم تمكن من رؤيته ينزل بحذر وهدوء من سريره كمن لا يريد لأحد أن يرى ما يفعل. رأى أصابعه تمسكان شيئاً وتحاولان رميه من الشباك الى الشرفة. عندما غادر فيلكس الغرفة صباحاً عاين مالك الشرفة فأكتشف زوجاً من الجوارب المتعفنة. كانت رائحتهما لا تطاق. رائحة خاصة خانقة لا مثيل لها الا الرائحة المنبعثة من فطيسة. عرف مالك أول أسرار المكان، أتى

بكيس من البلاستك ولف الجوارب المنتنة وحملها الى حاوية القمامة الكبيرة خارج المبنى. لم يتمكن من نوم الليلة الأولى فنهض مبكراً دون أن يعرف ما الذي سيفعله. سيُجبر على النزول لتسول فطوره من سانتيفورت ثم يفعل ذات الشيء عند الغداء وثالثة عند العشاء. أما النوم فقد تحول في نزل سد البقر وبرفقة فيليكس الى تدريب ليلي على مهارتين أولاهما محاولة الإبقاء على العمود الفقري مستقيماً فوق سرير مثل أرجوحة القماش الأفريقية، وثانيتهما التوقف عن التنفس لأطول فترة ممكنة. راح يفكر بطريقة للتعايش مع قواعد الحياة في هذا السجن الذي قد تطول إقامته به شهوراً، وقبل كل شيء بإيجاد طريقة لتجنب الاصطدام بصاحبة النزل التي برهنت البارحة على تمتعها بخصال طبقة الملاكين الصغار التي تحدث عنها كتّاب بداية القرن الماضي. هذه الصفاقة والجلافة، ونزعة السيطرة، والميل للتحكم بمن يقع في قبضتهم، وثم البخل. غرف نوم سد البقر غير الصالحة الا للبقر.

داخل فضاء الغرفة الضيق المختنق مثل صدر يشكو الربو، أقام فيلكس مهرجاناً أبدياً للديموقراطية عبر أغنية أفريقية صاخبة تتغنى بها:

آبيا ديمو كراسيا.. آبيا ديمو كراسيا آبيا.. ديمو كراسيا.. آبيا.. ديمو كراسيا آبيا ديمو كراسيا..

تنتهي فترة دوران القرص، الا أن فيلكس لم ينته من أغنيته. بقي المغني المتحمس يجول بفضاء الغرفة بإيقاعه الصاخب آبيا.. ديمو كراسيا.. أخيراً كان لابد من الاعتراض على طريقة فرض الديموقراطية فقال مالك بلطف:

– فيليكس عزيزي أيمكن أن تخفض إيقاع الديمو كراسيا قليلاً؟

دهش فيليكس من شخص لا يريد الاستماع لأبيا ديمو كراسيا، فرد:

– هل لديكم ديموقراطية في بلادكم؟

– نعم، ديموقراطية تجنن!

– لماذا إذن لا تود سماع آبيا ديمو كراسيا؟

– ليس لدي اعتراض أبداً لكن الصوت مزق رأسي. أنا إنسان هادئ الطبع، حتى لو كانت الديمقراطية هي الجنة التي وعد الله بها المؤمنين، لا يمكن أن يتغنى بها المرء لعشرين ساعة باليوم بهذا الإيقاع الذي يخترق الرأس!

خفض الفتى الافريقي من صوت الموسيقى واتجه بوجهه صوب مالك وسأله على غير توقع:

– أنت من القى بالجوارب للمزبلة!

رد بشيء من الخجل والحرج:

– نعم سأشتري لك جديدة غيرها. هي قديمة..

– لا، لم تكن قديمة، اشتريتها قبل قدومك بيومين، أنا أعتذر، السبب ليس في الجوارب، بل بي، قلت لمفراو سانتيفورت ذلك من البداية انني أريد مكاناً خاصاً، حتى لو كان مترين المهم ألا أسبب إزعاجاً لغيري!

أقدامه مريضة إذن!

– فيليكس أنت إنسان مدهش، أنا أحترمك ولن أغادر هذه الغرفة، حتى لو عوضوني عنها بقصر!

تهلل وجه فيليكس الأسمر وتساقطت دموعه بغزارة على صفحة خده اللامعة فعانقه مالك بود. كان الفتى الأفريقي وباول عازف الغيتار البوليفي الهارب من حكم بالإعدام لاشتراكه بالثورة مع المجموعات الجيفارية، من أكثر سكان سد البقر قرباً منه. في الأول تتجسد بساطة أفريقيا وعذاباتها وفي الثاني ثورة أميركا اللاتينية وديناميكيتها. أما الباقون فحرص على ترك مسافة تفصله عنهم، هم ومفراو سانتيفورت التي لم يتحدث معها كلمة واحدة طيلة ستة أشهر. كان يتحاشاها كما يتحاشى مريضاً بالسل، وهي بدورها خمنت أن صمته أول ليلة كان رأفة بها بعد أن عرفت من الآخرين أنه يتكلم الإنكليزية بطلاقة و"على صلة بالصحافة". يبدو أن تلك الأخيرة أخافتها فتخيلته يكتب ريبورتاجاً عن سد البقر سيسد باب الرزق بوجهها.

حاولت أن تتملقه مرتين، الأولى عندما وصلته رسالة من صديقه الأثيوبي سيناي فنادت متعمدة بصوت عال:

– رسالة الى السيد الصحفي مالك!

في نمط لم تتعود عليه شفتاها اللتان تنزان عادة سموماً واستخفافاً، وفي المرة الثانية حاولت أن توصل له بنفسها رسالة من المحامي لكنه تمكن من مشاهدتها وهي تتجه باتجاه غرفته فسارع لدخول الحمام دون أن تنتبه له. بعد هاتين الواقعتين عرفت بحدسها التجاري أن باب التعامل مع هذا الرجل الصامت مغلق. وكلما لاح في الأفق غبار صوت سانتيفورت المنذر بمعارك تمتد على امتداد النهار، كان يتجه عكس اتجاهه. كانت حروب مفراو سانتيفورت حروب مخانيث، تذكره بسلوكية الكلاب الجبانة التي تستأسد قرب بيوت أصحابها فقط. حروب المقتدرين ضد الضعفاء، تبدأ عادة قبل موعد الغداء، ربما أملاً في تسميم الجو فيترك البعض المبنى هارباً الى السوق ويقل بذلك عدد الوجبات المقدمة. أما منطلق المعارك فكان خلافاً لكل الحروب وبالضد من عنصر السرية، ثابتاً يبدأ من يسار التلفزيون عندما تقف وتصيح بعد أن تغلق التلفزيون:

– كم مرة نبهتكم الى ضرورة الاقتصاد بورق التواليت؟ كأنما يوجد بينكم من يقتات عليه، الأسبوع الماضي فتحت كيساً وها هو قد نفد، بقيت لفتان دبروا أموركم بها الى نهاية الأسبوع!

ورغم أنه أدرك بوقت مبكر المحتوى الاقتصادي لحروب سانتيفورت وقرر قتل طموحاتها الرامية الى تقليل كلفة الإقامة والمتوارثة من عصر تربية البقر في الزريبة، الا أنه لم يفلح دائماً في التحكم بفورات غضبه. غالباً ما كان ينهي الغداء بسرعة ويخرج لاجئاً للطبيعة يلوذ بصمت البقر ونقيق الضفادع، مهربه المعتاد مادامت السماء لم تحزن بعد فتتحول الى اللون الرمادي الداكن. أما إذا صبت سماء القرية الحزينة دموعها على حقول البقر السارح المحيطة بسد البقر وتغلغل البلل في مسامات الأرض واغتسلت رؤوس الأشجار العالية المتمايلة، فلا مهرب سوى الانزواء في زاوية القاعة الواسعة ومحاولة الانشغال بنقاش فكرة معقده مع نفسه. ورغم تجنبه الاختلاط، فأفاد من سمعته ككاتب لا يختلط بأحد وهي صفة تثير لدى الشرقيين عادة إحساساً بضرورة الاحتراس في التعامل مع حاملها، لكنه لم يشأ منع نفسه من متابعة أحاديث المتجمعين على موائد الغداء، خاصة عندما تتعرض قناعاته لمحاولات هز من الخارج فيشعر عندها باختلال توازنه القلق. مثل هذه المناسبات لم تكن نادرة في مكان منعزل مثل سد البقر يجتمع تحت سقفه لاجئون من بلدان مختلفة، أناس متباينو الأعمار، والخلفيات، والتجارب لا يجدون تسلية سوى التلفزيون ولعبتين للصور غير المكتملة حفظها الجميع لفرط تكرار لعبها. كانت هذه الجلسات مثل مختبرات تختلط في دوارقها الآراء والأحكام القطعية غالباً والاستنتاجات الساذجة في معظم الأحيان والغريبة في أحيان أخرى، والتي تكشف مدى عمق بحر الأوهام الذي تسبح به جموع القادمين لبلاد اللجوء:

– يا جماعة تعرفون، عن كل لاجئ يستلمون من الامم المتحدة في الشهر مبلغاً أكثر من راتبه بضعف!

– يعني فيفتي فيفتي، لك نصف وللبلد نصف.

– هذا يعني أنهم سيكونون أغنياء بنا!

– لا ليست الامم المتحدة لكن هم يستلمون من بلداننا.

– أنا سمعت العكس، أن بلداننا تستلم رواتب من دول اللجوء مقابل لجوئنا اليها.

كان مالك مجبراً على التدخل لتبديد هذه الأوهام:

– هراء، كله هراء، وهل الأمم المتحدة بنك؟ هي نفسها بحاجة الى أوربا، أما كون بلداننا من تمنح فهذا أكثر مدعاة للضحك، بلداننا لا تأخذ ولا تعطي، تطرد فقط!

مرة، أثناء فترة العشاء سمع باول يتحدث بقنوط:

– وحتى إن حصلت على الإقامة، هذه بداية المتاعب ليس الا، البشر يختلف عن البقر، لا يكتفي بالعلف والاجترار والنوم بكسل تحت شمس دافئة، وفرص العمل في هذه البلاد معدومة لمن هو مثلنا.

فرد صلاح:

– أنا يكفيني الأكل والنوم بكسل تحت شمس دافئة! فما الذي كنت أهدف اليه غير هذا؟ ذات الشيء مع فرق كبير، أن الأكل هناك في مصر يتطلب مني معركة شهر كامل، ونومي يسرقه مني البعوض من المساء حتى الفجر فلا أراه، بينما الأكل والنوم هنا مجانيان.. أحلى حياة!

صاح فيليكس المهووس بالديمو كراسيا:

– كيف؟ اليس لديك طموح؟ إقامة الديمو كراسيا مثلاً؟

– ديموكراسيا ايه؟ وحاكسب منها إيه ياعم؟ هو هذا طموحي، اللي حكيت!

– يعني أنت هربت من شمال أفريقيا الى أوربا فقط لكي تأكل وتنام؟

لا أحد يعرف أن صلاح لم يأت من مصر، بل من بريطانيا التي كان يمارس في إحدى مدنها عملاً غير شرعي، وأنه طرد منها فهرب بقارب الى هولندا. مالك وحده عرف الكثير وبالصدفة عن هذا الخراب المسمى بالخطأ صلاحاً، فهو طُرد بعد أن أبلغ شركة التأمين في مانشستر بسرقة سيارته. في تلك الحادثة فاجأه موظف التأمين بسؤال:

– عندما سُرقت منك السيارة كان الوقت متأخراً كيف عدت للبيت؟

أجاب فوراً وبثقة عالية:

– أخذت سيارة أجرة.

فعاد الموظف سائلاً:

– هذه منطقة نائية لا تمر بها سيارات أجرة.

فرد:

– نعم، صحيح لذلك طلبت سيارة أجرة بالتليفون.

فشغل الموظف نفسه بالكتابة موحياً لصلاح أنه يوجه له أسئلة روتينية ثم قال بصوت خافت:

– نعم فهمت اتصلت من هاتفك النقال.

فرد صلاح بلا مبالاة:

– نعم من هاتفي هذا.

ولوح بالهاتف وهنا فاجأ الموظف صلاح ماداً يده الى الهاتف وبدء تفتيش المكالمات في تلك الساعة من تلك الليلة. لم يجد اتصالا مع سيارة أجرة فلطمه بجملة:

– مستر صلاح نحن نعرف القضية كلها، بالتفاصيل ومنذ البداية، لا تضيع وقتك ووقتنا بالإنكار!

وكانت تلك بداية انهياره فكشف بعد التحقيق أنه خبير بتلفيق قصص سرقات لسيارات غالية لم تسرق لكن العصابة تبيع محركاتها ومفككاتها الإلكترونية الى شركات مختصة. لم يعرف أحد بأية وسيلة ولا وفقاً لأي اعتبار قانوني حصل صلاح على الإقامة بعد أسبوعين من وصوله! وقررت الإدارة أن يقيم شهرين في "سد البقر" بانتظار وصول عائلته الكبيرة من البلد الأم!

استأنف صلاح بثقة تامة وبإنكليزية مفهومة:

– وحياتكم نعم! هربت من شمال أفريقيا الى أوربا فقط من أجل الأكل والنوم بلا تعب! وهو سبب وجيه كما ترون فالمحقق منحني اللجوء مباشرة بينما..

قاطعه باول بصوت يقترب من الصراخ:

– لكنك بعد ذلك ستمل من الأكل والنوم وتأكلك العزلة، شخص مثلك لا يمكن أن يندمج مع هذا المجتمع، كيف ستقضي بقية عمرك؟

– أنا أندمج؟ لا أريد الاندماج، لهم دينهم ولي ديني!

أجابه باول مستهزئا:

– اسمح لي القول إن هذا الرأي غير واقعي، مع من سيتزوج أولادك؟ أنت ستكون جزءً من هذا المجتمع شئت أم رفضت!

– أنا أزوج أولادي من أوربيين؟ محال..

– أنت لا تزوج أولادك، هم سيتزوجون بدون استشارتك، أم تظن أنك تسيطر عليهم مثلما كنتَ هناك في مصر؟ سيتزوجون ثم لا يبق أثر من عائلتك بعد جيلين. ليس هذا فقط، بل وستطلقك زوجتك خلال يومين إذا لم تعجبها! يعني إذا كانت قد تحملتْك هناك لأنك رب العائلة ومصدر رزقها وعمود البيت كما يقال فهنا هي مثلك، لك نصف المساعدة ولها النصف الآخر، أنت لا تستطيع التحكم بمصيرها ومصير أولادك، هذه أوربا!

ضحك الجميع ولم يكن صلاح مستعداً لرؤية هول هذه اللوحة التراجيدية، رفع رأسه برهة مثل من تفاجأ وقد اكتسى وجهه بطبقة خفيفة من سواد ثم عاد لمواصلة الأكل صامتاً فيما عاد فيليكس للموضوع وفمه ملئ بالطعام:

– أنا همي أن يتغير النظام وتتحقق الديمو كراسيا هناك فأعود.

رد باول بلهجة واعظة:

– سوف لن تعود، الذين قبلك لم يعد منهم أحد. سياسة اللجوء مخدّر قاتل لكنه يقتل ببطء، ولكن فيليكس، قبل الديمو كراسيا تعلّم ألا تتكلم أثناء الأكل سيضحكون منك هنا!

لم يرد فيليكس الحساس ويبدو أن تنبيه باول قد آذاه وأحس باول بذلك فعاد:

– فيلكس، كان يتوجب عليك أن تنبهني أن تحريك يدي أثناء الكلام أكثر خطراً من الكلام أثناء الأكل. هذا ما سيجعل الأوربيين يضعونني في خانة المجانين.

أنظم آخرون للنقاش:

– نعم هم قوم غريبو الأطوار هؤلاء الهولنديون، عاداتهم غريبة، جرب أن تسأل هولندي عن مقدار راتبه الشهري!

– أو أن تطرق باب بيته في السادسة مساء!

– سمعت أنك إذا دعوت أحدهم للعشاء فسيبيع بيته في اليوم التالي وينتقل.

– يبيع بيته؟ وما السبب؟

– من الخجل لأنه لا يستطيع رد الدعوة!

غرق الجميع بالضحك، ثم شارك شخص من بعيد:

– هذه كلها ليست ذات أهمية لكنهم يكرهوننا هؤلاء الهولنديون، السويديون لا يردون حتى سلامك، في الدانيمارك لا يجرؤ الغريب على الخروج بعد حلول الغروب وفي المانيا أحرقوا بيوت الأجانب. في بريطانيا يقولون لك

حتى بعد منحك الجنسية: انت حامل جنسية ولست انكليزياً! لو يتركوننا نعيش حياتنا!

رأى مالك أن المجموعة قد تمادت مطلقة أحكاماً بلا أدنى سند فقال جاداً، ولكن مبتسماً:

– نحن نتركهم يعيشون حياتهم أم هم يتركوننا نعيش حياتنا؟ من أرسل في طلبكم يا سادة؟ إذا لم تعجبكم عادات هذه البلاد عودوا من حيث أتيتم، لدينا مثل يقول "مستأجر ويدبك على السطح". كأنكم كنتم أباطرة في بلدانكم، أنا أرى كل هذا أفضل من حياتنا التمثيلية في بلداننا، نحن ندّعي الكرم والابتهاج باستقبال الضيف وبذات الوقت نرفع الدعاء لله سراً أن يغادر بأسرع وقت، ثم هل قال لكم أحد قبل مجيئكم "تعالوا للعمل هنا"؟ كلنا جئنا مطرودين من بلداننا مهما تعددت الأسباب.

عاد الإجماع للمجموعة معبراً عنه بهز الرؤوس موافقة الا باول الذي صرخ مقهقهاً:

– هذا الكاتب جادٌ طيلة اليوم لا يمزح ولا يتقبل المزاح!

أجاب صلاح:

– وماذا تتوقع من شخص ولد ونما وسط دخان المعارك؟ العراقيون صناديد منذ زمن الفتوحات.

عاد مالك لمواصلة كلامه:

– خطر جداً التمسك بمقولة أنهم يكرهوننا. حتى لو كنت متيقناً من ذلك عليك ألا تغرس هذه النبتة السامة في روحك! لأنك لو عشت في مناخ تحس بكراهيته لك، سترد عليه دون وعي بكراهية مماثلة. ربما كنت أنت مخطئاً بتقديرك الأولي. أنا لو تيقنت أن أهل هذه البلاد يكرهونني لألقيت بنفسي في البحر، إذ كيف سأعيش غريباً في بلاد تكرهني؟ الا تكفي الغربة وحدها؟

ثم أردف هامساً:

– لا تنسوا إننا لم نتعرف على المجتمع بعد الا بحدود مركز اللاجئين ومفراو سانتيفو! نحن لا نرى سوى مظاهر محددة لنوع واحد من البشر، هذا مجتمع معقد متعدد الطبقات والمستويات!

رد صلاح:

– ولكن الجميع يحس ذلك، أنهم لا يحبوننا!

– سيد صلاح ما الذي رأوه منا ليحبوننا؟ التوسيخ؟ التزوير؟ السرقة من السوبر ماركت؟ التحايل على القانون؟ أنت نفسك اعترفت قبل قليل أنك أتيت للنوم والأكل، هل تريدهم أن يحملونك على أكتافهم ويهتفون باسمك من أجل ذلك؟

رد فيلكس محتجاً:

– ولكن ليس الجميع يفعل ذلك، أعني بيننا من كافح من أجل الديمو كراسيا!

– وما أدراهم أن فيليكس كان مكافحاً في بلاده؟ هم يرون الأغلبية، وهي أغلبية مخجلة، أؤكد لكم!

عقّب باول ضاحكاً:

– لو كنت أنا وزير العدل لمنحتك الإقامة الآن فورا مالك. أين تجد هذه الدولة من يدافع عنها مثلك؟

أعقبه صلاح صائحاً:

– اتركونا من الهولنديين والسويديين وغيرهم، احك لنا قليلاً عن حروبكم يا مالك، العراقيون مقاتلون اشداء منذ زمان الفتوحات!

أطرق لحظة وعض على شفته السفلى ثم قال:

– أية حرب؟ الأولى؟ أم الثانية؟ أم الثالثة؟ أم الرابعة؟ حرب المدافع والطائرات؟ أم حرب الحصول على الخبز والشاي المخلوط بنشارة الخشب؟ حرب الجبال أم حرب الصحاري؟ حرب الدول أم حرب الطوائف؟

سأل فيلكس باندهاش:

– هل خضت كل هذه الحروب؟ اختر لنا واحدة تختلف عن حروب باول التقليدية فالجميع يعرف تشي جيفارا، وأمريكا اللاتينية هي تكرار له، ولكن كيف كانت حروبكم؟

– كل الحروب متشابهة، قتلى، ودخان، ورشاوى، بنايات مهدمة، وسواتر ترابية، وقمل، وجوع، وقذارة، وحرمان وخيانات، وانحراف، وكوابيس لكن، اسمعوا مع ذلك سأقص عليكم شيئاً لم تسمعوه ربما..

حكى مالك قصة عن الحصار:

– كانت هدية أمي لي في عيد ميلادي الذي صادف تفوقي في المدرسة زجاجة مهرّبة من عصير البرتقال المركز sunquick حصلت عليها بعد عملية تفاوض طويلة دامت ثلاثة شهور. في يوم ميلادي، سلمتها أمي لي أثناء حفل عائلي سري خشية أن ينتبه الجيران لنا فتحرج أمامهم. لو عرفوا سيتحتم عليها تقاسم الزجاجة معهم وسينتقل الخبر الى الآخرين. أمسكتُ الزجاجة ذات الملمس البارد وبقيت مع إخوتي نتغزل بها غير مصدقين، فجأة انزلقت من يدي على البلاط وأطلقتْ صوتاً مثل انفجار قنبلة، صحنا بصوت واحد: آآآخ. وبقيت مع أخوتي الثلاثة نتابع بأفواه مفتوحة السائل البرتقالي ذا الرائحة النفاذة يهرب سريعاً على البلاط الأملس كسجين أطلق سراحه بالخطأ. عندما رأى أخي الأصغر العصير يخفي

نفسه بين شظايا الزجاج، سارع وعيناه تمتلئان بالدموع الى إغلاق الشباك لكيلا يهرب ضوع البرتقال الى الفضاء.

ثم قصّ عليهم حكاية مرعبة:

– سأحكي لكم عن الرعب الذي عشناه عندما نصب الجيش على سطح دارنا قاعدة صواريخ وألزمنا بالتحرك في حوش الدار وعلى السطح طيلة النهار كي تعرف طائرات استطلاع الأعداء أن الصواريخ منصوبة على دار فيها مدنيون، وأطفال! صباح اليوم التالي قال أبي: إذا اتاك الموت فكن مستعداً، ولكن لا تسعى اليه بنفسك. جمع أثمن ما في البيت وهرب بنا الى أقصى الريف. بعد انتهاء الحرب عدنا فلم نتعرف الا على حقيبة أخي الجلدية نصف محترقة. قُصف البيت بعد يوم من هروبنا بقنبلة أحدثت حفرة واسعة عمقها ثلاثة أمتار تكوم داخلها ركام البيت المحترق.

ثم كانت الحكاية الثالثة:

– بعد عامين من انتهاء الحرب الثانية، الحرب التي مهدت لمحاصرتنا، صباح أحد الأيام أرسل مختار الحي في طلبنا كلنا للاجتماع في ساحة المدرسة. كانت الساحة فارغة الا من طاولة كبيرة تتوسطها. بعد دقائق من الانتظار شق الجمع المتجمهر مجموعة من أربعة مقنعين بملابس سود ثم لحقهم اثنان يجران امرأة مكبلة اليدين ومكممة الفم. طرحاها على

الطاولة وشارك ستَّتهم بتقييدها منفرجة الأطراف الى أركان الطاولة ثم صاح أطولهم:

– هذه عاهرة!

قدم الأول ورفع سيفاً..

همست أمي بأذني باكية:

– هل عرفت هذه المرأة؟ هي معلّمتك في الروضة..

بدون وعي صرختُ وركضتُ باتجاه الطاولة فلحقتني أمي مرعوبة ولم يعرف أبي ما يفعل فوجه لي صفعة كانت الأولى والأخيرة في حياتي..

بدا واضحاً من صمت المجموعة أن حروب مالك تختلف كلياً عن حروب الآخرين، سأل فيليكس:

– ولهذا هربتم الى هنا!

رد محتداً من وقع كلمة هربتم:

– لم يهرب منا أحد لا في الحرب الأولى ولا في الثانية، ولا في الثالثة حرب الخبز وتلاشي حلم زجاجة عصير البرتقال، ولا في الحرب الرابعة عندما كنت في سنة الدراسة الجامعية الأخيرة. حتى عندما طمرت قنبلةٌ بيتَنا في عمق الأرض، عدنا وبنيناه من جديد. لم يهرب من بيتنا أحد حتى

عندما كانت أمي تعاين قدر الطبخ الخالي فترى الحشرات سبقتها في البحث عن بقايا...

– وتقول عندكم الآن ديموكراسيا! فلماذا تركت بلادك إذن؟ لا أعرف!

كيف يمكنه اقناع هؤلاء بسبب وجوده في سد البقر؟ ابتسم وقال وهو يهم بالمغادرة:

– الا ترون أن المحقق نفسه لم يعرف سبباً لوجودي في هذه البلاد، لذلك رفضني؟

بعد مضي قرابة نصف العام على حياته في سد البقر مثل راهب صابر لا ينتظر من غير السماء مُعيناً، أتى الحل من حيث لم يتوقع.

حسب رواية الحاضرين، نشب عراك حاد أثناء غيابه بين باول ومفراو سانتيفورترت بعد أن نفثت قصة مسمومة كما وصفها باول مفادها:

أن الأمريكيين اللاتينيين كانوا وحوشاً كفرة وجاء الأوربيون من اسبانيا فمدّنوهم وأدخلوا المسيحية لهم وانتشلوهم من الغابات حيث كانوا ليسكنوهم في بيوت لم يكونوا يعرفون تشييدها.

عندها رد باول بغضب:

الامريكيون الأصليون بنوا قبل أكثر من ألف عام على ولادة المسيح مدينة الشمس عاصمة إمبراطورية الإنكا، وكانت مدينة عامرة بالمباني الشاهقة والقصور على ارتفاع يزيد على أحد عشر ألف قدم، أي على ارتفاع لا يمكن أن تتخيله جمجمتك الصفراء النائمة تحت مستوى سطح البحر يا سانتيفورت، وشواهد العمارة المذهلة على مرتفعات بيرو وبوليفيا والبرازيل مازالت الغازاً عصية على الحل تحيّر العلماء، وجاء الأوربيون أسلافك ولصّهم بيزارو فأبادوا السكان الأصليين وهشّموا حضارتهم.

وأن سانتيفورترت ردت مواصلة:

بل أن أوربا الغنية الحالية حتى الآن تساعد اللاجئين الفقراء من امريكا اللاتينية، الذين يفرون اليها ويعيشون على منح العاطلين..

فأجابها باول وهو يتقدم نحوها:

اخرسي يا بومة، أنت موجودة لأن اللاجئين يسكنون هنا، بدونهم سوف تموتين من الجوع ولن يسكن زريبتك النتنة هذه أحد.

كان ذلك ما سمعه مالك، لكنه عندما دخل الصالة كانت القصة على وشك الانتهاء بلمسة ثورية لاتينية عندما تجمّع سكان سد البقر وهم يحيطون باول الذي صاح:

– من يأتي معي؟ أنا سألتجئ للكنيسة وسأتصل بوزارة العدل لنقلنا الى مكان يليق بالبشر لا بالبقر!

فغرت مفراو سانتيفورترت فمها وكانت ترتجف انفعالاً غير مصدقة وصول الأمر الى هذا المستوى. مغادرة اللاجئين لنزلها سيعني الغاء اتفاقها مع الوزارة!

صاحت بصوت مخنوق:

– ماذا؟ من تتخيل نفسك؟ ستمسك الشرطة بكم وتطردكم خارج الحدود ايتها الكلاب السائبة، أنا مخولة بالاتصال في حالة أية مخالفة وأي تمرد، يأتون الى بلادنا الغنية ويشيخون علينا..

لكنها صمتت وبلعت المتبقي من كلماتها عندما رأت مالك داخل فضاء الصالة.

أثناء ذلك كان باول يشد رباط حذاءه ويكز على أسنانه قائلاً:

– سأجعلك تندمين على كل كلمة قذرة تفوهت بها.

لحظات شابها تردد قصير الأمد سببه تفكيره بالعواقب المحتملة، وأنظم مالك لباول ثم تتابع الآخرون فشعر بالانشراح لأن حالة العصيان شملت الكل. حزم الجميع حقائبهم خلال أقل من نصف ساعة وغادروا النزل

باتجاه الكنيسة القريبة بعد أن عينت المجموعة باول ومالك متحدثين للتفاوض باسمها مع حارس الكنيسة.

في الطريق حاول أن يبرّد من فوران باول:

– خطيئة إن اختصرت هذا الشعب الودود بهذه السانتيفورت!

– وهل رأيت أنا لحد الآن من هذا الشعب نسخة غيرها؟

– مع ذلك، وربما بسبب ذلك، لا يحق لنا أن نختصر الشعب بها.

وفي محاولة لاستعراض صبره الشخصي وتحمّله، حكى لباول قصته مع سائق الحافلة، الذي لم يفهم سبب غضبه منه للآن فرد باول:

– كيف لم تفهم سبب غضبه؟ لقد رأى الورقة التي تدل على كونك لاجئاً! لقد رآك تأكل على مائدته، شعب بخيل، "بعدما تشيخ الرذائل يبقى البخل شاباً" كما يقولون عندنا.

– عزيزي باول أنت إنسان مكافح ولك الحق في الثأر لكرامتك، ولكن غيرك شوّه سمعتنا قبل أن نقدم لهذه البلاد. صدّقني ليس كل من وصل الى هنا يستحق الاحترام.

حكى لباول قصة شواء بط البحيرة المحمية من قبل اللاجئين لكي يبقي على ضميره في حالة التوازن فرد باول:

– أتعرف ماهي مشكلة الناس هنا؟ الفضيحة لديهم تنتشر أسرع من انتشار الضوء والفضيلة تحتاج محام لكي يسمع بها الناس!

– نحن من طرق بابهم وعلينا القبول بما يُقدّم لنا، أعترف لك أن في الأمر بعض المذلّة لكنها مرحلة ستمر!

كان حارس الكنيسة ينظر من شباك غرفته وقد فوجئ بفصيل من القوم الملوّنين يتجمع أمام باب كنيسته. طرق باول الباب ففتحه الحارس بحذر. كان بديناً يتنفس بصعوبة تجعل كرشه يصعد ويهبط مطلقاً صوتاً مثل حنفية ماء ناضحة. لعله شعر بالخوف قبل أن ينبري باول ومالك ليشرحا الأمر. رحّب الحارسُ باللاجئين لكنيسته فهذا حدث لم يمر عليها ربما منذ صعود روح المسيح الى السماء، وأتى بدفتر طالباً تسجيل أسماء المجموعة لدواع رسمية كما وضّح، ثم أخرج من جيبه رزمة أوراق نقدية وبدأ بتوزيعها على اللاجئين فأخذ بعضهم لكن باول نهرهم بقوة وأعاد النقود للحارس شاكراً:

– ما نحتاجه فقط النوم حتى الصباح، حتى الآن لم نصل مرحلة التسول!

هذه هي المرة الثانية التي يرى فيها مالك نفسه بدور الشحاذ. أول مرة كانت عندما تقدم من مركز الشرطة وقدم نفسه للشرطية البدينة قائلاً بانسحاق ورأسه يكاد يلتصق بصدره: Refuge . الآن يتوجب عليه أن

يقدم نفسه لراعي الكنيسة لاجئاً من سد البقر الى الكنيسة! هل يعقل هذا؟ لاجئ مزدوج!

لم تتمدد القصة كما توقع؛ ففي صباح اليوم التالي طلب موظف الوزارة أن يعين كل شخص المكان الذي يريد وعاد هو الى مكانه الذي غادره قبل نصف عام.

# 3

بعد وصوله مركز اللاجئين عائداً من سد البقر، طُلب لمقابلة في مركز المساعدة القانونية وهو اسم كبير لغرفة ملفقة مقتطعة من عربة قطار مستهلك، تتوسطها طاولة يجلس خلفها رجل مرتعش الأصابع يثقل أذنه اليمنى قرطان معدنيان، وعلى يمينها طاولة أصغر تقف ورائها امرأة صدرها نصف عار، وُشم على ذراعيها بدقة صليب تلتف عليه ثعابين برؤوس متجاورة. أما ثالث سكان الغرفة فهو مترجم بشوارب كثة وشعر مجعد لامع يبدو من بعيد، من خلال النافذة، مثل ثلاثة كيلوات من العنب الأسود موضوعة في إناء على عتبة نافذة. كان الثلاثة ينتظرون شرطياً تأخر لنصف ساعة فانشغل مالك معهم بحديث متشعب عن الفرق بين مدارس الشرق والغرب ودور المعلم فيهما فصاح ذو الأقراط بتعجب وعيناه ترسلان رسالة برقية الى زميله:

– أنت تلعب بلغتنا بمهارة لا توصف مالك كأنك عشت هنا سنيناً طوال من قبل!

شحنة شك كثيفة حملّها ذو الأقراط جملته التي بدت كمقدمة لجلسة تحقيق، فهو يلمّح لاحتمال أن يكون مالك قد أقام في البلاد سنيناً خلاف القانون.

– جميل أن قانونكم لا يمنع اللعب باللغة لمن رُفض طلبه! أنا درست اللغة بجهد ذاتي، ثم انني لم أجئ البارحة من مضارب بدو الربع الخالي او مجاهل التبت.. لقد مضت على قدومي أيام طوال. وجئتكم من كلية الفلسفة.

كان قد تعلم اللغة بسرعة أدهشت الجميع، تعلمها قتلاً للضجر فهو لم يكن واثقاً من حسم بقاءه في البلاد. حضر الشرطي واتخذ له مقعداً بين ذي الأقراط ومالك، فتح حقيبته وأخرج منها ملفاً ثم قال:

– الوزارة رفضت الطلب ثانية لأنها تريد إثباتات مادية عملية تبرهن على أن حياتك هناك كانت بخطر، لا تكفي الادعاءات.

– تريدون أدلة مادية عملية، كيف أثبت لكم ذلك؟

– ورقة محاكم، رسالة تهديد، شهادة وفاة قتيل، فيلم فيديو، أو تقرير رسمي يرد به اسمك..

– ليس لدي شئ من هذا. هل ينذرني من يريد قتلي؟ تريدون أدلة بالفيديو! هذه معارك طوائف وعشائر وليست رحلة استجمام في جزيرة سردينيا لكي أسجلها بفيلم تذكاري، ثم عن أية شهادة وفاة وأية محكمة تتحدثون؟ بإمكان أي مدع ومحتال أن يزوّر شهادة صادرة من أشهر طبيب تفيد أنه مات قبل سنة ويأتيكم بها، أو أن لديه ماجستير بالطب وأخرى بهندسة الفضاء

وثالثة بمرض الفصام عند البعوض، ذلك سهل للغاية لمن يريد الكذب ومستحيل على من لا يريد الكذب.

انتحى به ذو الأقراط ونصحه بتغيير الإفادة:

– قل إنك سياسي معارض ومضطهد، لكنك خفت في التحقيق الأول أن تصرّح بذلك!

– ولكن لا علاقة لي بالسياسة، أنا لا أطيقها ولا أعاشر ممارسيها ولا أفهم منها شيئاً.

– كما ترى، لكن السياسة هي أسهل الحلول، سوقُها رائج دائماً في مثل هذه الحالات.

منذ البداية لم يكن مستعداً للكذب فأعاد في المرة الثانية بعد أن رفض طلبه الأول ذات الافادة أمام المحامي مستأنفاً، وبقي كمن ينتظر ألا يأتي الليل بعد انقضاء النهار.

الآن أدرك أن إصرار الوزارة المضحك على رؤية فيلم يصور كيف ركضت الطوائف خلفهما، واقتناع مركز المساعدة القانونية بمنطقية الطلب، قد يعنيان أنه سيكون أرنب التجربة. الأرنب سيئ الحظ الذي اختير بصدفة عمياء لكي يبرهن الفيسيولوجيون من خلال جسده وروحه على صحة نظرياتهم. رأت الوزارة في قصته موضوعاً للمحاججة: سنجرب إن كان

سيزودنا بالبراهين فحالته نادرة! ولكن المرفوض مرتين لن يحق له البقاء في البلاد وعليه متابعة قضيته من خارجها! يا للعبقرية، هارب من الموت يتوجب عليه العودة لبلاد الموت كي يتابع من تحت تراب القبر اجراءات قبوله في بلاد الحياة!

لم يفاجئه قرار الوزارة، لكنه شعر فجأة بقلة استعداده له. في تلك اللحظة كان أمله يتجه صوب حل خيالي: أن يدخل المستشفى بسبب مرض ليس بالخطر، ولكنه طويل العلاج ويبقى هناك لأمد طويل. سأل الشرطيَّ ببرود رغم معرفته الجواب:

– وإذا لم أغادر وبقيت هنا؟

– من ناحية قانونية وبقدر ما تتيح لي معلوماتي الحديث، أعتقد أنك ستعتقل وتسفّر. هذا ليس مكانك بعد الآن. أنت تصادر حق شخص آخر يستحق البقاء هنا.

بقي محتفظاً بهدوئه رغم العواصف التي اكتسحت أعماقه، مردداً مع نفسه الحكمة التي تعلمها منذ أيامه الأولى في هذه البلاد: "الغضب هنا يساوي الجنون هناك. لا تحرك يدك حين تتكلم ولا ترفع صوتك سيظنونك مجنوناً"

خرج من غرفة المساعدة القانونية مبلّد الحواس، لقد أغلق للتو آخر الأبواب التي كان يأمل المرور من خلالها الى عالم الاستقرار والهدوء. مر على

غرفة سيناي الذي كان منشغلاً بترجمة أوراق لعائلة أفريقية فرآه من خلال الشباك الواطئ يقترب من غرفته فصاح ضاحكاً:

– آه، أتى صاحبي، بشّرني هل أطلقوك في هذه البلاد؟

رد مالك فوراً:

– لا يا سيناي، لقد رفعوا البطاقة الحمراء بوجهي!

– ماذا تقصد؟

سأل سيناي بقلق وتوجه للمرأة ذات الشعر الأفريقي المجدول بمهارة وصبر فائقين طالباً منها بلطف ترك الأوراق لديه، وقاده من يده الى الحديقة ليسمع منه قصة التحقيق الثاني ونتيجة الاستئناف..

أطرق سيناي قليلاً ثم قال:

– اسمع، أنت تقول لا مجال أبداً لعودتك الى بلادك. الوزارة ترى غير ذلك وسوف لن تتأثر بأي ظرف خارج هذه الرؤية. لا تنتظر لأن ذلك يعني انتظار الشرطة، ولا تجرب العناد أيضاً، ولا تصدق الحكايات عن المعتقلات الأوربية التي تشبه فنادق الخمس نجوم، أو ادعاءات حقوق الإنسان. هناك في تلك المعتقلات قد يضيع الإنسان بدون حقوق، وقد يُسلّم الهندي الى ناميبيا والكولومبي الى ماليزيا بسبب خطأ إداري مادام ليس لديه من يدافع عنه. قد تنسلخ خمس سنوات من عمرك في معتقل

بلاد غريبة ويشغلونك بأشغال شاقة قبل أن يعثر عليك أحد، أو قبل أن ينتبه أحد الى أنك جئت عن طريق الخطأ، أما حقوق الإنسان فهي تخص انسانهم وليس إنساننا..

– كيف؟ أصل معاهدة جنيف ألا يُفرق بين إنسان وإنسان!

– إذا أردت أن تصدق الإعلام فصدق أن لا فرق بين إنسان وآخر، لكن إن أردت الحقيقة نحن نأتي بالمرتبة الثانية أو الثالثة أو الرابعة..

– وما الذي يتوجب عليّ فعله إذن بالضبط؟ إعادتي الى هناك ستعني نهايتي وربما أكثر من ذلك!

تلفت سيناي حوله وقال بصوت أشبه بالهمس:

– اسمع، نصيحتي لك، إذا كان لديك ما تعيش به لفترة محددة، أن تحاول الاختفاء أو العمل بالأسود الى أن تجمع ما يكفي لشراء جواز مزور فإنكليزيتك لا تثير الشك ومرورك سيكون سهلاً. تستطيع النوم في أماكن مخصصة لفاقدي السكن، دس نفسك معهم لتمضية الليل فالنهار لن يكون مشكلة. هم يتجمعون بعد منتصف الليل في المحطة الرئيسية في المحافظة الى جانب السلّم الرئيس تحت علامة DL أي فاقدو السكن.

– وبعدها الى أين سأذهب؟ أمريكا؟ كندا؟ أو استراليا؟ وهل سيختلف الوضع هناك، أصلهم كلهم من عجينة واحدة كما تعرف.

– نعم، ولكن هذه بلاد ضيّقة، كل شئ فيها ضيّق، أرضها وعيون أهلها، حتى الشيطان لا يعرف لماذا يستقبلون أمثالنا بالابتسامة وما أن تدير وجهك حتى يهزأون منك. هنا، حتى لو كنت عبقرياً مثل آينشتاين سيشار لك: هذا الأجنبي العبقري الأحمق ذو الشعر الأسود! هم لا يثقون بنا مهما مضت علينا من سنين هنا. جرب أن تجلس بين إثنين منهم، ما أن تنطق حتى يتبادلوا النظرات بينهم مثل البرقيات وكأن أحدهم يقول للآخر: اسمع ما يقول هذا المعتوه!

تصور أحداً ما يسألني:

كيف هي الاوضاع في أثيوبيا؟

فأجيب:

سيئة..

سيرد عليّ متباهياً وكأنه يريدني الركوع شكراً وحمداً:

انت سعيد اذن بوجودك في بلادنا. ها؟

ولو أنني أجبت:

جيدة. الوضع يتحسن..

سيحملق بوجهي مثل بقرة حمقاء ويسأل:

لماذا لا تعود اذن إن كانت جيدة؟

نحن نتصور مخطئين أن الوقت والانتظار سيجعلنا مواطنين متساوي الحقوق. المواطنة هي الأخرى كذبة كبرى، هي مواطنة مشروطة. مواطنة خاصة تُمنح لمن لا وطن له كي لا يبقى في حلّ من القوانين التي يجب أن تُطاع. يمنحوه صفة "مواطن" كي يتسنى لهم ضبطه. أنت كمواطن يجب أن تتقبل الأمر كما يراد منك أن تتقبله.

ضحك مالك بمرارة لأنه لا يريد تصديق كلام سيناي المتعارض مع فكرته الأولية عن هذه البلاد:

– أنت فائق الحساسية سيناي، أقدر ذلك فأنت تعاني منذ سنين.

– كلا، لم أبالغ ولا أستغرب اندهاشك مما سمعت. أنا نفسي لم أكن أعرف ما عرفت. تعلم أنني اشتغلت معهم كطبيب متطوع لكني أصبت بداء اسمه القرف، القرف من نفسي ومن هذا المجتمع ومن العالم كله. قبل شهرين أخذوني للمساعدة في تلقيح تلامذة مدرسة كلهم تقريباً من أبناء المهاجرين. استغربت وسألت كيف تجمّع كل هؤلاء في مدرسة واحدة؟ قالوا لي:

– هذه ليست سياسة الدولة لكن السكان البيض (قالوها حرفياً) هربوا تدريجياً من الحي لتبقى هنا الأكثرية من غير البيض (أيضاً قالوها حرفياً)!

سألتهم:

– لماذا هرب بيضكم؟

قالوا:

– لأن سمعة المهاجر واللاجئ ارتبطت بالمشاكل والفوضى والتوسيخ!

هل سمعت هذا الهراء؟ لماذا إذن قبلتموهم في بلادكم؟ أنتم لا تعوزكم الفطنة لكي تعرفوا أن هؤلاء قدموا من بيئات متخلفة يسودها الحرمان؛ فأما أن يأتوا فيجدوا من يأخذ بيدهم أو أن يمنعوا من الدخول..

كاد مالك أن يقول:

– وهل أريناهم نحن يا سيناي سوى وجهنا القبيح؟ هل جربنا الرد بأخلاق عالية على استضافتهم لنا حتى يأخذوا بأيدينا؟

وتراجع بسرعة خائفاً من أن يجره الحديث الى ذكر واقعة البحيرة المخزية ثانية فحاول تخفيف أثر كلام سيناي:

– هذه مشكلة سياسية، على ما يبدو لي، لا تدل على أن المجتمع عنصري، فالأحزاب هي التي اتخذت قرارات السماح بالهجرة واللجوء في ظروف خاصة، بكلمة موجزة قد تكون بعض الأحزاب ذات توجهات عنصرية وليس المجتمع.

أخرج سيناي سيجارة من علبة المارلبورو وأشعلها قبل أن يقول:

– اسمع، كنت مرة منهمكاً بتلقيح التلاميذ في (مدرسة بيضاء)، وقف المدير الى جانبي يحل نزاعاً بين تلميذين صغيرين حول قطعة بسكويت، أتدري ما الذي قاله لهما: لا تتعاركا على البسكويت مثلما يتعارك الأوباش على الخبز في أثيوبيا والصومال! هل نحن بمجاعة؟

– يا للقباحة! هل كان يعرف أنك أثيوبي؟

– نعم، قدموني له كطبيب أثيوبي متطوع "لاجئ".

– لا أظنك سيطرت على أعصابك؟

توهجت سيجارة سيناي بعد أن سحب نفساً عميقاً منها:

– كلا، توقفت عن العمل ورمقته بنظرة لا أعرف كيفية وصفها فأنا كنت بين البكاء الماً والانفجار من الغضب. المعلمون كلهم انتبهوا لكنه نظر لي ببلاهة مثلما تنظر بقرة لمار بقربها. لم أحك معه لأنني أعرف أنه سيدّعي أنه لم يقصد من جملته شيئاً وأننا كلنا بشر والكثير من المجاملات الفارغة، لكني حين غادرتُ لم أودعه بكلمة وتركت يده التي مدها مصافحاً تسقط الى جانبه!

– مد يده مصافحاً؟ معنى هذا أنه لم يقصدك بكلماته!

رد سيناي متهكماً:

– لا يا صديقي، قصَدَها ومدَّ يده امعاناً بالإهانة، هم يعرفون حدود القانون ويتصرفون ضمنها والقانون لا يلتفت بالطبع لكلمات غير مباشرة يقولها شخص لآخر قد تُمزق قلب شخص ثالث!

– لكن من المؤكد أن باقي المعلمين سيوبخونه على ما فعل، الغالبية هنا متسامحة.

رمى سيناي عقب السيجارة وقال مستثاراً:

– متسامحة؟ هذه خطيئة أخرى، المسامحة كلمة تُغتصَب هنا. ما الذي فعلت أنا ضد تلك الأغلبية حتى تسامحني؟ أنا القّح الأطفال مجاناً، أنا لست مجرماً لكي تتسامح الأغلبية مع جرائمي! اسمع مني، أنت لا زلت حديث العهد هنا، للوهلة الأولى سيفاجأ القادم الجديد بتعامل الناس هنا معه، فيض من الابتسامات والتعاطف "الإنساني" والمجاملة المقرونة بالتأكيد على كوننا جميعا بشراً من آدم وحواء، لكنه في وقت ما سيكتشف أن هذا التعاطف هو نوع خاص من مشاعر التعاطف مع الضعيف لتنبيهه الى أنه ضعيف. هذا التعاطف سيدوم مادام الضعيف ضعيفاً، أما إذا تجرأ وكف عن أن يتثاءب وأراد أن يمشي الى جانب أحدهم بطول قامته، فسيُطرد من الحظيرة ويستحيل التعاطف الى حسد ونميمة وسرعان ما يجد صاحبنا نفسه معزولاً. أعماقهم لا تريد أن ترى أحدنا الذي كان ضعيفاً

فيما مضى من زمان وقد أصبح الآن قوياً. كلهم هكذا. شعوب كاملة من المتعلمين غادرت بلدانها لتشتغل هنا في التنظيف والطبخ والتحميل..

رد مالك بقنوط:

– نحن جنينا على أنفسنا كما أظن، أنت متشائم أكثر مني، ما الذي أتى بك إذن الى هذه البلاد سيناي؟

–حظي البائس، وهل كان لدي اختيار آخر؟ لم أكن أعرف ما عرفته الآن!

– ما الذي تنتظر؟

– أنتظر جوازاً وتأشيرة الى كندا سأدفع من أجلها الفي أيرو.. سأهرب من البحر وبطريقة متعبة مهلكة لكنها مضمونة مئة بالمئة. سأمثل دور الميت!

– كيف.. أعني. هل لديك معرفة بمن يرشد الى ذلك؟

صمت سيناي برهة ثم قال:

– لولا ثقتي بك لما كلمتك بهذا الموضوع لكني أشعر بأنك مختلف عن الآخرين، لكن هل أنت جاد؟ يجب أن تكون جاداً، أعطني رقم هاتفك وسيتصل شخص بك، وفي كل الأحوال لا تعط اسمي لأحد. من ناحيتي سأزكيك أمامه.

لم يكن غريباً أن يتكلم الطبيب الأثيوبي سيناي بمرارة وربما بغير حق عن أهل هذه البلاد فهو يقضي عامه الخامس بلا أمل بحل نهائي. لكن نصيحته بالاختفاء ثم محاولة الهروب ثانية الى خارج أوربا مثلت أمام مالك كحل وحيد. الفا إيرو! لو بقي يكتب المقالات ويترجم بلا انقطاع دون أن تمتد يده لما يرده، سيجمع هذا المبلغ خلال نصف عام. نعم سيختفي، ولكن قبل ذلك عليه، رغم ازدياد الألم الذي كان ينز من بقايا كرامته المسحوقة، الاتصال بالشخص الوحيد الذي يعرفه ليبلغه بمشكلته يداخله أمل ضعيف بأن يعرض عليه حلاً مؤقتاً. هو الآن متواضع الطموح لا يبغي الا تدبير المبيت لليلة أو ليلتين، لكنه تردد أكثر من ثلاث مرات في الضغط على رقم صاحبه. ما أن يظهر على شاشة التلفون النقال حتى يضغط على زر الالغاء. لم يكن يجرؤ على بدء المكالمة؛ فصاحبه هذا لم يتصل به ولو مرة واحدة طيلة وجوده هنا فما الذي سيقوله له؟ طردوني وآمل مساعدتك؟ قطعاً لا. بعد انتظار ساعتين لم يجد مهرباً غير أن يتصل ويلقي جملة متفحمة:

– أنا مالك وددت إعلامك أنهم طلبوا مني مغادرة البلاد!

صمت محدثه برهة كمن أُخذ على غفلة ثم رد:

– أوه، أنا الآن خارج البيت بمكان بعيد وسأبقى حتى نهاية الشهر، حاول أن تدبر الأمر الآن وسأتصل..

أقفل مالك الخط قبل أن يكمل محدثه جملته التي توقعها من قبل، وندم على اتصاله فضرب رأسه بقبضته الى حد الألم. "خارج البيت بمكان بعيد حتى نهاية الشهر"، اليوم ثاني أيام الشهر. هذا هو المهرب الشرقي من الحقيقة الذي وفرته له التكنولوجيا. لم يكن مثل هذا الكذب ممكناً مع التليفون السلكي الذي سيفضح وجودك في بيتك. حتى التكنولوجيا وقفت ضده. لا فائدة، لقد تخلى عنه الكل. منذ طفولته كان حساساً بدرجة تقرب من أن تكون مرضية. كان أسهل عليه أن يجوع يوماً كاملاً من أن يواجه كلمة خشنة من أمه، كان على سجيّة من لا يمكنه إيذاء أحدٍ فتوقع أن الجميع يقرأ ما في دواخله ولا يمكنه بالتالي تصور أن يُترك يواجه مصيره بنفسه. أعاد مع نفسه ما سمعه في طفولته حين كانت الأزمات تضرب البيت: "لم يمت أحد جوعاً"! لكنه لم يكن متأكداً من صحة هذا التصريح، فماذا لو لا يجد المرء ما يقتات عليه؟ هل يبقى عائشاً من الجوع؟

لملم ملابسه الرخيصة التي اشتراها في شهر مايس الفائت من سوق يوم الملكة ووضعها في حقيبة الظهر الأكثر رخصاً من كل شئ، فهو وجدها متروكة على الرصيف بعد انفضاض السوق. وأثناء وجبة الغداء، التي حرص على تناولها وحيداً، جمع عدداً من علب الجبنة والعسل وتفاحتين وموزتين وخبزاً بما يكفيه ليومين على الأقل، وضع المحتويات في كيس بلاستيكي ودسها في الحقيبة. تسلل من مبنى المركز بهدوء دون أن يودع أحداً سوى سيناي. مشى يسوقه شعورٌ باردٌ كئيبٌ، شعور مطرود غير

مرحب به. ذات إحساس الذل الذي تكرر في حياته منذ دخوله هذه البلاد، الوقوف أمام الشرطي طالباً اللجوء، رؤيته تجعّدْ وجه سائق الحافلة أمام سؤاله، سماعه فحيح مفراو سانتيفورت أمام باب إسطبلها المسمى سد البقر، لجوئهم الى الكنيسة، تسلمه قرار الطرد النهائي. سار ساعتين عبر الحقول باتجاه المحطة تحت سماء تنثر بين حين وآخر بصاقها عليه من مكان بعيد غير مرئي. كان العالم مهجوراً، فلم يصادف طيلة ساعتين أي إنسان، أو يسمع أي صوت باستثناء ما نقلته الريح من مأمأة مجاميع خرفان ونعاج لم يرها، ونقيق ضفادع متقطع ينبعث من النهيرات الضيقة زلقة الحواف التي كان يعبرها. ما أبعد القرى، ما أوحش القرى، صغرت حتى لا ترى! وما أشد عزلة سكانها عن بعضهم؟ وصل محطة القطار الفرعية. سلّم يصعد الى حيث السكة التي يدوسها قطار متعب كل نصف ساعة ذاهباً وعائداً. كانت ككل محطات القطار الفرعية في الأماكن القصية تغرق بحزن رمادي خاص بالمحطات الصغيرة الصامتة التي لا تجد من يلتفت اليها، وتمنح زائرها على الفور شعوراً بالوحدة والضياع. روادها كانوا كلهم، كما خُيّل له، من المطرودين واليائسين والذين لا أحد لهم مثله. لم تبن على ملامحهم وهيئاتهم علائم رغبة السفر ولا على حقائبهم الملفقة استعدادا له. عليه الآن الذهاب الى المحطة الرئيسية ضمن مسافة سيتوقف القطار خلالها خمس مرات. هو لم يرتكب قبل الآن أية مخالفة، بل تصرّف دائماً وفق القانون. قدم نفسه لاجئاً بشكل قانوني فرفضوه وفقاً للقانون، استأنف ضمن القانون فرفضوه ثانية ضمن القانون

طالبين منه الرحيل، قرر البقاء فدخل مرحله معارضة القانون. الآن لابد من إتباع تكتيكات الاستعانة بقانون الضعفاء، أي تكتيك الغش والتحايل الذي كانت معرفته مشاعة في مركز استقبال اللاجئين. للوصول المجاني للمحطة الرئيسية اتبع الخطة التالية:

"اصعد بالعربة الأخيرة وانزل قبل محطة واحدة من الرئيسية لأن المفتش يبدأ التفتيش من بداية القطار وحتى نهايته. قبل محطة واحدة من الوصول يكون المفتش قد بدأ التفتيش للتو في عربتك التي ستغادرها وسوف لن يلحقك. قبل أن تصعد القطار، من الأسلم الانتظار حتى الدقيقة الأخيرة ثم الصعود، فرؤية المفتش يعاين العربات ثم يصفر آذناً بالانطلاق ليصعد بعدها الى العربة، تقطع أي شك بأنه سيبدأ التفتيش ابتداءً من العربة الأولى".

سيبلغ المحطة الرئيسية إذن بدون أن يدفع سنتاً واحداً. نعم، كان عليه الاقتصاد الى أقصى حد ليعيش الى أمد غير محدد بمبلغ ثمانين إيرو تبقت لديه من أجور المقالات التي كتبها قبل شهر. في محطة المدينة الرئيسية، اختلف المشهد. كان الوقت مساء جمعة والمحطة تعجُّ بالمسافرين من الطلاب الذين يتجهون الى منازل آبائهم لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، تماماً مثلما كان يفعل أيام الخميس من كل أسبوع. يجمع ملابسه المتسخة ويحشرها بحقيبته الرمادية التي ورثها من سفرات أبيه ثم يتدافع مع المتدافعين للفوز بمقعد ينقله الى جنة أهله فيعود بعد يومين أو

أكثر من الاستجمام بملابس نظيفة وحقيبة مليئة بالحلويات والمخللات. بعد أن انتظر قرابة الساعتين جالساً في باحة محطة القطار كان عليه أن يستمر في جوب شوارع المدينة الغريبة بدون هدف الى أن يعم الظلام ليعود ثانية الى المحطة. الوقت المثقل بفراغ المعنى والهدف يمر بطيئاً، الوقت الذي لا يمكن تعريفه الا بالمستقطع من أيام العمر مثل قصاصات القماش الزائدة في دكان عمّه الخياط التي لا تنفع بشيء، كم تمنى لو أن هذا الوقت قد حذف من عمره؟ نعم ليقصر عمره مقابل أن يرسو على مرسى يعرف بعده الى أين سيتجه بلا هذا الدوران العبثي مع الوقت مثل عقرب ساعة. مقاطع جمة طويلة من عمر الانسان لا معنى لوجودها ولن تضيف له شيئاً، لو انها ضغطت مثل الاسفنجة لصار حجم العمر أقل من الثلث، لكنه ثلث ممتلئ!

بعد قليل سيبحث مع من يشابهه عن مكان للنوم ليمضي صباحاً في محاولته العبثية لإيجاد عمل هامشي بعيداً عن الأضواء. هذا هو كل ما يفكر به. كان الجوع قد أعلن عن نفسه منذ أكثر من ساعة الا أنه حاول مشاغلته وتمديد موعد العشاء ساعة أخرى، لكن أصابعه امتدّت تلقائياً لتسحب سحاب حقيبة الظهر بينما كان يرد على تحية رجل عجوز جلس على مقربه منه مع كلب ضخم. كانا، الرجل وكلبه، متماثلين، فالرجل الذي تقلص كان يقترب بأبعاده من الكلب الذي تضخم، حتى حركة كل منهما وتعامله مع المحيط كانت تشبه حركة الآخر. ضحك بخفوت من

فكرة باول الغريبة ان كل كلب يشبه صاحبه بعد أن وجه نظرة مقارنة بين الاثنين، كانا حقاً متشابهين. لم تكن أمنيته على أية حال أن يشاطره المقعد رجل مع كلب، لأنه وببساطة تعلم في الطفولة أن الكلب نجسٌ ومفترسٌ! وبقيت مشاعره تجاه الكلاب ثابتة لم تتغير، ما أن يقترب منه أحدها حتى يسارع في الابتعاد بعد أن يلمح عيون صاحبه تضيق لاعناً بكلمات غير مفهومة لعلها:

اللعنة.. أجنبي آخر.

نعم هم محقون، هذه البلاد بلادهم وبلاد كلابهم، ومن يأتي اليها عليه احترام ناسها وكلابها وقوانينها. الكلب هنا فرد من أفراد العائلة، له اسم، ومسجل في البلدية، ويدفع عنه صاحبه أجور التأمين الصحي، والضريبة، ومثل هكذا كائن يتوجب على الجميع احترامه. الكلب يشم الخوف ومالك والخوف رفيقان متلازمان منذ أن دخل حدود هذه البلاد. وأن لا يخاف المرء من الكلب لا يعني أن لا مشكلة ستحدث. فالكلب سيندفع في هذه الحالة الى هذا الصديق غير الخائف محتكاً بأرجله رافعاً ذيله، طالباً التدليل وأحياناً تتمادى بعض الكلاب فتتخطى الأعراف فتقفز فجأة الى أعلى بحيث تصل أرجلها الأمامية الى حزامه. منذ الأيام الأولى وضع لنفسه خطة للتصالح التاريخي مع الكلاب بدأها بتهيئة الجو النفسي للتعايش معها، وإن كانت المهمة تبدو صعبة مع بعضها ذات الوجوه المرعبة كالبوكس والبوليسي التي تتميز باستعداد فطري للهجوم.

– سيل.. سيبلغ بعد غد الخامسة!

قال الرجل بزهو مقدماً كلبه، وبعد أن سمع اسمه فهم الكلب أن عليه القيام بواجبات التعارف وإلقاء التحية على الضيف فقفز قفزة خلخلت توازن مالك الذي كان وقف استعداداً لمغادرة المكان فتراجع مباغتاً الى الخلف لكنه عزم على ألا يظهر خوفه فهز رأسه مردداً اسم الكلب:

– سيل اسم جميل!

سمع الكلب اسمه ثانية ففهم أنه كسب صديقاً، اندفع رافعاً قائمتيه الأماميتين والقى بهما على صدر مقابله الذي قفز مردداً عبارات مجاملة خجلة خائفة:

– أوه سيل. يا له من كلب ساحر!

صاح الرجل صاحب الكلب بكلبه بلطف:

– سيل.. كف عن ذلك!

لكن سيل لم يكف عن ذلك، بل ولم يكتف بما فعل، تابع مزاحه بأن قبضت أنيابه على حقيبة الظهر نصف المفتوحة وركض بها، وبحركة بهلوانية أمسكت أنيابه الحقيبة من أسفلها وطوحت بها في الهواء لتسقط المحتويات الثقيلة، التفاح والموز والخبز وعلب الجبنة والعسل متناثرة من كيس

البلاستك بعيداً الى الأسفل على السكة! ويبدو أن الكلب لم يعرف أن الحقيبة مفتوحة كما أكد صاحبه:

– هو لم يعرف أنها مفتوحة. أؤكد لك!

آه إذن. لم يعرف أنها مفتوحة! كاد مالك أن يدخل حرباً أخرى انتحارية هذه المرة فيركض للإمساك بهذا الكلب الوقح وخنقه حتى الموت. كل ملكيته من الطعام الثمين الذي احتاط وجمعه قد القاها سيل في مكان خطر يمنع النزول اليه منعاً قطعياً، بل لا يمكن النزول اليه. هرع يلم ملابسه من على الرصيف بمساعدة صاحب الكلب وبعض من تعاطف معه ممن شهد الواقعة ووجد فيها حدثاً مسلياً.

سألت المرأة التي كانت تنصت لحوارهما صاحب الكلب بفضول:

– كلبك لديه مزيد من الطاقة ايها السيد!

– نعم أيتها السيدة أصبت، هو دائم الحركة، بعد غد يوم ميلاده الخامس!

– أووه. ميلاد سعيد، خمس سنوات فقط؟ ظننته يتجه للعاشرة من أي فصيلة هو؟

– أبوه من جيرمن شيبرد وأمه من المالينوس.

– أها.. جيرمن شيبرد، خالتي في المانيا كانت تملك زوجاً من جيرمن شيبرد تحمل صفات الذئب والكلب معاً.

– نعم أصله من بافاريا.

– بافاريا! لا غرابة إذن في مزاحه العنيف مع الشاب.

ثم توجهت المرأة لمالك:

–لا أظن الكيس يحوي شيئاً ثميناً، اليس كذلك؟

رفع رأسه الى السماء الرمادية وتمتم:

– لا تظن، هي سألت وهي صاغت جوابها، هي لا تظن أن الكيس يحتوي شيئاً ثميناً، بل يحوي أثمن ما يبحث عنه الإنسان!

قال جملته الأخيرة بجفاف كاتماً حنقه وقاصداً غلق الموضوع نهائياً. بعد أن قام صاحب الكلب يجر كلبه معتذراً وبعد خفوت حماس المشاهدين للواقعة، ترك مقعده بهدوء وتسلق السلّم باتجاه الحانوت الوحيد الذي لم يكن قد أغلق بعد وأطال النظر للمحتويات التي عرضت من وراء الزجاج: علب بيبسي كولا، شوكولا سنيكرز، قطعة شوكولا مارس، بسكويتات كل قطعة بايرو! طعام يومين القاه سيل الى العدم وسيجبره الآن على شراء قطعة شوكولا لا تشبع طفلاً بايرو كامل، نقصت ميزانيته في أول ساعة لتتقلص الى تسع وسبعين ايرو!

خارج بهو المحطة، كانت تركيبة الموجودين تتغير تدريجياً. اختفت الحقائب وقَلَّ عدد المسافرين، في حين تزايدت أعداد فصيلة أخرى من البشر معظمهم بلحى طويلة رثة وكلّهم بهندام من الأسمال التي استحالت الوانها. بعض منهم لا يشك الناظر لهم بأنهم موتى قد هربوا للتو من مقبرة قريبة. كانت مجاميعهم تكتمل تحت اللوحة التي تحمل علامة (DL) مثل النمل عبر اندماجات وانشطارات متتالية كأنهم يستعدون لتنفيذ هجوم على موقع ما. هناك لفتت نظره علب الكرتون المطوية التي تأبطها الكثيرون. فتجرأ وسأل واحداً قريباً منه:

– اعذرني على تطفلي، ما هذا الذي تحمله؟

– هل أنت مُسجّل؟ لا بالتأكيد، إذن هذه هي غرفة نومك يا حلو بدونها سيُبال على رأسك!

وضحك كل من كان قريباً لكن شاباً طويل الشعر تقدم نحوه وقاده من يده:

– هل أنت جديد؟ هناك، أترى تلك البناية ذات الواجهة الزجاجية العريضة؟ امض وابحث عن باكيت كبير، هم يضعون علب الكرتون الكبيرة قرب الجدار لكي يأخذها عمال التنظيف صباحاً، بدون الباكيت لا حياة لنا نحن نزلاء فندق المحطة. أنظر، جميع غير المسجلين لديهم أكياس نوم ولأن منظر الإنسان نائماً في العراء داخل كيس، يؤلم مشاعر المارة، على

المشرد أن يدخل هو وكيسه داخل علبة كرتون فيضيع الأمر على المشاهد الحساس!

قال جملته الأخيرة ضاحكاً فرد مالك مأخوذاً بالمفاجأة:

– كيس نوم وكرتون في العراء؟ سمعت بوجود مكان لنوم الذين لاسكن لهم!

– نعم هذا كان قبل عام، ولكنه الآن يقتصر على المسجلين فقط. هناك متشردون مسجلون رسمياً يبيعون مجلة أخبار الشارع فيحصلون مقابل ما يبيعونه على نوم ووجبة، وآخرون غير مسجلين ليست لديهم وثائق، أو هم هاربون من قرارات حجز أو اعتقال مثلي، هؤلاء لا مكان لهم الا الشارع.

فكرة النوم بالعراء مثل وحوش البراري فكرة مرعبة. لا يوجد حيوان هنا ينام في العراء، فالكلاب والبقر والخيول والطيور والفئران لها أماكنها الدافئة التي تشعر داخلها بالسكون والاطمئنان. خفف وجود هذا الشاب المسمى والتر قليلاً من وقع الصدمة فهو لا يشبه المتسولين. بعد بضع دقائق من الحديث توضحت صورة والتر فهو تشكيلي هولندي مثقف يعيش حياة التشرد منذ ثلاث سنين وقد تآلف معها الى حد نسيان حياة غيرها. على مالك الآن الاسراع الى حيث سيتمكن بعد نصف ساعة وبصعوبة من العثور على باكيت مهلهل ملطخ من بعض جوانبه بصمغ قوي، لم يعرف في البدء كيفية حمله فالتصق بسترته وجره خلفه بشكل مضحك مثلما تجر

العربة. في تلك الليلة اكتشف حقيقة لم يكن يعرفها ولم يكن يتوقع وجودها في بلد أوربي. اكتشف حياة لبشر يعيشون كالخفافيش الباحثة عن الزوايا المظلمة ضمن مجتمع غير مرئي لا يُحَس بوجوده، أو لا يريد الاقرار بوجوده أحد. قبل تلك الليلة، لم يكن يتصور أن ينام الإنسان الليل كله، أو الليال كلها في العراء داخل باكيت كارتون يدس نفسه به كجثة في تابوت ثم يحاول حشو الفراغات المتبقية بالخرق أو الفلين كي يقلل الفرق بين حرارة جسمه والصقيع الذي ثبت عند الصفر المئوي. لم يفكر يوماً في أن يكون موقع غرفة النوم هذه متنقلاً من زاوية في موقف عام للسيارات، الى فضاء مفتوح تحت سلّم محطة القطارات، ثم حين يكتشف شرطي ما المكان، تنتقل غرفة النوم باحثة عن زاوية منسية في المدينة.

مشكلة الحضارة والتمدن والاعمار، أنها كلها قد نمت على حساب الطبيعة وعتمتها فتضاءلت الزوايا المنسية المعتمة بعد أن كشفت بسيل من ضوء لا ينام حتى الصباح. أين سيجد المشرد مكاناً معتماً في مدن مضاءة غير واثقة من سلامة سلوك بنيها؟ مدن يخاف سكانها من بعضهم؟ أكثر المشردين حظاً هو الذي يحظى بباكيت سميك الجدران يسع جسمه، غلاف كان يحتضن ثلاجة جديدة مثلاً، فيكون قد ضمن غرفة نوم فاخرة، لكن الفن، والشجاعة، ومهارات العمل السري كلها سوف توضع تحت الاختبار حين يتوجب على مواطن الباكيت الكارتوني الجواب عن السؤال: كيف ستحافظ عليه!

"مهم للغاية أن يكون لك وطن لكن الأهم أن تستطيع المحافظة عليه"!

هذه الحكمة التي سمعها من معلم التأريخ في الابتدائية؛ لم يفهمها بعمق كما يفهمها الآن. فوطنه هذا، هذه العلبة الكارتونية وما بداخلها من حشو، خرق أقمشة مستهلكة، وفلين، هي الآن ما يتوجب الدفاع عنه ضد الطامعين وهم كثر أولهم عمال البلدية والشرطة ثم أصحاب المحلات، فأين يمكنه إخفاء وطنه نهاراً أوان يتوجب عليه مغادرته؟

عرّفه والتر من اليوم الأول بقواعد معيشة المجموعة:

– مجموعتنا اسمها "فاقدو السقوف"، ولو سمحوا لي لألحقت باسمها عبارة: ذات الحول المفقود، إذ لا يُسمع لها صوت الا في نهاية العام حين تقيم لها غيرها من الجمعيات ذات الحول والقوة مهرجاناً خيرياً للفت الانتباه لقضية بائسيها. ولأن من لا سقف لديهم لا مال لديهم، سيتكرم الأغنياء ممثلون بالدولة، والشركات، ثم الكنيسة بتسديد كلفة إطعام متشردي مقاطعتهم ضمن عشاء يسمونه مهرجاناً سنوياً، لكي يخففوا من حدة الإهانة. السرقة غير مسموح بها، ليس لأنها خطيئة، بل لأن السارق يثير الشبهات ويعرضنا لمطاردة الشرطة. غير مسموح بقضاء الحاجة في الشارع أو الأماكن العامة لأن المجموعة في مفاوضات مع البلدية، منذ أربع سنين، لتخصيص مراحيض لها. على الجميع، من غير المسجَّلين الالتزام بالنوم في الاماكن التي يُتفق عليها في الشوارع والمنعطفات قريباً

من جدران البنايات العامة لا المنازل ولا الفنادق. على غير المسجَّلين الالتزام بشرط الباكيت الكرتوني والنهوض الصباحي ثم مغادرة مكان النوم مع المعدات في الساعة السادسة شتاءً والخامسة صيفاً. ممثلونا أمام البلدية هم سيلفا وداني لا غيرهما. يضاف اليهما والتر من المواقع الخلفية فيشكلون هيئة فصل المنازعات. كانت هذه هي الواجبات أما الحقوق فهي حق الاشتراك بالفعاليات التي تنظمها الجهات الرسمية والخيرية والتمتع بمزاياها، إضافة الى حق بيع الحشيشة، ولكن بطرق تجنب التصادم مع الشرطة وحق التسول بعيداً عن أماكن النوم. إذن أمور هذه المجموعة من البشر تدار من قبل جمعية هي الأكثر فقراً وبؤساً على سطح الأرض كلها.

صارت صفة فاقد السقف هويته منذ صدور قرار الطرد. وهو تجمع واسع يضم من فقد السكن بسبب الاخلال بنظام تسديد الايجار، أو من طرد من بيته لأي سبب أو من لم يملك بيتاً أبداً ومن ضمن هؤلاء من لم يحصل على حق الإقامة الشرعية.

كان والتر سامق القامة هادئ القسمات بشعر طويل مسترسل وأصابع كأصابع موسيقي، في المساء التالي أمسك بيده وقاده باتجاه مجموعة منعزلة من فروع الجماعة الكبيرة:

– هذا مجتمع مؤلف من أفراد محطّمين، ثلاثة أرباعهم لن يصلحوا لشيء آخر بعد الآن بعد أن كانوا أسوياء وموهوبين! لابد أن تعرف أن المشردين هنا ليسوا فقط من المدمنين واللاجئين الميؤوس من أمرهم كما يخيل للمرء أول وهلة. مجتمعنا بمجمله مجتمع عبيد من نوع حديث، الكل فيه عبيد للبنوك والشركات. أتعرف أن طلاقاً بين رجل وزوجته أو تسريحاً من العمل، أو إصابة تقعد الانسان فيبيع بيته بخسارة يمكن أن تنتهي بأصحابها الى التشرد؟ ذاك الذي يجلس تحت الشجرة مع داني اسمه رونالد كان موظفاً في شركة عقارات وفجأة أفلست الشركة وتحول هو الى واحد من سكان الشارع، كيف تبخرت كل هذه الملايين التي كانت للشركة؟ في أي جيب تستقر الملايين الآن؟ عالمنا يتجه للخراب، أغنى خمسة وثمانين شخص في العالم يملكون أكثر مما يملكه ثلاثة ونصف مليار إنسان. وفي هولندا يملك أغنى الأغنياء ونسبتهم واحد في المئة فقط أكثر من ثلاثمئة مليار من الثروة. إذا بقينا على هذه الحال سنصل الى حالة تمركز تسع وتسعين بالمئة من الثروة بيد واحد بالمئة ويسموننا بلداناً ديموقراطية اليس ذلك مضحكاً؟ مجتمعنا يبيع أسلحة الانتحار بسعر بخس ويستغرب من تزايد عدد محاولي الانتحار. أنظر لهذا المراهق النحيل المتكئ على الحائط، روب، كان طالباً ممتازاً تعرف على المخدرات بالمدرسة في سن الثالثة عشرة فأدمن تعاطيها وتشرد، والآن لا يكاد يستطيع المشي. المال هنا يصنع الأعاجيب، المال يصنع الأكاذيب، يعلي الواطئ ويحط من قيمة العالي، أنظر لكثير من هذه اللوحات التي تباع الواحدة منها

بالملايين، بعضها في الحقيقة لا تساوي قيمة المواد المستخدمة لرسمها، السبب هو السمعة التي خلقها المال والأغنياء لها. لو انني شطبت اسمي والتر فان مانين من الكثير من لوحاتي وكتبت تحتها رامبرانت أو بيكاسو لانطلى الأمر على العشرات من هذه الرؤوس الجاهلة، رؤوس الأثرياء مقتني اللوحات للتباهي: في قصري ثلاث لوحات لديلاكروا!

والتر محتدم وناقم طوال الوقت. مستاء من كل شيء وعلى كل شيء ويحس الميلان في نظام العالم. هو يرى أن المال لدى بعض الناس قد تجمع وتراكم بحيث أخل بتوازن الكرة الأرضية كلها. باب والتر المفتوح هو الباب الذي عبر منه مالك لعالم الشارع. قريباً منهما، أثناء التجمع التقليدي في ساحة المحطة، وقفت فتاة في العشرين ذات شعر أشعث ورائحة نتنة تنبعث من تحت ملابسها المتسخة عرف أن اسمها ليزا. كانت منتفخة البطن تدخن بشراهة، مثل حوت ينفث نافورة من ماء وهي تتحدث مع مراهق مشوه القامة بقي يهز رأسه بإصرار وببلاهة ناظراً الى السماء:

– لا أريد، لا أريد، لا أريد غرفة، لست متعوداً على الغرف!

– غير الغرفة، سيمنحوننا إذا وافقت منحة شهرية، فقط قل إنك صنعته..

– سيعرفون حقيقة أنني لا أقدر على صنع طفل ويطردونني!

– كل رجل يستطيع صناعة طفل..

– أنا لا أقدر، لا أعرف..

– هو الآن مصنوع، أنت لن تفعل شيئاً، أنت فقط.. قل أنك..

انفجرا ضاحكين وأدارا وجهيهما

– من تعتقد فعلها؟ سأل مالك:

– لست أنا ولا هذا المعتوه، لا أحد يعرف وهي تحاول رمي التهمة على واحد منا!

– مأساة، جريمة، ما ذنب الجنين؟

– ليست هذه هي المرة الأولى التي تحمل فيها ليزا، هي مشاعة للجميع وقبل عام تركت مولودها في الشارع، على رصيف المارة!

– أيعقل هذا؟ في الشارع!

– نعم. من لطف الأقدار أنه مات بعد ساعة، هي قاتلة مثلي!

قالها والتر ضاحكاً بمرارة فرد مالك مبتسماً:

– إذن كنت أنت الفاعل في المرة السابقة والتر؟

– لا، لم تفهمني، أنا، كيف يمكن أن الخص لك الموضوع؟ أنا مطلوب بقضية قتل لكني لم أقتل أحداً، ولا براهين لي على براءتي. بصماتي

وجدوها على قميص القتيلة وذراعيها. كنت في شقتها عندما ماتت لكني لم أقتلها.

– اللعنة! هل كنت على علاقة بها؟

– كلا، كانت عشيقة شخص أعرفه، وأنا وقعت ضحية صدفة حمقاء أو خدعة، لا أحد يعرف للآن. ربما أنه سممها وطلب مني في ذات اليوم أن اقابلها لجلب بعض حوائجه منها، أو أنها ماتت بالصدفة لا أعرف. عندما وصلتُ بيتها وجلست منتظراً أن تكمل رزم ما طلبه مني، سقطت هي على الأرض فقمت لإسعافها لكنها فارقت الحياة فسارعت مرتبكاً لمغادرة البيت. كيف يمكنني إثبات الحقيقة؟

– لو سلمت نفسك وحكيت الحقيقة كما كانت لكان ذلك أفضل!

– فعلتُ، لكن كل الأدلة كانت تدينني، شهود شاهدوني أدخل، أخرون شاهدوني أترك البيت راكضاً، لم يشفع لي أنني بلغت عن الحادث بنفسي فبصماتي المطبوعة على قميصها وذراعيها، وافادات الشهود جعلتهم يستميتون من أجل إثبات التهمة عليّ.

– لا يمكن أن تكون قاتلاً الا عندما يكون المحقق والقضاء سخيفين. ليس كل إنسان قادراً على القتل.

انتقل والتر للحديث عن ليزا ربما لمله من تكرار سرد قصته، كحال مالك عندما يكون مجبراً على إعادة سرد قصته:

– ليزا هذه تستحق الشفقة، أول مرة رأيتها كدت أقع في غرامها، سحرتني ابتسامتها ودقة ملامحها الجميلة...

– أتراها جميلة؟

– نعم، هل لديك شك؟ أنظر اليها ثانية، زهرة للشارع وأخرى لغرفتك الدافئة يا صديقي، شجرة لحديقة المتنزه وأخرى لشرفتك، الأمران مختلفان. أنت في الشارع لا تستنشق ضوع الزهرة، تراها ضمن إنثيال المشهد العام، في غرفتك تلمسها ويملأ ضوعها الفضاء. ليزا جميلة، ولكن بمقاسات الغرفة لا الشارع، كما أنها لم تكن بهذا الإتساخ، أنت تهرب منها لرائحتها النتنة وأسمالها البالية وتكورها على ذاتها ورائحة التبغ التي تنبعث منها، لكن جرب الاقتراب منها بعد أن تسد أنفك وسترى!

رد مالك مبتسماً:

– لا أريد تجريب ذلك، ستعرض عليَ تبني الطفل، جميلتك هذه! التشكيليون لهم رأيهم الخاص والغريب بالجمال!

رسم والتر جسد امرأة في الهواء ومضى شارحاً:

– نعم جميلة، أنا يا صديقي أتناول المرأة وجسد المرأة من خلال منظور خاص بي، ولكن الأخرين لا يفهمون من الجسد سوى الغريزة السطحية، أنا مهتم بالجسد الأنثوي من حيث كونه مدخلاً لأعماق المرأة. لدي وجهة نظري بالجسد وأتحدث كثيراً عن جماله، ولكن حتى الشكل، ما هو جمال الشكل؟ هو مفهوم نسبي وزمكاني أيضاً، مثلاً أنظر لهذه القادمة نحونا من بعيد، إنها مثل منارة تهدي البحارة، ورأس واثق من ميلان الرؤوس باتجاهه، سيقان مثل الفَرَس، وشعر مثل أغصان شجرة كازوارينا متهدلة، هل توجد لديكم أشجار كازوارينا؟ حسناً مثل نخلة، هي امرأة ملكة بمقاسات الشارع، لكن دعها تقترب وسنرى، نعم الآن أنظر الى وجهها، هذه امرأة بمقاسات الشارع وليست بمقاسات الغرفة، هناك حيث العيون وملامح الوجه والصوت والتفاصيل الصغيرة هي التي تقود العملية. في الغرفة يتحول الشعر الطويل الى عائق، في حين كان في الشارع مغناطيساً جاذباً، بينما تفعل نظرية تساوي السيقان مفعولها فتتساوى السيقان الطويلة مع القصيرة حين ترتفع فوق أذنيك فلا تشاهدها وتفقد امتيازها الشارعي. ما يبقى في المواجهة مقدمة المرأة من بطنها لأعلى. هناك امرأة للشارع وأخرى للفراش، في الشارع أنت لا تُثار، تحكمك قيم الشارع، أنت تُعجب وتنبهر بالأبعاد من بعيد، ولكن في الغرفة تتذوق الجمال، في الغرفة تتحول امرأة مثل هذه التي مرت قبل قليل الى ما يشبه الحصان المطروح على سرير. هذا فيما يخص الشكل..

ضحك مالك عندما تخيل حصاناً ممدداً على سرير وقال:

– لكن لم تقل لي ما الذي منعكما من أن تكونا معاً إذن، أنت وليزا؟

– اقتربت منها لكن نسيج حياتها كان متهتكاً، لم أوفق في مسك أي جزء منه. كانت مثل قطعة قماش عالقة في مجرى نهر، أنهكها البلل الطويل ما أن تحاول مسكها حتى تتهرأ بيدك، حاولت الحديث الودي معها لكنها عرضت نفسها برخص مقابل سيجارة واحدة!

لولا والتر لمات مالك كمداً! أيام مرت وغادرت دون أن تترك أثراً.. كان العام يقترب من حتفه.. منذ حلّ في هذه البلاد ونهايات العام تشعر مالك بالكدر. عندما تبلى ملابس الخريف فتكشف عن هزالة وشيخوخة عام سيرحل، مترنحاً سابحاً في رماد الهواء البارد، كان يشعر برغبة بالبكاء. لم يكن في بلاده ينتبه لنهاية عام ومجيء آخر الا بمقدار تأثير وجود عطلة، لكن انقضاء العام هنا يترافق مع كدر من نوع خاص للغاية عندما تقعي قبة السماء الحزينة على الأرض مثل ظل كابوس ثقيل، وتقترب من سقوف البنايات حتى تكاد تلامسها فيحل الظلام مبكراً ويمتلئ الأفق بصراخ الوداع تطلقه آلاف الطيور المهاجرة كل مساء. لم يشعر في حياته بالوحدة والضياع وفقدان الأمل بكل شيء، مثلما يشعر به في هذه الأوقات الذابلة المعتمة. كان انتهاء العام يشعره بالفزع والخواء كأن الدنيا قد أعلنت إفلاسها. دنياه هو لا دنيا غيره. جيش من الأفكار الموحشة الموغلة بالحزن

يُحاصره، عن الحياة والغاية منها، والموت، والحكمة من وجوده وهذا العبث الذي يحيط بالإنسان من كل الجهات. هو لم ينفك عن ربط ظاهرة نهاية العام بنهاية الحياة ودورانها من ربيع واندفاع وشباب الى صيف ونضج ثم ذبول ونهاية رغم إيقاع الفرح المتصاعد في الشوارع مع ولوج الشهر الاخير للعام الهرم نصفه الثاني، واشتعال الأسواق والبيوت بالأضواء عندما يصدح صوت جورج مايكل ميري كريسمس متغلغلاً في الدروب والأسواق. كان مالك يجول باحثاً في تجاعيد تلك الأيام الهرمة، يحاول عبثاً اقتناص لحظة فرح من بين ثناياها. هذا العيد بالذات يثير بنفسه لواعجاً متلاطمة لا يحس بها في غيره، ربما بسبب طبيعته كعيد عائلي قبل كل شيء وما يميزه أن أفراد العائلة يقطعون البحار من أجل الالتحاق بعوائلهم، في حين يسعى هو لقطع البحار للابتعاد عن عائلته. ربما لأن العيد الذي تعرفه ذاكرته هو صورة الصخب والألوان والملابس الجديدة وزيارة الأقرباء الذين لا يراهم سوى مرة في العام، لا ما يراه الآن، الهدوء والشوارع الميتة التي تذكرة بحالة منع التجول. وربما لأن مفردات حياة حاضره المتشردة وضبابية مستقبله تتنافران أصلاً مع مفردة العيد، فالعيد قبل كل شيء بيت واستقرار. نعم البيت الذي صار حلماً والاستقرار الذي كان يفر من أمامه. بالذات يوم قبل حلول العيد حين تقفر الشوارع، وتتجمد أوصال الحياة خارج المنازل الدافئة المزينة بأشجار عيد الميلاد، كان شعوره بالضياع يبلغ منتهاه، كأنما العالم كله قد لَبَدَ من البرد وتلملم في البيوت الدافئة ليتركه وحيداً في العراء يضحك من تشرده الذي لا تبدو نهايته قريبة.

تميز هذا العام بسقوط الثلج بعد انقطاع دام ثلاثين سنة مما ضاعف من ابتهاج الناس. كان يجلس في ركن من المكتبة محاولاً إتمام كتابة مقالة، حين انخرطت امرأتان في حديث العيد:

– أووه عيدٌ أبيضٌ سيحل هذا العام!

ردت أخرى ترتدي معطفاً من فرو النمر:

– نعم الأطفال في غاية السعادة، سيأتي عمهم وبناته من كندا يوم غد.

قالت عجوز ثالثة تتكئ على عربة تبضّع:

– نعم أحفادي أيضاً فرحون، تصوري أنا لا أتذكر أن آباءهم لعبوا بالثلج!

كان يسمع تعليقات النساء والحزن يخنقه، لقد أثاره اهتمام الناس بالعيد الذي يسبب له الألم ويشعره بالوحدة. خرج من المكتبة باتجاه دار البلدية حيث مهرجان جمعية فاقدي السقوف، حين كانت الأرض وماعليها قد تحولت خلال دقائق الى بياض ناصع والجليد قد جمّد قدميه اللتين بدأ ماء الشتاء يتسرب اليهما.

أول الأمر بدا حضور المهرجان مخاطرة، لكن والتر أكد أن كل ما في الأمسية يستحق الحضور:

– أنا لا أدعوك للطعام فقط، بل للتمتع برؤية رشقات الأحذية العتيقة التي ستصدم وجوه المسؤولين، الا تود التمتع بهذا المشهد؟ هذا العام هيأت المجموعة برنامجاً ثورياً!

– وإذا تدخلت الشرطة؟ إذا اعتقلت سوف تكون أنت السبب!

رد والتر متهكماً:

– عليك توقع حضور الشرطة في أية لحظة وفي أي مكان الا هذه الأيام وهذا المكان. هذه أيام خير حيث يكشف المجتمع عن وجهه الرحيم الذي لم نره من قبل. لا تكن حاقداً على المجتمع مثلي! سترى الديمقراطية بعينيك، ستسمع المتشرد يسب أكبر مسؤول في المحافظة وربما في الدولة دون أن يعاقبه أحد.

يتضمن مهرجان نهاية العام إضافة الى الطعام الاحتفالي، السماح للمتشردين بإيصال كل ما يريدون دون مسائلة من المحافظ ورئيس البلدية اللذين غالباً ما يحضران العشاء متخليين عن أربطة العنق والبدلات الرسمية. كانت واجهة قاعة الاحتفال المزينة بالمصابيح الوامضة تشكل جداراً من قلوب متلاصقة. وقبل الباب مباشرة، انتصبت شجرة تنوب هائلة، ضحية من ضحايا نهاية العام حيث تقطع ملايين الاشجار ليعلق المحتفلون على أغصانها هداياهم. فهذه الأيام تتجه اهتمامات الأطفال والكبار في كل بيت لهذا المخلوق المسبي من الغابة، الموضوع في زاوية

من صالة البيت تزينه شرائط من خيوط ذهبية اللون وأخرى حمراء اللون وثالثة فضية. لكن قوانين الحياة لا تلبث أن تهشم بهاء هذه الشجرة المدللة، فما هي الا أيام بعد ابتداء العام، حتى تجر من ذيلها الى أقرب مزبلة، متيبسة الأغصان، صفراء، الى أن تستقر في أعماق حاوية الأنقاض مع زميلاتها من شجيرات عيد الميلاد التي كانت تزين البيوت الأخرى. ذلك هو أقسى تصوير للحياة!

بعد دقائق من الانتظار، صاح صوتٌ داعياً الجميع الدخول للقاعة فتدافع المتشردون للحصول على الكراسي الأمامية وأدرك مالك أن جماعته لم يكونوا سوى أقلية ضائعة ضمن بحر من متشردين غرباء، فهو لم يتمكن من التعرف على أحد غير ليزا وداني. قاعة الإحتفال من الداخل، تكوين مُترفٌ مخيف لم تألفه أعين المتشردين التي بقيت تجول متنقلة من السقف الذي يرتفع ما يزيد على العشرة أمتار الى الجدران المخملية ذات اللون الماروني الدافئ لتستقر على الأرائك اللينة التي لم تتعودها مؤخراتهم المتيبسة من فرط النوم والجلوس على قارعة الطرقات. أناس بأسمال ممزقة، وآخرون تفوح من رؤوسهم روائح العفن والتخمر جلسوا كما تلاميذ الابتدائية شابكين أذرعهم على صدورهم لضمان استمرار قبول وجودهم بالقاعة الى أن يحين موعد العشاء.

جلس مالك الى جانب والتر على آخر كرسي قرب الممر كأنما يستعد للهرب حال حدوث أي طارئ. على مبعدة صفين من الكراسي أمامهما

جلست ليزا ببطنها المنتفخ تتبادل الكلمات بخجل مع امرأة غريبة تحمل ملامح نساء القرون الوسطى. في الأمام جلس المحافظ ورئيس المجلس البلدي الى جانب نساء ورجال بدا على ملامحهم أنهم يتحينون أول فرصة لمغادرة القاعة.

أطفئت الأنوار فغرقت القاعة بالصمت، لحظات ثم تقدمت امرأة سامقة القامة خيّل لمالك أنه شاهدها مرة واحدة قرب المحطة، وهي امرأة جبارة الهيئة وصلت كلماتها عبر صوت خشن مبحوح من أثر الدخان:

– سادتي الكرام، الليلة هي مناسبتنا لقول ما نريد، لقد أعطانا ملك الملوك الأمان لنقول في هذه الليلة التي لا تتكرر في العام، ما نحس به دون أي خوف من مسائلة، ولكن أريد أن أسألكم أولاً وقبل كل شيء، اليس هذا بحد ذاته أسخف من السخف نفسه؟ فما الذي يمكن أن نخاف منه نحن سكان الشوارع؟ أية ملكية نخشى أن تُصادر منا؟ أية مسائلة يمكن لها أن تنطبق علينا نحن الذين نسينا حتى كيف نجلس على الكراسي؟ ربما سيصادرون كارتوناتنا التي نلتحف بها. نحن نتمنى السجن فلا نطاله!

ضجت القاعة بالهتاف والتصفيق، لكن الخطيبة المتوقدة المحتدمة واصلت:

– هذه المرة، دعوني أتمنى أن يأتي العام القادم لكل منكم ولي بسرير، سرير صدئ تحت سقف تسنده أربعة جدران، حتى لو كانت من صفيح،

لا غير، وبما أنني قد أخترت لعرافة هذا الحفل فدعوني أزف لكم بشرى فريدة من نوعها:

حفلنا هذا العام خصصناه لمناسبة مهمة، ففي الانتخابات الماضية وصل "حزب الحيوانات" الى مجلس النواب! سيسعى الحزب الى أخذ مشاعر الحيوانات بنظر الاعتبار، مثلاً لا يجوز نقل الخيول والبقر بطريقة بربرية مكدسة مع بعضها في شاحنات بمجال ضيق لا يتيح لها الحركة كما ترغب. من العار أن تنتظر الخرفان فترة طويلة وهي تستعد لملاقاة سكين الجزار. الخرفان تعرف ما ينتظرها ولذلك، كلما طالت فترة انتظارها زاد ذلك في معاناتها وهلعها من المصير المحتوم..

وصفق الحاضرون قرابة دقيقة كاملة استغلتها المرأة بالتقاط كأس ماء رشفت منه رشفتين وعادت للحديث:

– ولع مجتمعنا وسياسيينا بالحيوانات كما تعرفون لا يوازيه ولع.. لكنهم في الحقيقة، وبالأخص من يشتغل منهم بالسياسة وقيادة البلاد، منافقون! أنظروا، على الورق وفي الحملات الانتخابية يناصرون الحيوان ويأنون الماً لآلامه، ولكن حين يتعلق الأمر برفاهيتهم، يسلخون حتى جلد الإنسان. أسألك أيها السيد المحافظ عن سياراتك ذات الارائك الجلدية، جلد أية ضحية هذا الذي تتكئ عليه كل يوم؟ فيل، أم نمر، أم غزال، أم بقرة؟ هل

يتمكن كرشكم الكريم سيدي رئيس البلدية من التضحية بكيلو لحم في الأسبوع؟

غاص قلب مالك عميقاً في صدره وتخيل فرقة من الشرطة الخيّالة تحاصر مدخل القاعة، هل يعقل أن تستهزئ هذه المرأة المشردة بسياسيي البلاد ورؤوسها بهذه البساطة؟ أراد أن ينقل مخاوفه لوالتر لكن الهتاف والتصفيق عادا من جديد لقطع حديث المتحدثة التي أشارت بكفها داعية الجمهور للصمت وواصلت:

– بعد أيام يحل العيد. ستشتعل الأرض والسماء بالضباب الملون وتهدر الأصوات من كل صوب فتسوء الرؤية وتصطدم السيارات ببعضها، وتحترق أجساد الصبية اللاهين بالألعاب النارية، بل والكبار أيضا. أدعو السيد نائب رئيس البلدية ليبين لنا لماذا تسمح البلدية بهدر هذه الثروات في ليلة رأس السنة على الألعاب النارية؟ ملايين تكفي لانتشال مدينة كاملة من العوز، ترى ماهي الحكمة في أن تمتلئ الأرض والسماء ليومين بأصوات الانفجارات والدخان؟ سيداتي سادتي، لا أنوي الاستمرار في منصب عرافة الحفل الى الأبد مثل سياسيينا ونوابنا، لذلك أدعو زميلي أميل لكي يحدثنا عن وجهة نظره بمناسبة الحدث السعيد، وصول حزب الحيوانات الى مجلس النواب.

نزلتْ من خشبة المسرح وسط تصفيق عاصف وتقدم بعدها شاب طويل وقف متكئاً على المنصة:

أيها الحضور، من وحي مناسبة صعود حزب الحيوانات كتبت القصيدة التالية:

هنا أمريكا وأوربا، منبع الحضارة البشرية الحالية ومصدر هذا النظام،

هنا اخترع الكومبيوتر، وصممت مراكب الفضاء. لتحقق لنا الأحلام،

هنا يتحاور الناس بهدوء ويتبادلون الزهور ويتحسسون آلام السمكة،

حين تشوى بالنار فتعاف أنفسهم الطعام،

هنا آلاف الجمعيات للدفاع عن حقوق العناكب،

ومراعاة عواطف السلاحف التي تبعدها الأمواج عن مواطنها الأولى فتصطادها المراكب..

هنا تنتحب النساء عند وفاة كلب بداء الجرب..

وتعقد المؤتمرات لرفع الغبن اللاحق بالذئاب حين تصورها أفلام كارتون وحشية غادرة، وهي بلا ذنب،

أما إذا فعلها القدر واصطاد الصيادون بالمصادفة أحد عجول البحر

أو كلاب البحر، او صراصير البحر

فسيكون ذلك في الصحف. أول خبر
سيداتي سادتي، أناس موهوبون عمليون. نحن.. ولفرط توغلنا في الحضارة نحن بالطبع لم نسمع بقصص الهنود الحمر الذين اصطادهم أجدادنا كالخيول الوحشية، ولا بقرى الفيتناميين حين كانت ترش بالبنزين من الطائرات وتحرق بمن فيها. ربما كان العرب أو الأفغان هم من أحرق اليهود في أفران الغاز، أما الذي فجر الجحيم النووي في هيروشيما وناكا زاكي فهو ياسر عرفات.. صبرا وشاتيلا؟ أكيد من تدبير القذافي. حيوا معي العالم المتحضر!

ضحكت القاعة وصفقت للشاب.

بعد هذه القصيدة، دعي الحضور الى تناول الطعام الاحتفالي. عندما أنيرت القاعة وبحثت عيون مالك بفضول عن الضيوف من عليّة القوم، المحافظ ورئيس المجلس البلدي، وممثلي الشركات الكبرى لم ير أحداً، متى غادروا القاعة؟

التفت الى والتر:

– كيف يمكن أن يحدث هذا؟ كان كلام المرأة ثقيلاً لحد أنني توقعت أن يجرونها من شعرها!

ضحك والتر وقال مربتاً على كتف صاحبه:

– هذه لعبة الديموقراطية يا صاحبي. اصرخ واشتم من شئت ومتى شئت، لن يتغير شيء. انطح رأسك بالجدار، كل شيء يدور ضمن نظام محكم الإغلاق.

– من أين هذه المرأة وهذا الذي القى القصيدة؟

استدار والتر ليتأكد من خلو المكان من غيرهما:

– سلفا مغربية من بلجيكا وقد حرّفت اسمها من سلوى للتمويه. كانت مديرة قسم في معمل نسيج والبسة، امرأة ناجحة بمقاييس مجتمعنا، وهي متمسكة بنظرية غريبة مفادها أنها كانت أنثى ناعمة لكن لفرط حقارة الرجل قد غادرت أنوثتها وتمرد كل شيء فيها لكيلا يغري أي رجل. اخشوشن صوتها، وعرضت أكتافها، وغطى ذراعيها شعر كثيف، وكبرت أكفها، وتغيرت لغتها الى أخرى قاسية مباشرة. ورغم هزال هذا الادعاء الا أن الذين يعرفون سلفا من قبل يؤكدون صحته وأنها كانت أنثى رقيقة وقد عانت الأهوال مع زوجها حتى بعد أن ثارت ضده فتلقفتها مؤسسة "ابق بعيداً عن حياتي" وهي المؤسسة التي تحاول حماية النساء اللواتي يتمردن على طاعة أزواجهن. بقي هذا الرجل يتحين الفرص للظفر بها والانتقام منها ولم تطمأن سلفا الى جدية المؤسسة بحمايتها بعد أن رصدت خرقين

أتاحا لطليقها، الذي لا يعترف بأمر طلاقها منه، الوصول لمرتين الى غرفتها فقررت الهروب من مدينتها البعيدة واللجوء للشارع هنا.

فجأة، وقبل السماح للمحتفلين ولوج قاعة الطعام سرت همهمة على أثر إشاعة لم يعرف مصدرها أن المحافظ أوعز باعتقال كل من يمكن اعتقاله وبالأخص المنظمين وانتشر الخبر أول الأمر عبر همسات نقلها من سمع لمن لم يسمع:

سيارات الشرطة تحاصر المكان!

ثم شاعت الفوضى وانفلت المتشردون بأتجاه طاولات الطعام كل يحاول أن يحمل معه أكثر ما يمكن حمله، مفيداً من خفة الصحون الورقية فتحولت قاعة الطعام الاحتفالي خلال دقائق الى ما يشبه حالة سوق منهوب. وقف مالك مصعوقاً أمام الطاولات التي تناثر الطعام تحتها وعلى جوانبها وحاول لا ارادياً، مدفوعاً بقوى القطيع المذعور من سماع إشاعة المطاردة، أن يعبئ البطاطا في كيس بلاستك كان بجيبه، لكنه أحس فجأة بالقرف من بشاعة العملية فأعاد الكيس الى جيبه وغادر قاعة الطعام راكضاً.

# 4

عاش مالك شهوراً من ريع عمل متقطع في تنظيف قاعات مطاعم الفنادق حصل عليه بمساعدة والتر، وخلال اسبوع واحد تعرض لهزتين عنيفتين. أولاهما اختفاء والتر من "فندق الكارتون"، بعد أن أفلت من غارة ليلية استهدفته شخصياً نتيجة وشاية دقيقة، وبغيابه انقطع عن العمل ثم تبعثرت المجموعة بعد أن شملت أعمال الاعمار والبناء المناطق التي كان فندق الكرتون يحتلها. بقي بعد والتر وحيداً يقضي نهاره في المكتبات ويقتات على الأكلات الرخيصة من محلات الشرقيين، ولم يكد ينجح في تنظيم عزلته حتى تعرض بعد غياب صاحبه بخمسة أيام للهزة الثانية حينما تحسس حافظة نفوده القليلة فلم يجدها. شعر بالأرض تميد تحت قدميه، هذه هي نهاية عالمه الذي حاول المحافظة عليه متزناً طيلة السنين الفائتة كما يحافظ لاعب سيرك ماهر على سيره على الحبل. أنفق كل نهاره في البحث عنها بلا جدوى. كم هي ثمينة النقود الضائعة؟ بل كم هو ثمين كل شيء ضائع أو مفقود لا نحس بقيمته الا حين نفقده؟ كان يشعر بالأمن الغذائي كما يسميه، مادام في محفظته ما يزيد على مئة ايرو، ولكنه الآن لا يملك حتى عشر المبلغ. ما العمل؟ جرَّ قدميه الثقيلتين ماشياً الى قلب المدينة الحجري فوجد نفسه بعد ساعة ونصف يسير بمحاذاة ملعب PSV عندما كان المتفرجون يغادرونه أفواجاً بعد انتهاء مباراة بكرة

القدم. هنا كان المتشردون يتجمعون، والآن لا أحد سوى سيارة شرطة يتجمع حولها عناصر حماية الملعب، كان لابد من الابتعاد عنها.. تابع آخر الزاحفين متجهين الى سياراتهم التي ستقلهم الى بيوتهم الدافئة. ولج جهة المنازل العائلية ونقّل نظره مستعرضاً صف البنايات على يمينه. على امتداد الرصيف الأصفر كانت أوراق الخريف اليابسة تنشج منزاحة على جانبي قدميه بصوتها الباكي النائح.. تشيش. تشيش، تشيش، تشيش، أعجبه هذا اللحن الجنائزي فراحت قدماه تعزفان بوتيرة أعلى. تشيش، تشيش..

– هل لديكم مثل هذا؟

انتبه الى رجل على كرسي متحرك كان يسير بجانبه ببطء، ظنه يتكلم مع شخص آخر، لكن الشارع كان خالياً الا منهما فعرف أنه يوجه السؤال له. لم يجب لكن الرجل أعاد سؤاله بصيغة أكثر توضيحاً:

– هل رأيت في بلدكم مثل هذه الأوراق الخريفية؟ من أي بلد أنت إذا كان يُسمح لي بالسؤال؟

أحس بلسعة، ذات الأسئلة التي تعرف كيف تشعره بغربته: لديكم.. في بلادكم. الى بلادنا..

أجاب والحنق يمسك بخوانيقه:

– في بلادنا؟ كلا يا سيد، هناك لا توجد أشجار، ولا أوراق، ولا بشر، فقط جِمال سارحة في صحراء لا نهاية لها، أو أصلاً لا يوجد شيء اسمه بلاد! أتعرف أيها السيد؟ أمنيتي الكبرى، أن أجد نفسي يوماً ما موجوداً في بلاد ما لا يسألني فيها أحد: من أي بلد أنت؟

واصل سيره تاركاً الرجل الحائر وسؤاله المكرر الممل الذي سمعه مراراً، دون إجابه. كان مزاجه قد عاد للانحدار والتكدر ووجد في أعماقه قوة عدوانية لم يعهدها. وسرعان ما لام نفسه على رده العنيف على الرجل:

اهدأ مالك، اهدأ، لن تكسب شيئاً بثورتك، سوف لن يفهمها أحد! فكر باللحاق به والاعتذار منه، كلا أحس أن لا قدرة له على التعاطي مع أي أحد. من الأسلم ألا يقرب البشر وهو بهذه الشحنة من القهر الذي تغلغل في كل مساماته. مر بالبيوت حيث كشفت الأضواء الناعسة الراقدة خلف ستائر الشبابيك الشفافة، هوية البلاد! الهولنديون لا يغلقون ستائر شبابيكهم، يتركونها عارية أو بثياب النوم الشفافة حتى يمكن للرائي كشف ما وراءها. هي وسيلة لتبرئة الذمة وإعلان خلو البيوت من النفائس ومما يتوجب إخفاءه، أي رسالة هادئة للصوص: ليس لدي شيء للسرقة. سمع أن الشبابيك المفتوحة وسيلة "للسيطرة الاجتماعية"، فالناس هنا تراقب بعضها وتنقل ما تراه الى غيرها! وهم يصرون على اسماع من هو قريب منهم ما يتحدثون به. كم من قصة ممتعة سمعها مالك عرضاً من متحدثين يجاورانه المقعد بعربة قطار أو زاوية مطعم؟

تابع بصره بحنق الغرف التي لا عد لها متخيلاً من هم وراء الستائر المسدلة، كم هو مضحك أن تزال الحواجز والجدران والسطوح بين هذه الغرف فيتكوم سكانها على بعضهم عراة، وبملابس النوم، سكارى، وحانقين، وجادين، سمان، وضعاف! كل من يجلس هناك خلف الأبواب المغلقة لا يفكر بشيء اسمه مبيت الليلة. كلٌّ يدخل منزله ويغادره بآلية روتينية متكررة. لا أحد غير فاقد البيت والمأوى يقدّس هذه الحركة فائقة القيمة، حركة دس المفتاح الخاص في باب البيت الخاص ثم الدخول وغلق الباب. هذه الثواني الفاصلة بين الخاص والعام، الخارج والداخل، هي حلم المشرّد، هناك سيبدأ والج الباب عالمه البيتي الذي لا ينافسه فيه أحد! سيختار الوضع الذي يعجبه، والمكان الذي يريحه، والفعل الذي يريد. كل هذه المباني، أطنان الحجر والزجاج والخشب التي تحتضن الأثاث، والكلاب، والقطط، والبشر، والبغايا، والقوادين، وأنصاف المجرمين، بل حتى كاملي الاجرام، عاجزة عن أن تمنحه شيئاً اسمه مبيت الليل. واصل استكشاف الدروب نصف المعتمة شاعراً برغبة عارمة في البكاء. بيوت الأجانب تكشف عن نفسها عبر رسائل لا تخطئها العين، رثاثة الحدائق الأمامية الذابلة أو التي تحولت الى صحارٍ صغيرة، والواجهات المهملة، والأطباق اللاقطة التي تهرب بأهل البيت من لغة البلاد وما يحدث في البلاد الى مضارب القبائل وراء البحار. الستائر المعتمة التي تريد اخفاء كل ما في جوف البيت، وبضعة أطفال لابد من وجودهم طالما كانت خزينة الدولة تصرف المساعدة لكل طفل. قطع الطريق من الملعب الى

اللا معيّن، وهو بالقاموس الشارعي المكان غير المحدد الذي يبحث عنه المتشرد بعد خروجه من غرفة نومة في الباكيت الى العالم العلوي لقضاء النهار. ربما سيموت هذه الليلة فهو جائع مقرور ولا مأوى له، كيف يموت الناس المعوزون؟ يموتون جوعاً وبرداً وكلاهما يرافقانه!

قصد المحطة الرئيسية كأنما يأمل العثور على محفظة فقدها أحد ما فيعوض خسارته. كانت المحطة تشهد ازدحاما غير مسبوق وجمع من حاملي الرايات واللافتات يتقاطرون عليها بلا انقطاع. علمَ أن مظاهرة كبيرة ستنطلق من العاصمة وأن قطاراً مجانياً خصص لنقل المتظاهرين الى ومن العاصمة. بدون أي قدر من التفكير صعد الى العربة بدافع وحيد هو انتقاء البدائل. كانت الأجساد متراصة في العربة التي انضغط فيها الهواء حتى كاد يصرخ، وفي محطة المطار برقت في رأسه فجأة فكرة عبقرية سببها ازدحام العربة الخانقة، هي قضاء الشتاء في العاصمة! نعم هناك في مطار العاصمة، إذ أين يجد المرء مبيتاً دافئاً في مكان محمي السقف أفضل من مطار؟ سيبيت الليالي كمسافر ينتظر طائرته التي لن تجئ! شق طريقه الى خارج العربة بصعوبة وسط صيحات الاستهجان التي أطلقها الركاب، الذين ظنوه متظاهراً تخلى عن التظاهر. في البدء، قبل أن يتعرف على والتر وقع ضحية وهم أن المطارات الكبرى عرضة للتفتيش أكثر من غيرها، لكن الحقيقة التي عرفها لاحقاً منه أن ما يثير مختصي الأمن هو السلوك المشبوه مثل ترك الحقائب الشخصية في أماكن

بعيدة عن صاحبها أو محاولات دخول الأماكن الخاصة بمنتسبي المطار أو البقاء فترات طويلة في التواليت. أما إذا كان مطلبك النوم على الدكة بمنتهى الثقة بالنفس، شابكاً يدك على قبضة الترولي بانتظار طائرتك الوهمية، فنم قرير العين. الهاجس المرعب الآن هو الارهاب، وبإجراء شكلي يمكنك تفادي أن تكون من المشبوهين عبر الظهور بشكل حضاري بربطة عنق وحقيبة ترولي مع صحيفة توجه لسطورها نظراتك التحليلية من خلال نظاراتك الطبية الوقورة كلما لاحت قامة شرطي قريب. خاصة إذا كانت سترتك زرقاء غامقة مثل ما يرتديه الطيارون أو موظفو خدمة المطار أو مفتشو القطارات فهذا اللون، الأزرق الغامق، هو أكثر الألوان قرباً من سيكولوجيا الضبط البيروقراطي الوظيفي المدني. نوّع أسباب وجوده في المطار، فأول ليلة وقف بباب الاستقبال حاملاً ورقة عليها: آدم ديكينز! من هو ديكينز هذا؟ لا أحد، هو مسافر افتراضي على مالك استقباله وبعده سينتظر مسافراً آخراً يفترض قدومه بطائرة أخرى وهكذا الى أن يحين وقت النوم. وفر له ما تبقى من نقود معدنية كفاف ثلاثة أيام وبعدها عندما احتل الجوع معدته، ثارت جيوش الجرأة في أعماقه. كما في كل مرة، سترته الزرقاء وربطة العنق كانتا وسيلته للتحايل على رقابة العاملين في محل البقالة. لا أحد يشك بهذا الشاب الأنيق، الذي لم يغتسل منذ شهر، مادام برباط عنق! يدخل كمتسوق حاملاً سلة التبضع، يختار صابونة وزجاجة مربى وعلبة حليب كيفما اتفق لكي يوهم كاميرات المراقبة أنه زبون تقليدي ثم يواصل تجواله في الرواق باتجاه الزاوية التي تعرض الخبز، نعم الخبز

الذي لا يريد أكثر منه، يمسك قطعة الخبز الفرنسي الطويلة الشبيهة بهراوة ثقيلة، يضعها في السلة ثم يختار زاوية بعيدة حيث يفرغ حمولة السلة ويقطع ربع قطعة الخبر ويدسها تحت سترته. أعظم تطور في الحضارة الحديثة أنها لم تفكر في وضع كود السعر على بعض أنواع الخبز وهي كل ما لم يعبأ في كيس. لن يكشفه الجهاز حين ينسل من بين الزبائن المنتظرين وكأنه لم يشتر شيئاً.

هذه المرة سيثور! لا يوجد أجرأ من إنسان جائع لا يجد ما يأكله. ارتدى سترته الزرقاء مع ربطة العنق، وتقدم من مبنى السوبرماركت بخطى جائعة أرادها أن تكون واثقة، حيا البائعة التي كانت منشغلة بتشذيب أظافرها وقال بصوت مهذب يوحي بأن صاحبه مهموم بمشاكل الأرض كلها:

– مساء الخير آنستي، لدينا مبادرة لجمع الأغذية الصالحة ليوم أو يومين، بدلاً من رميها كنفايات، نحتاجها لأطعام سكان الشوارع!

ابتسمت البائعة بلطف وربطته بمسؤول المخزن الذي قدم على الفور مرحباً بالفكرة:

– نحن نجمع بعض ما ستنتهي صلاحيته بعد أسبوع ونسلمه الى بنك الأغذية، ولكن وفقاً لإحصاءاتنا، تبقى بعض الأطعمة في المخزن حتى قبل انتهاء صلاحيتها بيومين، أنت محق! مبادرتكم ممتازة متى ترغبون بحمل المواد؟

كان الجوع هو الذي رد وليس هو فقال بفظاظة ومباشرة:

– الآن!

أثار رده دهشة مسؤول المخزن:

– الآن؟ هذا لا يمكن لأننا بحاجة الى يوم على الأقل لفرز المواد!

يوم على الأقل؟ والمعدة الفارغة منذ يوم أمس؟ كيف سيتدبر الأمر، كاد الجوع واليأس أن يتظافرا على فضحه لكن الرجل استدرك على غير توقع:

– إذا كان لديكم طلباً محدوداً لشخصين أو ثلاثة لهذا المساء فيمكن أن نتدبر ذلك بدون الحاجة الى فرز الصالح والذي سوف لن يصلح.

بذل جهداً هائلاً لكيلا يحتفل بهذا الاستدراك الهائل فلا يبدو متلهفاً، أمسك بأعصاب بطنه، فهي الأقرب لكيلا تصرخ، تماسك لكيلا يتهاوى واستدعى كل صبره وحكمته لكيلا تتكلم معدته بدلاً منه فحول رأسه قليلاً الى الخلف، وبدا كمن يحسب بأصابعه ثم قال:

– لو سمحت ظروفكم لدينا ثلاثة أشخاص، أربعة، لا. ثلاثة.. تكفيهم وجبة بسيطة للغاية لا نريدهم أن يندفعوا للتسول!

نظر الرجل بساعته ثم برطم شفتيه وقال:

– بعد ساعة سيكون كل شيء جاهزاً، سأترك الكيس لدى هايدي.

وأشار الى امرأة تقوم بترتيب بعض العلب على رفوفها. إنْ هي الا ساعة واحدة ويأكل من يدَيّ هايدي المباركتين! يا له من حدث، نعم أنها مناسبة كبرى.

الطعام والمنام ودخول الحمام، ثلاث فعاليات يمارسها الناس تلقائياً دون تفكير ودون أن يتوقفوا يوماً عند سؤال، ما الذي يحدث إذا ما منعوا من ممارسة واحدة منها؟ أنه كابوس مرعب لا يعيشه الإنسان الا في حالات خاصة كالحرب والحصار والتشرد هذه الفعاليات الثلاث هي صلب مشاكل المشرد. فهو لا يمتلك، أولاً قدرة تأمين الأكل ولا، ثانياً مكان النوم ومستلزماته ولا، ثالثاً حرية قضاء الحاجة. إذا ما فشل المجتمع بأيجاد حل لهذه المعضلات الثلاث عن طريق اعادة تنظيم نفسه، وتقليل نسبة اللصوص الكبار فيه، البنوك، والشركات الكبرى وتوابعهما، فهناك حل واحد يمكن له أن يعيد لهذه الجموع انسانيتها المسلوبة هو إلغاء الأكل والنوم وقضاء الحاجة من حياة الإنسان. نعم آنذاك ستختفي كل مشاكل المجموعة دفعة واحدة.

إنها فكرة رائعة لقد وجد موضوعاً يرضي رئيس تحرير المجلة التي يكاتبها.

إذن موضوعه سيكون: بانتظار هيدياكي نافاياما.

سيتحدث عن مشرد يحلم بيوم لا يكون فيه الأكل ولا النوم ضروريين. لا شك أن رئيس التحرير سيشعر بالانتعاش حين سيقرأ موضوعه ويتخيل أن

عشرات الآلاف، بل ربما الملايين ستعجب به خاصة وانه سينقل مشاعره عن عالم لا قلب له يتلاعب بالمساكين والفقراء. من السوبر ماركت هب للمكتبة لكي يعبر عن مشاعر معدته التي لم يدخلها الطعام منذ أمس ليكتب:

أتسائل: هل يتوجب على الإنسان أن يأكل ويتوجب عليه أن ينام؟ ويتوجب عليه أن يقضي حاجته؟ أما من اختراع يعوض عن الطعام والنوم ودخول الحمام؟ نعم الإنسان الحالي إنسان معتوه يصنع طعامه بطريقة عجيبة فحتى يستمتع بكيلوغرام واحد من الشوكولاتة يستهلك آلاف الألتار من الماء الصافي، وهذا الإنسان المولع باللحم لا يعرف أن ما يصرف من الماء على كيلو لحم بقر واحد هو ايضاً آلاف الألتار من الماء. هل هناك إسراف أكثر من هذا؟ إذن بدلاً من الطعام سيخترع لنا العبقري الياباني هيدياكي نافاياما محلولاً مركزاً من قليل من الماء وخلاصة النباتات، يحقن في سوار يشد الى المعصم فيذهب الغذاء الصافي المركز للغاية، مباشرة الى الدم وحسب الحاجة. لا حاجة بنا للمعدة ولا الأمعاء غليظها ودقيقها، ولا الى الكليتين وملحقاتهما، فلا داع لوجودهما طالما كانت مهمتهما تصفية الدم فهو الآن صاف ولا حاجة أيضاً للمثانة وملحقاتها. الجهاز البولي التناسلي سيتحرر من مهمة البول ويتفرغ

للتناسل. هذا أكثر منطقية من وجود شيء لممارسة البول والحب في آن واحد، هذا مقرف مثلما أن تكون الشفتان للقبلات والتلطخ بالمرق والبصل والثوم في آن واحد. لابد من مهمة واحدة لا مهام متناقضة لعضو واحد! شيء آخر سيتغير له علاقة بالسلوك الاجتماعي في عالمنا المتخلف، غير التهابات المجاري البولية التي ستنتهي، ايضاً هي لوحات "البول للحمير" لا حاجة لذلك كله. دورات المياه العمومية، والتواليتات في البيوت والمباني كلها سوف تختفي، ومجاري المياه الخفيفة والثقيلة. لا بول مع الحياة ولا حياة مع البول. هذه هي الثورة العلمية التالية بعد الثورة النانوية، طبعاً هذا سيصيب الاقتصاد العالمي بالدوار بعد انتفاء الحاجة للمطاعم، والمطابخ وادواتها من طباخات وثلاجات ومبردات وقدور وصحون، وملحقاتها، ومدارس طبخ، وطباخين. شركات الأدوية العملاقة التي تخلق الأمراض حتى تخترع أدوية لمعالجتها أيضاً سوف تتأثر، ومادامت المعدة بيت الداء فسيهجم هذا البيت. لا حاجة بنا لأدوية الإسهال والقبض وعسر الهضم وقرحات المعدة والأثني عشري. شركات التعليب وصناعة الأغذية ومعاجين الأسنان ومستحضراتها من فرش وطواقم كلها الى زوال، وحتى شركات الطيران ستتأثر بهذه الثورة العلمية فأوزان البشر ستخف بعد ان تزال من أجسادهم كل هذه الأجهزة الثقيلة المخصصة للهضم مما يعني

ثقلاً أقل وسعراً أقل. شيء أسمه المسلخ، أو القصاب، أو الساطور، سيختفي من قاموس التداول، لا حاجة للإنسان لنحر البقرة لكي يستمتع بالكباب، ولا مطاردة الخرفان ولا الدجاج، تلك عادات وطقوس همجية من عهد ما قبل هيدياكي نافاياما، ولكن هناك تداعيات أخرى قد لا تكون مريحة لنا، فمهنة الطب عموماً سوف لن تكون مربحة بعد ذاك، سيكون وجود طبيب الأسنان وكليات طب الأسنان لا معنى له بعد انتفاء الحاجة للأسنان، لكننا سنبدأ بإلغاء مهنة أطباء الباطنية. ربما سيكون التعويض بتوجيه الطلاب لدراسة أكثر التخصصات الحاحاً وهو اختصاص جراحة إزالة الأجهزة؛ الا أن الحاجة له لن تكون إستراتيجية حيث ستتكفل الطبيعة بمرور الزمن بذلك، مثلما تكفلت بإغلاق الزائدة وحولتها الى نفق دودي مسدود زائد ومثلما قللت من شعر الجسد. ولنسأل الآن لماذا ينام الإنسان؟ هل حقاً ليجدد طاقته؟ ولكن إذا كان هذا الإنسان لا يستهلك شيئاً من الطاقة؟ إذا كان عاطلاً ومشرداً هل سيهدر ثلث حياته بعمل غير ضروري مثل النوم؟ ما الحكمة من نوم المشرد العاطل؟ سيكون أعظم اختراع لا شك أن يجد عالم ما عقاراً لمكافحة النوم.. وإذا ما نجح هيدياكي نافاياما أو من يشبهه في اختراع ما يلغي النوم من حياة البشر فسينهار قطاع الفندقة انهياراً مدوياً. أما غرف النوم فستختصر أبعادها وتختص بشيء

غير النوم. حتى اللغة ستجبر على لوي عنقها: التمنيات بالنوم الهادئ والاحلام السعيدة أيضاً لابد لنا من التفكير ببديل آخر عنها، مثلما انتفت الحاجة بعد الغاء الأكل الى أمثال مثل: الطريق الى قلب الرجل يمر من معدته أو أكل الدهر عليه وشرب لأن الاطفال عندها يتساءلون: ماما ما معنى معدة وأكل وشرب؟

وسترد الأم: أووه هذا كان في زمان مضى، زمان ما قبل هيدياكي نافاياما.

انتهى المقال.

قلع مالك الورقة ودسها بجيبه وهو يدرك ان ما كتبه قد يكون بحاجة الى تدقيق واضافة أو حذف لبعض العبارات. وهو سائر باتجاه صندوق البريد راودته خشية في أن يكف رئيس التحرير عن نشر مقالاته لكن رغبته في الاستهزاء من العالم كله كانت لا تقاوم.

توطدت علاقة مالك بالسوبرماركت، ووجد نفسه أمام مهمة نبيلة من كل الوجوه، فمخزن الأغذية يزوده الآن يومياً بما يزيد عن حاجة عشرة أشخاص، كيف تراه سيتصرف بها وهو في حياته الشارعية الطائرة التي لا تعرف المكان المحدد؟ بحث طويلاً الى أن اهتدى بعد جهد الى خيط قاده الى أحد سكان الشوارع من فاقدي السقوف فعرض عليه الكنز: وجبات جاهزة بلا مقابل لعشرة أشخاص!

كان لابد من قدر من الفطنة، سيقدم نفسه كصاحب مبادرة اجتماعية غير رسمية حتى يتجنب إدخال أي طرف آخر بينه والمشردين. طيلة فترة نشاطه كموزع للخيرات، لم يلفت انتباه أحد، قبل كل شيء لأن ثقافة الشارع هي ثقافة بلا اشتراطات، ثقافة مصافحة كل من يمد يده، فكيف إذا تكفل شخص كل يوم بتوفير طعامهم؟ لقد أصبح عملياً ولأول مرة في هذه البلاد من ذوي الملكيات التي تفيض عن حاجتهم، هو الآن رأسمالي إذا كان تعريف الرأسمالي من يملك رأسمالاً يفيض عن حاجته! ولكن رأسماله هذا غير قابل للتداول! كل صباح يسلّمه المخزن المعلبات والخبز والخضراوات، له شخصياً دون غيره، كان يستلمها في عربة تبضع كبيرة يدفعها بنفسه مسافة مئتي متر الى حيث اللقاء اليومي مع ممثلي المتشردين من سكان الشارع. لم تغادره فطنته فكان، في بعض الأيام، يعيد علباً من اللحم أو الجبنة الصالحة متعمداً كي لا يدع مجالاً للشك بهدف مبادرته:

– هذه عشر علب سردين وخمس ألواح جبن زائدة يمكن أن تذهب الى بنك الغذاء!

بلغ شأن مالك في هذه المرحلة ذروته، للمرة الأولى وبزمن قصير احتل مكانة لا تضاهيها مكانة وصلها في هذه البلاد من قبل، والحديث هنا عن مكانته بين جماعة فاقدي المأوى. كانوا يسمونه "الشيف"، دون أن يعلموا أن شيفهم هذا الذين ظنوه أحد الموسرين، وقبل أن يوزع عليهم الوجبات، كان قد أخذ حصته منها، مثلهم تماماً، وأنه بعد أن يودعهم سيمضي الى

شارع آخر بعيد ليمضي بقية الليل في أحضانه، وهنا يهوي الى القاع من جديد. يأخذ الليل كل مكاسب النهار ويعيده مشرداً مطارداً يخاف الاشباح فالمنام الهادئ في ليل أمستردام البارد المندى بثرثارات السكارى وصليل الرياح القادمة من سطوح القنوات مطلب عسير التحقق. أمستردام محاصرة بالمياه والصخب والنظرات المتشككة. شرطة العاصمة ليست كشرطة مدن الجنوب فهي لا تنام، مثله تماماً، شرطة مشردة في الشوارع! ورغم أن المعجزات في حياة مالك كانت نادرة الحدوث لكن واحدة منها جاءت على غير انتظار! معجزة إلهية صغيرة تفجرت فجأة بمصادفة عندما تيقظت قوى الشفقة والرحمة والرأفة والرفق، أو ما يشبهها مما تعج به كتب الوعظ الديني، بأعماق الشخص الوحيد الذي يعرفه في هذه البلاد، وهو ذات الشخص الذي وعده قبل سنتين بالاتصال به ولم يتصل. رآه صدفة بعد عودته من المطار الى العاصمة ولم يتمكن من تفاديه فكان لابد لشخص مفاجأ من جملة مفبركة بسرعة:

– أهلاً، كم بحثت عنك؟ هل تقيم في أمستردام؟ كيف هي أمورك؟ ما شاء الله صحتك ممتازة!

كان قد غادر الباكيت الكارتوني قبل ثلاث ساعات الا أنه قال:

– كل شيء مستقر. أقيم لدى صديق.

– أكيد منحوك الاقامة..

– كلا من هذه الناحية لم يتطور شيء..

– آه الكلاب، ولو أن الإقامة لا تحل مشكلة في هذه البلاد، نبقى غرباء ما دمنا بعيدين عن بلادنا، أنا لدي جنسية البلاد لكني طائر منذ أكثر من عام. كل يوم بمكان، تعرف متطلبات الحياة، أصبحت مثل ابن بطوطة كل شهر ببلد.

بعض الكذب، لا هو بالمكشوف تماماً ولا هو بالمستور تماماً وهو نمط التعامل الشائع في بلدان الشرق حيث تعني اللا في أحيان كثيرة النعم وبالعكس، فباطن ما قال مالك مثل باطن ما قال صاحبه لا علاقة له بالظاهر. كذب مستتر تقديره ليفهم. أنا أقول ما أقول وليفهم هو ما يفهم، المهم أنني قلت ما يتوجب قوله أي ما توجبه الأعراف! في حالتنا هذه، كما في كل حالة، فهم الأثنان بعضهما. لا هو مقتنع بان حالته تهم صاحبه أو أن صاحبه قد بحث عنه، ولا صاحبه مقتنع بان حالة الآخر مستقرة. مالك يدرك تماماً أن مجال المناورة كان معدوماً أمام صاحبه فالشارع خال من غيرهما والوقت الباكر يكاد يحتم على من يتقابلان في طريق خال، خاصة في هذه البلاد، أن يحييا بعضهما. لو كان بمقدور صاحبه الفرار لفعل! لكنه لم يتمكن من تفاديه فحياه أول الأمر كمن لا يعرفه ثم هجم عليه محيياً وفق الطريقة التقليدية المثقلة بقبلات النفاق الاجتماعي.

– اسمع، أعرف أحداً يدير كراج سيارات هناك في الجنوب، هو ليس صاحب الكراج لكنه ينوب عنه. إن أردت تستطيع العمل والمنام هناك لفترة شهرين وربما أكثر. أنا الآن لدي موعد سنتفق على يوم غد.

واتفقا على اللقاء في اليوم التالي. أراد مالك ألا تفلت منه علامة تشير الى حاجته العاضّة للمكان وبحثه اليائس عما يعوض أجور الكتابة في المجلة التي تأخرت فلم يستفسر عن ظروف العمل باستثناء سؤال عن موقع الكراج ولما عرف مكانه رد:

– نعم هذا أكثر ملائمة فهو قريب من المكتبة!

عن أي شيء يسأل؟ فمادام النوم في مكان العمل فهذا يعني ألا أجر غير طعام اليوم. ربما كانت هذه الوساطة احتياطا ذكياً من هذا الشخص لكي يضمن ألا يفرض صاحبه نفسه عليه في ليلة قاسية البرد فيتساهل معه بضيافة لا يسمح له ضميره ألا يتساهل بها. لكنها في حسابات زمانه، ومكانه، وظروفه، لم تكن وساطة، بل معجزة. عرّف المجموعة بقرب انتهاء مهمته وطلب منهم انتخاب من يخلفه في العلاقة مع السوبرماركت، لكن المشردين لم يتركوه يمضي دون حفلة وداع. حاول التملص بكذبة جديدة رأى أن لا مفر منها: أنا سأزوركم عندما أعود، أنتظر الطيران لأستراليا! وعاد الى الجنوب للبدء بالعمل في الكراج!

# 5

في اليوم المحدد، استقبلهما نائب صاحب العمل، الذي عرّف نفسه باسم العائلة ما زاروني، بمزاج بارد وجمل ذات أطراف ميتة، مبتورة مثل:

"هل تعلمت في المدرسة الصنع" أو " لديك يد علمية في..." أو " تفهم كثيراً بهذه السيارات والاستخدامات.."..

وكانت يداه تحاولان اكمال الجمل بإشارات تصعد وتهبط. سبق أن عرف عادة الهولنديين التنازل بسرعة عن حقهم بالمناداة بألقابهم أو اسم العائلة فيعرضون كبادرة نزول من المستوى الرسمي الى المستوى الشخصي الصداقي بود:

نادني يان فقط!

لكن هذا البغل ما زاروني لم يكن هولندياً على ما يبدو. لم يشأ أن يتنازل عن ذلك. قدم نفسه ما زاروني وبقي هكذا مازارونياً الى الأبد! هذه كارثة صغيرة، فأنت عندما تخاطب شخصاً ما في أوربا باسمه العائلي، لا يمكنك الا إضافة كلمة السيد قبلها، مثلما لا تخاطب الرئيس الا بكلمتي "السيد الرئيس". سيجبر إذن على مناداة ما زاروني هذا كل مرة: "السيد ما زاروني". هذا عذاب آخر!

سخر من رب عمله الجديد: ما زاروني! ومن سيزورك وأنت على هذه الحال؟ لا زارتك العافية!

كانت مهمته الجديدة تبديل الإطارات أثناء اجراءات الفحص السنوي للسيارات وإضافة الزيوت، وماء غسل الواجهات الزجاجية، وتغيير البطاريات، إضافة الى كنس أرضية السيارات بعد أعمال الصيانة. بيئة آمنة لا أعداء فيها غير موظفي التفتيش الباحثين عن ظروف العاملين وشرعية عقودهم، ولكن كيف سيعرف ان هذا السيد الذي ولج الباب الآن ليس موظفاً من مفتشي العمل؟

– عليك ألا تكثر من الحركة، اعمل قرب المكان أو الزاوية التي ستنام فيها بعد الانتهاء..

كانت هذه هي الوصية الذهبية وعليه التمسك بتنفيذها، أي أن يعيش يومه كاملاً ضمن عشرين متر مربع! غير النوم بمكان آمن، لم تأته حياة الكراج بجديد، سوى أنه ضم ما زاروني لقائمة أسوء من قابلهم في هذه البلاد وهي القائمة التي ضمت للآن، يوسف، أمين، سانتيفورت، صلاح، وسائق الحافلة باتجاه سد البقر.

لم يوفر له عمله الجديد سوى الكفاف بحده الأدنى ولا يترك لصاحبه من الوقت ما يكفي حتى للبحث عن عمل آخر فكيف سيوفق في إكمال معدات الهروب من البلاد؟ ورطة تلد أخرى وحل يأتيه بمشكلة. وضعَ آخر

اللمسات على سيارة رولز رويس فاخرة بأرائكها الجلدية ومعداتها الفخمة ورائحة امرأة أنيقة تنبعث من كل زاوية فيها، والأفكار تتلاطم في رأسه. أي عالم تعيش به هذه السيدة صاحبة هذه السيارة الغالية؟ وماصلتها بعالمه كي يلتقيا في فضاء هذه السيارة؟ يفحصها وينظفها لكي تكون مريحة لها مقابل بقاءه حياً لا أكثر، ما أقسى هذا العالم! كان من المنتظر أن تحضر صاحبة السيارة في أية لحظة قبل غلق الكراج فيسلمها مفاتيحها. مد خرطوم المكنسة الكهربائية على عجل أسفل المقاعد منتهياً بمقعد السائق، هنا استقرت عجيزة صاحبة السيارة ياله من مكان مقدس! فجأة أطلق الخرطوم صفيراً بما يعني أن شيئاً قد أغلق مجرى الهواء. سحبه فلم يجد شيئاً، أعاد دسه تحت الكرسي فصفر ثانية حينها مد يده فلامست أصابعه كتلة ثقيلة. كانت محفظة جلدية منتفخة مليئة التقطها ناوياً تسليمها حتى قبل أن يعرف ما بها لإدارة الكراج وشعور بالرضا يجتاحه، فمن المؤكد أن ذلك سيسهم بإبقائه عاملاً في الكراج لفترة أطول. قبل أن يكمل سحب جذعه من باطن السيارة لمح من خلال الزجاج الأمامي امرأة تتجه مسرعة ناحيته. لابد أنها صاحبة السيارة هذه المسنّة الثرية. اقتربت منه مرسلة النظرة المستهجنة التي تعودها من فصيلة من البشر لا يترجى منها خيراً. كانت سيدة يصعب تقدير عمرها وشتْ ملامحها بجمال غارب قديم وبريق تعرض لصدئ السنين. لوح لها مبتسماً بالمحفظة الممتلئة آملاً بتحسين فكرتها عنه ولو شكلياً فتبتسم بدلاً من حركة إرجاع الرأس للوراء التي قابلته بها وكأنها تفاجأت بوجود كلب ضخم قد تسلل لسيارتها. بعد

ذلك، جرى كل شيء كما لم يتوقع! رفعت المرأة المسنّة كفها لتغلق فمها وهي علامة الدهشة التي خبرها خلال هذه السنوات في البلاد، حين تفاجأ امرأة بمنظر أو خبر مثير ترفع يدها لتسد فتحة فمها. يحدث هذا مع النساء فقط، ربما لكي يمنعن أنفسهن من استخدام الفم تلقائياً للصراخ. صاحت به:

– يا إلهي! أكثر من شهر وأنا أبحث عنها حتى يأست! أين وجدتها؟ هل فتحتها؟ هل تعلم ما بها؟

– مفراو، ليس من شأني أن أعلم ما بها، أتت بها المكنسة من تحت كرسي القيادة ومهمتي أن أعيدها لصاحبها!

وضعت المرأة المحفظة الجلدية المنتفخة بحقيبته السيارة واستلت من جيبها ورقة من فئة المئة ايرو ودستها بجيبه لكنه سارع الى إعادة الورقة اليها وهو يقول:

–لا، لا، مفراو لا داع لذلك، دعيني أنعم بمتعة ادخال البهجة الى قلبك، هذا يكفي، يبدو أنها محفظة مهمة وأنا سعيد حقاً بكوني من عثر عليها فلا تفسدي عليَ متعتي!

حدقت العجوز طويلاً بوجهه، ومسحت قوامه بنظرة عميقة شاملة أربكته قليلاً بعد أن ترائي له أن ملامح وجهها، أو على الأقل شفتاها قد اختلجتا. رفّت عيناه رغم أنه تعلم منذ أيامه الأولى في هذه البلاد، منذ التحقيق

الأول معه، قاعدة حياتية مهمة: أن يصمد أمام هجوم العيون المحدقة به مهما كانت الوانها وقوة إشعاعها، بل وحتى عدوانيتها. لا تنكس بصرك أمام من ينظر بعينيك، بل أنظر بعينيه، لأنك حين تحول نظرتك عنه تكون بنظره مذنباً، أو ضعيفاً، أو مخفياً لسر ما، أو مهزوماً!

وهل يوجد لديه غير الأسرار؟ ليست وقاحة أن ترد النظرة بالنظرة، وتتكلم وأنت محدق بعيون مقابلك! هذه كانت واحدة من خمس قواعد ومهارات تعلمها مالك في هذه البلاد: أولها: "الغضب يساوي الجنون، ثانيها: لا تحرك يدك حين تتكلم سيظنونك عدوانياً، ثالثها: لا تتكلم بفم مليء فتعلك كالبعير حين تأكل، رابعها: اللطف وادعاء الابتسام لكل شيء والبراعة في تأليف الأكاذيب، وإطراء أي ملبوس جديد تراه على امرأة، خامسها: وأهمها النظر المباشر بالعيون عند المصافحة أو الحديث مع آخر!

ورغم أن تحديقه بعيون المحقق على مدى ساعتين وصدقه في كل ما حكاه لم يفده بشيء فرُفض طلبه مرتين، الا أنه تدرب على هذه الآلية الجهنمية وهو الآن مُجبَر على الغوص في ثنايا وجه العجوز محاولاً أن يرد نظرات عينيها الزرقاوين. لبرهة، ضعف نظره قليلاً أمام تحديقتها الشرسة، وتاه في تضاريس وجهها الجميل العتيق المتغضن الذي اخترقت دفاعاته السنون فلم تفلح المساحيق ولا المراهم في ردم تغضناته. ترى كم عقدٍ من السنين مر على هذا الأديم؟ سبعة أم أكثر؟ ثم فكر بخباثة الشرقيين، كم يد لكم رجل مسحت على هذا الوجه؟ تعجبه السخرية من

الأثرياء المتعالين. أنهت العجوز المشهد الذي كان يشبه الى حد ما تحديق الديوك ببعضها قبل جولة عراك بقولها:

– مستحيل، إذن سأعطيك رقم تلفوني وأرجوك الاتصال بي قبل يوم الخامس من الشهر، لا أريد لهذه الواقعة أن تقابل بهذا التجاهل!

انتبه فجأة الى أن ذلك اليوم يصادف عيد ميلاده. العمر يمضي دون معنى محدد ولا الى وجهة محددة، قبل عام فكر: تصور أن تبقى سجيناً لفترة اربعين سنة في سجن بعد أن دخلته بسن العشرين ترى كيف تحسب تجربتك الحياتية؟ نقول عنها انها خبرة رجل ابن ستين سنة؟ وأية خبرة اكتسبها من أربعين سنة بين القضبان؟ ستكون آنذاك في الحقيقة مراهقاً في الستين. زاد عمره بضع سنين لكن تجربته الحياتية قد تناقصت. كل نشاطه الآن متجه الى البقاء وحماية نفسه مثلما كان جده النياندرتال يفعل. فرق المهارة في الدرجة وليس في النوع. النياندرتال كان يخاف الوحوش وهو يخاف الوحوش والشرطة والناس الغرباء، أي كل الناس في هذه الحالة. كلاهما، هو وجده منهمك بتدبير قوت اليوم فقط، لكنه أحياناً يجد نفسه مجبراً على الإقرار بتميّز حياته التي لا تتاح لأي أحد! نعم، فلو كان موسراً مثلاً كيف سيمكنه تجريب هذا النمط الفريد من الحياة الأقرب الى نمط معيشة الجد الأعلى النياندرتال؟ لقد كسب خبرة في التعايش مع ظروف لم يكن يتصور نفسه قادراً على تحملها، حافة المجاعة، وحافة الموت، وحافة السكتة القلبية، وحافة قمة القهر، وحافة الوحدة المطلقة،

وحافة فقدان الثقة بكل شيء. هي خبرة باختصاص نادر اسمه حياة الحواف. أراد أن يقول للمرأة العجوز: ذلك اليوم يصادف عيد ميلادي ثم صمت فأية تفاهة أن يعلن عن ميلاد مشرّد لا يهم أحداً؟ مرت أيام لكنه بقي متردداً في الاتصال بها فهو شخص يقيم خارج إطار الشرعية منذ سنين هل سيكشف لها نفسه؟ لا بد من ذلك لأن أول أسئلتها ستكون: من أي بلاد أنت؟ ولمَ جئت الى هنا للعمل في هذا الكراج؟ هذا بديهي ولن يتمكن من تمرير الكذب عليها، ولكن هل ستتقبل وضعه الخارج عن القانون؟ ومن تراها تكون؟ وأي شيء ينتظر منها؟ ربما ستُعيد عرضها بمكافأته فهل تستحق هذه المكافأة المجازفة؟ كلا، أخيراً قرر نسيان الموضوع برمته، يكفيه أن جميع العاملين قد سمعوا القصة منها مما سيسبب قلقاً مؤقتاً لضمير صاحب الكراج فيمدد فترة بقاءه شهراً آخراً.

بعد أسبوع على الحادث ناداه ما زاروني بصوت خفيض مندهش:

– مفراو فان دايك تطلبك على التلفون!

– مفراو فان دايك؟ من هي؟

–لا تعرفها؟ السيدة صاحبة المحفظة التي استلمت سيارتها منك قبل أسبوع، ربحت ورقتك!

لم يفهم بالضبط تلميح ما زاروني عن ورقته الرابحة لكنه قرأ في ملامحه شعوراً بالغيرة والحسد والفضول، ولكن على أي شيء؟ ولدهشته لم تقدم السيدة فان دايك نفسها باسمها العائلي، بل ماركيتا!

لامته:

– الم نتفق على أن تتصل بي؟

نعم هو لم يف بوعده الاتصال بها وكان لابد له من اعداد كذبة على عجل:

– آسف لقد ضاع مني الرقم!

وصله صوت ماركيتا مقرّعاً:

– لو أنك سألت في الكراج لعثرت على كل المعلومات التي تخصني.

لم يبدُ أنها قد اقتنعت بالسبب الذي أورده إذ طلبت منه الاستعداد في نهاية الأسبوع فهي تدعوه للعشاء في بيتها! حاول ألا يتفوه بشيء سوى نعم وشكراً وسأحاول. كان ما زاروني الذي بقي طيلة فترة المكالمة يحدق بوجهه، متلهفاً لتقصي سر الاتصال لكنه أخمد تلهفه بسرعة حين قال:

– هي تسأل إذا ما كنت أعتقد أن المكنسة قد شفطت بعض الوصولات من المحفظة وطلبت التأكد من ذلك فوعدتها بمعاينة محتوى كيس التنظيف فهو ما زال في الماكنة!

يا ربي كم نمت ملكته على تأليف الأكاذيب خلال هذه السنين؟ ها هو قد خلق كذبتين خلال دقيقة ونصف! كم اكتسب من مهارات جديدة في ربط الأكاذيب ببعضها لتكوين سلسلة متصلة؟

نكس ما زاروني رأسه علامة خيبة أمل بسماع أخبار مثيرة.

عندما حل يوم اللقاء، لم يبارحه شعور بارتباك دبق بقي يضايقه مصدره حيرته بالذي سيقوله أثناء العشاء الهولندي الذي لا يعني غالباً سوى صرف كم من الكلمات والجمل والقهقهات يفوق بإضعاف مضاعفة كمية ما سيأكل.

هل ستقتصر الدعوة عليه؟ هل تعيش بمفردها؟ هو يعرف الآن الإتكيت الأوربي. اختار باقة من ورد القرنفل رغم علمه أن الناس هنا قد يفضلون نوعاً على آخر، بل أن الموتى، أي أقارب الموتى يشترطون: أيها المعزي الكريم لاتجلب ورود الداليا فالمرحوم لم يكن يحبه! هو لن يسأل. يكفيها القرنفل! ارتدى البنطلون الوحيد النظيف الذي يملكه والسترة الزرقاء السبور، وخطى باتجاه مكان اللقاء. كان مكان موعدهما في محطة الوقود لا يبعد كثيراً عن مكان عمله في الكراج، ومع ذلك تأخر بضع دقائق

بسبب بحثه عن محل زهور. ما أن وصل المحطة حتى لمح سيارة أودي حمراء فارهة عارية مكشوفة الظهر تبعث بإشارة ضوئية كداعرة تغمز بحاجبيها. لم يصدق أن تكون تلك هي سيارة ماركيتا الثانية، لم تتبدل السيارة وحدها، بل ماركيتا ذاتها بدت له واحدة أخرى، أما ما الذي تغير بها فهو كل شيء تقريباً. كانت ممعنة بإسراف في تجديد ملامحها، وشعرها، ومظهرها كله حتى أنه خشي من أن تكون قد دعته لحفل لم يكن مستعداً له. بعد نصف ساعة، وجد نفسه في بيتها. هناك ظهرت أمامه امرأة أخرى أكثر أناقة وأكثر تواضعاً وجاذبية. بسيطة لا يدل على ثرائها سوى سيارتيها الفاخرتين، أما بيتها القديم العريق فلم يترك في نفسه أثراً سوى كبر مساحته. من قبل، سمع أن الهولنديين لا يحبون الكشف عن ثرائهم بالفلل الأنيقة فعقيدتهم الكلفانية تنصح بتجنب المبهر والبارق، ولكن مقاومتهم تنهار أمام السيارات، هي أبقارهم المقدسة! السيارة التي غالباً ما تكون إجازة قيادتها أثمن هدية عند بلوغ الثامنة عشر من العمر. يتذكر كيف أثارت دهشته في أيامه الأولى بطاقة عرضت في واجهة مكتبة ضمن بطاقات التهنئة: نهنئكم بحصولكم على إجازة سياقة السيارة! ضحك وقتها من هذه التهنئة الغريبة فأي إنجاز هو أن يحوز المرء على إجازة قيادة سيارة؟ كان البيت فارغاً الا منهما وكلبتها التي استقبلته بعداء وانطلقت ماركيتا بالحديث معه كما لو كانت تعرفه منذ سنين، ولم يتحرج هو في الحديث عن بعض الكتب النادرة التي كانت في مكتبتها وأبدت ماركيتا

اهتمامها بشخصه ودهشتها من معارفه حين سألته وعيناها الزرقاوان تحدقان بعينيه:

–لا تدَّع أنك اخترت برغبتك الخاصة تنظيف سيارة ماركيتا مهنة لك. شاب وسيم مثقف، يتكلم الإنكليزية وقارئ لآدابها ويشتغل في تنظيف السيارات؟ ثمة شيء تخفيه عني، حسناً ما رأيك أن نتفق من الآن ألا تخفي عني شيئاً وانا بدوري لن أخف عنك أي شيء؟

حكت له الكثير عن زواجها من فرنسي وطلاقها، ثم زواجها من هولندي وطلاقها ثانية ثم علاقتها بتاجر أخشاب انتحر. ولم يعرف أكثر غير هذه المحطات الشخصية. ولكنه فهم من حديثها وطريقة عرضها لعلاقاتها أن العجوز تلقائية، مزواج، محبة للحياة ومثقفة وربما تكون سريعة التقلب. لا يدري للآن لماذا وجد نفسه يحكي للسيدة الأنيقة الأخاديد كل شيء. لم يكن مجبراً، فهي لم تطلب منه كشف كل شيء باستثناء شكها بعمله الذي لا يناسبه، لكن هاجساً في أعماقه كان يدفعه لأن يحكي كل شيء بصدق مثلما حكى أثناء التحقيق. لتعرف ماركيتا إذن انه ليس بالمتسول، ولا باللص، ولو أنه وجد في سيارتها كنزاً سيسلمه أياها مثلما فعل مع المحفظة. قال لها أنه لم يرتكب خطأ. هو أتى للبلاد وسلم نفسه بالطريقة القانونية وحكى وضعيته للمحقق بصدق، مثلما يحكي لها الآن بصدق، لكن المحقق رفض قصته لمرتين وطعن بها فتاه في الشوارع..

تأثرت ماركيتا بقصة مالك ابلغ تأثر، مسحت على رأسه متعاطفة مرتين فتذكر لمسات جدته، ولعنت القوانين البليدة التي لا روح لها فأيدها متحمساً:

– نعم القانون لا روح له هو ماكينة فقط! تصوري تجار تهريب، ولصوص، ونصابون، لفقوا حكايات مضحكة حصلوا بموجبها اللجوء كسياسيين فيما رفضت المحاكم طلبات مطاردين معروفين. تصوري ماركيتا قدم عاري برغوث معي وهو الآن ينتظر حصوله على الجنسية. قصته لا أساس لها، بمجرد حصوله على الإقامة وتعلمه أساسات اللغة وجد البسط الحمر تمتد تحت قدميه والسر هو اسمه!

– اسمه؟

– نعم، اسمه "عاري برغوث" وكان هذا الاسم هناك في المدرسة سبباً في تعرضه للسخرية، تحول في الهولندية الى (Arie Berghout) وهو اسم هولندي، عندما قدم عاري على أول عمل، لم يشك المسؤول عن الطلبات بأصله فاستدعاه وتلك كما تعرفين هي أهم مرحلة في مراحل الحصول على العمل. العمل الذي حرره من عقدة الاعتماد على شبكة الحماية الاجتماعية.

– هل هذا هو مجتمعنا؟ غير معقول! هذا جنون وعار!

وانتهت السهرة بمفاجأة غير متوقعة حين ربتت كفها المرتعشة على كتفه وهمست قائلة وضوع عطرها النفاذ يجتاح خياشيمه:

– اسمع، يمكنك المعيشة في هذا البيت الكبير بسرور، أنا أعيش بمفردي مع الكلبة بايكا، غالباً ما أشعر بالوحدة حتى معها، هل تخاف الكلاب؟

قهقه مرتبكاً وعقله غير مستوعب لعرضها السخي المفاجئ:

– ينبغي للكلبة أن تخاف مني فهي مواطن على أية حال وأنا مشرد!

مثل من لم تسمعه، أردفت:

– لدي مزرعة سأجد لك عملاً بها! لا تشعر بالحرج من شيء. أنا أشتري كيس الخبر ولا أكمل ربعه فألقي بنصفه للحمائم والنوارس. تعال معي.

وقادته الى نهاية المطبخ، فتحت الثلاجة وتناولت كيسين من اللحم المقدد وقالباً من الجبن وحافظة بيض من الكارتون، قالت:

– ستنته صلاحية كل هذا بعد يوم هل تتوقع أنني سألتهم كل هذا اللحم والجبن والبيض خلال يوم؟ من الصعب جداً أن يحيا المرء بمفرده، هل ستشتري من السوق بيضة واحدة؟ أو شريحة لحم واحدة؟ أنا أشتري عشر وأنساها الى أن تفسد.

رد بتلقائية ضاحكاً:

– أرى يومياً العجائز يشترين موزة واحدة، أو برتقالة واحدة!

هنا حدث طارئ غير متوقع، فجأة تجهمت سحنة ماركيتا وأربدت. تغطت أسنانها بشفاه مبرطمة كما لو أنها ندمت على شيء أو تذكرت فجأة أمراً مكدراً. قال لنفسه ربما كان مزاجها متقلباً فلا ينبغي له المضي قدماً في طرائفه من اليوم الأول. لم يدرك سبب تجهمها الا فيما بعد، بعد شهور. تلاعبت مشاعر مختلطة برأسه، ابتهاج مفاجئ بعرض ماركيتا غير المتوقع الذي سيضع، ولو لفترة، حداً لتشرده وخوفه، مع إحساس راوده بالوضاعة فهو كلب آخر ربما سيبدد وحشتها كما قالت:

" مع الكلبة أشعر أيضاً بالوحشة "!

بما يعني أنها تريد ان تعيش مع كلبين. هو وبايكا!

مع كل ذلك، بقي خاطر نومه في بيت وليس كراج ولا باكيت، بيت لا يدخله المفتشون، ولا تلاحقه الشرطة، بيت بمكتبة وبيانو، قد غلّب عنصر البهجة على غيرها. هو سينام في بيت امرأة ثرية! وقعت ماركيتا أسيرة أمانته على ما يبدو ولربما كان لديها ما يستوجب أن يكون أميناً عليه، المزرعة مثلاً! سقطت نظريته عن الخنساوات اللواتي يتوسم بهن غلاظة وتبين سخفها. هي عجوز رائعة رغم الارتفاع بأرنبة أنفها! عاد الى الكراج بمزاج مختلف. كان ما زاروني قد غادر ولم يبق الا رون عامل التنظيف اللطيف الذي غمزه بعينه:

-لابد أنها كانت جلسة ممتعة!

ابتسم ولم يرد عليه بشيء. استغرب كيف عرف رون بموعده، أم تراه كان حدساً؟ لن يخفى سر في هذه البلادّ. كان يود أن يرتب حوائجه في حقيبته ويرحل حالاً عائداً الى بيت ماركيتا، لكنه رأى في ذلك كشفاً لمكانه الجديد. سيحدسون أنه انتقل الى بيتها، لابد إذن من البقاء الى الزمن الذي يعلن فيه ما زاروني استغناءه عن خدماته وهو زمن ليس بالطويل على أية حال.

عندما حان موعد تسريحه، لاحظ أن ما زاروني كان حانقاً بلا سبب واضح وكعادته في مثل هذه الأحوال لم يشأ توديع أي أحد باستثناء رون فترك للجميع رسالة شكر وملأ حقيبته بالخرق البالية التي يسميها جزافاً ملابساً، ونظف مكان نومه ثم تسلل من الكراج بهدوء مثل قط لا يريد لغيره أن يعرف المكان الذي يقصده.

بقي ليلته الأولى يواسي الفراش النظيف الوثير الذي أفرد له ويعتذر له بعد أن صعب عليه مصارحة ماركيتا حاجته للاستحمام ومضت حياته بعدها كأمير شرقي مدلل، حياة مترفة مقارنة بحياة التشرد. بعد شعوره بنوع من الاستقرار القلق فكر بتسريب خبر معيشته ببيتها الى أهله كبديل عن خبر الحصول على الإقامة. هو الآن مقيم ببيت وليس بمركز لاجئين، ولا كراج، ولا شارع، بيت امرأة موسرة تغرقه بتدليلها هو وكلبتها، لكن، ما هي صفته في هذا البيت؟ كيف سيعرّف نفسه أمام أهله؟ بأية صفة يعيش شاب غريب في بيت امرأة مسنّة موسرة؟ كلا، هذا معيب.

أيام قلائل ونسي بسرعة برد العلب الكارتونية، وحياة التشرد، والزوغان المتواصل عن أعين الغرباء والشرطة، يا للإنسان من نسّاء! لقد حلت الإشكالات الثلاث الرئيسة فهو يأكل ثم ينام ويشعر بطعم اللحظات الملوكية عند الجلوس في دورة المياه أو حين يستحم مترنماً بأغنية ما أو يسترخي على مقعده الهزّاز ويأكل شرائح البطاطا وهو يتابع مسلسلاً تلفزيونياً ويترقب عودتها ليتحدثا. عاد بشراً سوياً كما غيره، لكن سؤالاً شائكاً بدأ بالنمو وسط هذه الغابة من النعومة: الى أين تتجه به هذه الحياة المخملية، وهل هو جدير بها؟ لم يمض وقت طويل حتى أدرك أنها لم تكن جادة في عرضها الذي تقدمت به أول ليلة عن العمل في المزرعة، بل ربما لم تكن هناك مزرعة أصلاً. هي أرادت أن تدفع الحرج عنه لا أكثر. أمر آخر لم يستسغه أنها كانت تحرص على ألا يراهما أحد سوية فهي تتنزه بمفردها مع الكلبة بايكا، وتتسوق كل سبت برفقتها، وتستقبل ضيوفها بعد أن تبلغه بلطف بضرورة البقاء في غرفته مما عمّق في نفسه الإحساس بكونه شيئاً سرياً خطراً. ورغم أنه أوجد لها عذراً فهي لا تريد أن يعرف أحد بوجوده لأنه وجود غير شرعي، لكن هذا بالذات ما كان يشعره بقرب حالته من حالة سجين. نعم سجين، ولكن في سجن أوربي! وربما يمكن القول إن سبب ضيقه هو إحساسه أنه يحيا حياة لا يمتلك فيها القرار، فما الذي يجبر هذه السيدة على إيوائه؟ والى متى؟ كانت آماله تحوم حول فكرة أن تجد له ماركيتا عملاً أبعد من المعيشة المجانية، يوفر

منه ما يمكنه من الهروب الى كندا، لكن مضيفته فاجأته ذات يوم أنها منهمكة بالبحث عن محام لكي يستأنف قضيته مع وزارة الهجرة:

– ولكني مطرود نهائياً منذ سنتين كما أخبرتك!

– أعلم أنك مطرود بشكل نهائي! وأعلم صعوبة الأمر كما أخبرتك من قبل، لكني سأحاول توظيف عوامل أخرى!

عاد له بعض الأمل بعد رؤيته، بالصدفة المحض لا غير، أحد الوزراء المعروفين ممن كانت صورهم تتكرر في التلفزيون ضيفاً في بيت ماركيتا. على الأقل هو يعيش الآن انتظاراً ما، انتظار أن تفلح ماركيتا في توظيف "عواملها الأخرى" التي لا يعرفها وربما كان هذا الوزير أحدها! بعد شهر، لم يوفق في معرفة الكثير عن طبيعة مضيفته، لم يعرف مصدر اطلاعها العميق على معظم الأدب العالمي، فهي متعمقة بالأدب الانكليزي والفرنسي كمختص وليس كمتابع، حدثته عن بلزاك وفلوبير وبروست بما لم يكن يعرفه عنهم، وبقي لا يعرف شيئاً عن موقعها الاجتماعي الذي يأتي لها بضيوفها من الناس المهمين الذين كانت سياراتهم الفارهة لا تكاد تفارق مرآبها الواسع. من هي هذه الماركيتا؟ وأي شيء دعاها لتبني قصته الشائكة؟ والى أي مدى يمكنه الوثوق بها؟ هي من جانبها أزالت كل العوائق والحواجز الاجتماعية أثناء تعاملها معه وكانت تتلاطف معه بما كان

يسميه جنون العجائز. تسحبه من كمه وتلقي به على الأرض مقهقهة لكي تبرهن له على قوتها أو أن تضع كفيها حول عنقه وهي تضحك:

– إذا خنقتك الساعة فمن يعلم؟

العجوز النزقة تعامله أحياناً كطفل صغير. تحتضنه وتعصره بين يديها وكان في تلك اللحظات يخاف النظر بعينيها اللتين تلاحقان عينيه فهو يريد إنهاء اللعبة الصبيانية بأسرع وقت. مرة واحدة نظر بعينيها فهالته ملامح وجهها المنتفضة مثل من مسته نوبة صرع، فسارع بالتملص من بين يديها. وفي أحيان كثيرة كان حرجه يدفعه للاستسلام لها مثل طفل، كوسيلة وحيدة لأنهاء اللعبة لأن مقاومته كانت تغريها بالتمادي أكثر. كان مبعث حرجه أنه ببساطه لم يتعود هذه الحركات من امرأة في طفولته لا من أمه ولا من جدته، فبعد أن تجاوز الرابعة من عمره، كان لابد لجسد المرأة أن يبقى بعيداً عنه. ما كان يثير ضيقه من مشاغبات ماركيتا هو ضوع العطر الفاخر التي كانت تسكب منه لا شك قارورة كاملة يومياً على جسدها، العطر النفاذ من الصنف الغرائزي الذي سبق واستنشق مثله في مكان وزمان هاربين من أيام مراهقته. لم يتمكن من منع تفكيره الشرقي الشكّاك عن التساؤل: لماذا، ولمن تتعطر صاحبة البيت الهرمة الوحيدة بهذا العطر الجذّاب؟ وحدها الكلبة بايكا هي من يدخل غرفة نومها ويغادرها بلا إذن!

وحيدةٌ، غنيةٌ معطّرة

مخدعُها العتيقُ لا تراه

الا كلبةٌ بلقاء

يا لها من مسخرة!

هل هو تعبير عن رغبة مكبوتة في رؤية مخدع امرأة غنية أم انتقام من مخدع طالما حرم منه خلال حياة التشرد؟ في تلك الليلة سأل ماركيتا عن مرادفات مفردة مخدع في اللغة الهولندية. استغربت سؤاله فوضح لها مندهشاً بانه اكتشف للتو علاقة بين مكان النوم والخدعة في اللغة العربية فقهقهت بصوت صارخ:

– تعجبني هذه الأشاطيح اللغوية.

كان يفسر مزاح العجوز معه وتجليات هذا المزاح الفيزيائية المجسدة بالضم والحضن بحرمانها من الأمومة. الجانب العقدي الأهم والذي زاد من حيرته هو الكيفية التي يشتغل بها عقل ماركيتا والتي اكدت مخاوفه من أنها صورة لعقل غيرها أيضاً. عقل مبرمج على مستوى واحد، ضمن نمط لا يرى في اللاجئ سوى صورة إنسان هارب من كهف من العصور الحجرية كما كان سيناي يكرر! فرغم كل حديثهما المتواصل اليومي والعميق عن الأدب، والتشكيل، وجيمس جويس، وسارتر، وموباسان،

ودالي، وهيسه، والتكعيبية، والبنيوية، ورامبرانت، وبروست، كانت تباغته بأسئلة يكاد على إثرها أن يصرخ بها: ما هذا الهراء أيتها العجوز؟ من تظنيننا؟

قال لها مرة بعد أن عرضت عليه تجريب سيارة:

– أستطيع قيادة سيارة، ولكني رسمياً لا أحمل إجازة سياقة أتعرفين؟

– قصدك أنكم تستخدمون الخيول في التنقل بدلاً من السيارات؟

مع ذلك، ورغم خطل هذه الأفكار وغرابتها وكأنها تصدر من ساكن في المريخ، كانت خفة روح ماركيتا بشكل عام تعجب مالك. نعم. خفة الروح لكن عن أية خفة روح نتحدث؟ أليست خفة الروح هي التي أوصلتها مرحلة انعدام الوزن في واحدة من الليالي الحائرة بين عتبة الخريف وباب الشتاء؟ ليلتها كان البرد طازجاً مفاجئاً ولذيذاً يغري بالاحتماء، والريح الهاربة من مطاردة البرد تصرخ دافعة بنفسها دفعاً من خلل الثقوب، وشقوق الأبواب، وفتحات الشبابيك، لاجئة الى الغرف الدافئة. في تلك الليلة حين كانا قد انتهيا من العشاء، دعته ماركيتا لسماع الموسيقى في الصومعة أو الغرفة العلوية.

وهو خلفها، على السلم في طريقهما الى الغرفة العلوية، سمعها تقول:

– هناك تتراقص أغصان الزان تحت المطر وتمسح خدود قرميد السطح المبتل.

– واو. ما هذا ماركيتا لمن هذا الشعر؟

عادت درجتين من السلم الى الأسفل ولكزته بخاصرته:

– اصعد سأسمعك الليلة قصائداً لم تسمع بها!

تبعها داعساً على درجات السلم الخشبي العتيق الذي كان يئن متأوهاً تحت أقدامهما ثم تبعتهما بايكا الصغيرة بعيون فضولية فأعادتها ماركيتا بجملة ناهرة واحدة الى مكانها طالبة منها الخلود للنوم فأذعنت الكلبة الغيور عائدة هازة ذيلها فيما واصل هو تسلق السلم المتأوه. توقفت على منتصف السلّم مستذكرة موت كلبها السابق دودي وكيف ترك غيابه أثراً بالغاً في حياتها فهو أكثر لطفاً وطاعة من بايكا، فقال:

– هذا لأنك تمنحين الكلب مكانة عالية، لو كنت تعيشين مع ولد بدلاً من الكلب لأختلفت الأمور! أكيد حين تعيشين بحميمية مع كلب سيموت بعد عشرة أعوام حتماً، سيكون غيابه مدمراً.

– وهل تعتقد أن الولد، أو الرجل أكثر وفاءً من الكلب؟

– ماركيتا، الكلب كلب والبشر بشر لا مجال للمقارنة بينهما، لديكم مثل هولندي: لا تقارن بين الكمثرى والتفاح، والوفاء ليس هو القيمة الوحيدة في حياة الإنسان. ولا هو القيمة الأساس..

– ما القيمة الاكثر أهمية من الوفاء بنظرك؟

– الوفاء هو رد فعل محدد، أنت تكونين وفية لمن تعتقدين أنه تصرف معك بلطف أو منحك شيئاً أي أن الوفاء فعل مشروط بفعل آخر، توجد مثلاً قيم غير مشروطة، ولكنها تلقائية مثل الإيثار أو القدرة على العطاء أو الاحساس بالمسؤولية أو التضحية.. ولكن أتعرفين سر تقديسكم الكلب؟

واصل وهو يقف أمام باب الغرفة:

– أنتم بعد أن تعمقت فردانيتكم، ومال اتجاه حياتكم وجهة الشخص لنفسه، الشخص مع نفسه، كان لابد من وجود ما يعوض الآخر المفقود. والكلب هو أفضل المخلوقات التي تعوض وجود الآخر فهو مطيع غير معترض، وفيّ لمن يحسن اليه ويربّيه. ماركيتا قولي الحق الم تجدي في الكلب كل ما كنت تريدين أن ترينه في زوجك؟ الطاعة وانعدام الاعتراض والوفاء!

غرقت ماركيتا في ضحكتها مقوقئة كدجاجة:

– نعم بعض ما كنت أريده، ولكن ليس كل ما كنت أريده، أنا كنت أريد الكثير، ولم يكن كل ما كنت أريده بطاقة كل رجل، أتفهمني؟

واضح، امرأة مثلها كانت تطلب الكثير، ولهذا لم يبق معها الا الكلبة التي لا تطلب شيئاً. كانا يتحادثان واقفين قبالة الغرفة العلوية التي يراها للمرة الأولى خلال وجوده في بيت ماركيتا، فهو لم يعرف من البيت الكبير غير الصالة والمطبخ والغرفة التي يأوي اليها ليلاً. عندما دلف للغرفة أعشت عتمتها المضاءة بالشموع عينيه حتى أنه تعثر بالعتبة فأمسكت ماركيتا بيده بكف مرتعشة حارة:

"مرضت العجوز، ماذا لو أنها ماتت فجأة؟" فكر ثم سألها بعد أن أحس بحرارة كفها:

– هل أنت على ما يرام؟ حرارتك مرتفعة!

كانت تحدق به بشفاه مرتعشة:

– ما دمت معي أنا بخير.

بهرته الغرفة المرتبة بعناية فائقة. الأرض مفروشة بسجادة ناعمة الملمس توزعت عليها كل ألوان الطيف على شكل مربعات، وسلّطت عليها أنوار خافتة بحيث يخيل للرائي أنه في فضاء قصر فخم.

– يا لها من غرفة شاعرية! كأنما تعدّين لتصوير مشهد من فيلم رومانسي في قصر أمير من أمراء العصور الوسطى!

– وهل يفوقك الأمير بشيء؟ نعم، هي أحلى ما في البيت كله، تحت سقفها أجمع كل ما أحب وأمارس كل ما أحب! أنت أميري الليلة..

ماركيتا تسرف بتدليله كيتيم تريد تعويضه عن حنان أمه، وهو لا يحب أن يكون بدور المشفوق عليه، بل أن ذلك هو أكثر ما يثير حنقه في معاملة الأوربيين للاجئ كما يعامل قسٌ طيبٌ مسكيناً عاجزاً. حاول حرف الحديث نحو موضوع حيادي:

– الريح هنا قوية حتى لكأننا صعدنا جبلاً.

– ذلك لأن الغرفة من الخشب ولأن الريح تؤثر في قلب الخشب، الخشب قديم لكن قلبه ينبض!

"عجوزي الليلة تتكلم الغازاً، الله الساتر!" قال لنفسه..

انتبه لها تطيل النظر لعينيه، كان يحس بنظرتها تخترقه، نظرة ذكرته بنظرتها له في الكراج حين التقاها للمرة الأولى، النظرة الطويلة الوحشية المتفحصة التي حاولت أن تنبش خفايا روحه وتكشفها بلحظة واحدة. ماركيتا امرأة فيها شيء من الغرابة والغموض العصي على الكشف، وغموضها يكمن قبل كل شيء ببساطتها التي لا تسمح بدخول من يروم اقتحام أعماقها شبراً واحداً أبعد من الماضي الضبابي مع زوجين وعشيق منتحر. كأنها تريد القول: "ماذا بعد؟ هذه أنا، أنت ترى منزلي، وقد حدثتك عن حياتي الماضية أما الحاضرة فهي أمام عينيك!".

امرأة غير قابلة للسبر، جدرانها متينة الى حد غير قابل للاختراق. قادته من يده ثانية وأجلسته على أريكة لدنة واسعة وضغطت على زر في الجدار ليسكب مصباح ناعس ضوءه الأحمر القاني عليهما بهدوء حتى خيل له أنه في غرفة تنويم مغناطيسي.

قامت وأحضرت زجاجة من نبيذ أحمر وكأسين وسكبت له ثم لنفسها ثم رفعت الكأس عالياً:

– بصحة أمير الشرق!

هل سيجازف في بيت العجوز فيشرب؟ كلا، ماركيتا جاهزة لمراعاة مزاج أنيسها، أتت بعلبتي بيرة. بعد ساعة من الكلام عن الموسيقى والمطر وعن تي اس اليوت والأرض الخراب ثم لورد بايرون، وبعد أن كررت مخاطبته بلقب: أمير الشرق، لم يفلح في التحرر من سجن المبالغة الشرقية التقليدية فأطلق جملاً لم يكن يقصد منها شيئاً، هكذا ببلاهة انفلتت من فمه عبارة:

– أنا الأمير أم أنت الأميرة الساحرة؟

ثم وببلاهة أشد من الأولى، حكى لها عن الشعر الرومانسي العربي الحديث وترجم لها بيت حسب الشيخ جعفر:

"السرير دون امرأة.. قيثارة مقطوعة الأوتار"

عندها كانت الزجاجة قد قاربت النفاد، أتت بأخرى وصبت لنفسها ثم طلبت منه بعيون ذابلة أن يعيد فيُسمعها بيت الشعر الذي تلاه قبل حين. مع نفاد الزجاجة الأولى شعر أن عطر ماركيتا قد ملأ رئتيه ولاحظ أن لغتها بدأت بالجنوح تدريجياً نحو التعري على إثر كلماته، وانزلقت بهدوء باتجاه ضفاف بحيرة المحظورات، تناولت موزة وجردتها من قشرها بتأن وناولتها له لكنه أعتذر بخراقة:

– شكراً أنا لا أخلط الموز مع البيرة!

ضحكت ماركيتا من العبارة:

– أما أنا فمغرمة بالموز منذ بداية حياتي، مع البيرة وبدونها، مع النبيذ وبدونه، الموز الذ فاكهة في حياتي.

وأعادت أصابعها المرتعشة الموزة وقربتها من شفتيها ببطء ثم إعادتها وعيناها الزرقاوان الكامدتان تومضان بلهب خفيف متعَب لكنه مقاوم للانطفاء.

بقيت مواصلة النظر المرتعش اليه ويدها ممسكة بكأسها:

– ولكن أعد عليّ ثالثةً بيت الشعر العربي الذي حكيته قبل قليل. أنتم العرب رومانتيكيون لكن حظكم حالك السواد!

لا يعرف للآن كيف داهمت عينيه لوهلة صورتها قبل خمسين سنة، تخيلها بشعرها الطويل الأشقر الذي مازال للآن غزيراً. أعاد لها خياله قوامها المنتصب، والبسها لباساً صيفياً ارتفع عن ركبتيها شبرين وكشف عن صدرها المرمري الصلب. ثمة شرارة أومضت في الغرفة نصف المعتمة. شعر بدفق الدم يحمل ثيران الرغبة الهائجة تخترق كيانه وغابت عنه ماركيتا العجوز التي تشاركه الغرفة نصف المعتمة. بدلاً منها، رأى واحدة تشبهها في شبابها الذي تخيله، واحدة لا تتكرر كانت قد افتتحت عالم بلوغه وقصت شريط عذريته وقادته من أذنيه سنيناً. عندما اختفت هذه المرأة من حياته، لم يجد بديلاً لها، صام مثل رسام يبلغ قمة فنه وهو في العشرين!

أحس بزحف ماركيتا نحوه وكأنها وجدت شيئاً على ملابسه. نظر بدهشة، وقد عاد الى نفسه، لأصابعها التي امتدت لقميصه فتوقع ان تأتيه بحشرة سقطت عليه من سقف الغرفة، لكنها بدأت بفتح أزرار قميصه ثم عبثت أناملها بشعر صدره الكثيف!

" سكرت العجوز وستموت الليلة في الغرفة العليا" قال لنفسه.

مضت هي بفك الأزرار بأصابع حارة وأسئلة مرتعشة تتقافز من فمها:

– لماذا. لم تقل. لي من قبل. إن لديك مثل. هذه الغابة؟ لم حرمتني. من التنزه في أرجائها كل هذه الأيام؟ أتعرف كم.. أعشق الغابات؟ الغابات في الخريف. جرداء لكن غابتك دائمة الخضرة.

قالتها لاهثة وهي تلقي بجسدها عليه بعد أن رمت بآخر ما يسترها الى الأرض. انتظرت برهة وهي تحدق به مقعياً تحتها أشبه بالميت، انتقلت الى جانبه ثم بعد أن حررت كفاها آخر أزرار القميص راحتا تنحدران على بعد شبر من آخر الأزرار المحررة. عبث عطرها بأنفاسه ثانية وأدرك أنه وقع في المأزق! بقاءه في بيت ماركيتا يتعرض لأقسى اختبار. كاد أن يصيح: راح البيت! حاول بكل ما لديه من قوة التخيل، والتقمص، والتمثيل، أن يشطر نفسه الى مالك متزن، وآخر يبحث عن خلاصه الفردي يلبي متطلبات الحد الأدنى لما تريده ماركيتا. تماماً الحد الأقل كفاية ليكمل الباقي بالتمثيل، الحد الضروري لما يجنّبه مواجهة المصير الذي يخشاه: قم يا صديقي قم فقط، أنقذني من الطرد للشارع! قم يا صديقي قم أتوسل اليك! قم الى الوضع البسيط الذي يشعر ماركيتا المحترقة بتأثير حرارتها فلا تتحول الى رماد قبل أن تضيء، أو تنفجر فتدمر نفسها وتدمرنا كلنا في هذه الليلة الخريفية المطيرة. ارتسم أمامه وجه المحامي الذي سيتقدم بطلب الاستئناف الى الوزارة، ثم نهاية متاعبه حين ستأتي له ماركيتا بالنتيجة ضاحكة: أنظر أنت الآن مقيم شرعي! حاول استبدال سيقان المرأة العجوز التي انفرجت بجانبه بسيقانها قبل خمسين سنة فلم يستطع، راح

يستنجد بأرشيف خيال المراهقة الخصب، صور الممثلات في مجلتي الموعد والشبكة، أفلام الاباحية القليلة التي شاهدها، صدر ومؤخرة هيفاء وهبي، فيلم المراهق أو غريب في جزيرة المراهقات وماركيتا المتوهجة تنتظر، لكن مستودع خياله كان فارغاً فلم يسعفه الا بسيقان جدته التي رآها وهو في الرابعة من عمره في الحمام حين قال لها مندهشاً جملة ستملأ البيت كطرفة الى ما بعد سنين:

–اووووي.. جدتي.. جلدك يشبه قميص أبي بعد الغسل!

كان عقله الصغير يقارن بين جلد جدته وقمصان أبيه المجعدة بعد الغسل، سمع جدته تضحك. فقفز بفزع لتنهمر البيرة على الطاولة وينقلب إناء الشمع. غرقت الغرفة بالظلام فضرب بيده المذعورة ماركيتا على فمها فطار شي ما من وجهها ليضرب الواجهة الزجاجية لحاوية التحفيات ويهشمها. سارع لكي يضغط على زر مصباح الكهرباء لكن ماركيتا انقلبت مترنحة بفعل النبيذ فحاول مساعدتها في النهوض، داس على ضفيرتها أثناء محاولتها النهوض.. وآه.. ما الذي يجري؟

سطع النور فكشفت ساحة المعركة عجوزاً عارية صلعاء اختفى شعرها فجأة وبدت بفم مطبق خال من الأسنان مثل ضفدعة عجوز! نهضت بدون شعرها الذي بقي تحت قدمه! وقع بصره على عنقها وبطنها المتغضنين وذراعيها اللتين تهدل جلدهما شبه المحروق من أثر صيف

مضى. تبدل وجه ماركيتا خلال دقيقة كما لو لم تكن هي، لقد كان طقم أسنانها هو ما حطم الواجهة الزجاجية الرقيقة لمكان التحفيات. انشغلت مذعورة بالبحث عن الطقم..

"آخ جدتي ماركيتا. لم أكن أتصور أسنانك الناصعة صناعية، ولا شعرك الطويل مستعاراً من ذيول الخيول، يا عمتي حتى الكوي ليس بإمكانه مساواة تضاريس جسدك الوعرة.. سامحيني".

انخرط هو السابح بعرقه باحثاً في الغرفة المعتمة عن طقم أسنان ماركيتا فوجده تحت كرسيها. مسكه بأطراف أصابعه مثلما يمسك بحشرة مقززة وسلمه لها فدست طقم أسنانها الملوث في فمها. انكسرت نظراتها للحظات مرت عليهما كأنها قرن وهي تلملم قميصها بعد أن سترت ثدييها المتهدلين بيديها كما تفعل كل النساء ثم دحرجت جملة مبحوحة، ربما لكي تدفع الحرج عنها:

– ما كان ينبغي لك أن تفعل.. إن كنت لا تريد!

خشي أن تطرده بذات الليلة الماطرة فقال بخجل وارتباك:

– هكذا أنا مع البيرة. تأخذني دائماً للنوم!

ابتسمت بأسى ولاحظ كيف انطفأت تدريجياً مثل سيجارة أهملها مدخنها، اتجهت للجهاز فأسكتت الموسيقى الرومانسية ليغرق البيت في وجوم كئيب.

الآن فقط أدرك سر تقطيبتها عندما تحدث في يوم الوليمة عن العجائز اللواتي يشترين تفاحة واحدة، وموزة واحدة. نعم الشحنة المتفجرة التي احتوتها طرفته آنذاك وأربكت ملامحها لم تكن بموضوع الطرفة، ولا ما توقعه أول الأمر من مسها لكرامتها كهولندية متهمة بالبخل، بل بمفردة: "العجائز"! هذه هي المفردة التي سحبت الدم من وجهها. هي لا تريد الاقرار بعجزها!

بقي كل شيء نائماً، الكلبة في الأسفل على وسادة ماركيتا، والشارع المبتل بالمطر وأغصان شجرات الزان التي خمدت فجأة بعد أن كانت تتمايل، وقبل كل شيء جسد مالك الذي رفض الاستجابة لتوسلاته. وحدها ماركيتا بقيت لفترة يقظة تتلظى بحرارة أدهشته، امرأة بهذا العمر كل شيء فيها تطوى وانثنى وانكمش مستعداً للرحيل الا الرغبة، الرغبة في افتراس يافع يصغرها ربما بخمسين سنة! لام نفسه على سلسلة الحماقات التي ارتكبها خلال أقل من ساعة، أكان من الضروري الحديث عن القيثارة مقطوعة الأوتار؟ هذه هي القيثارة فأعزف إذن! وهل كان من الملائم تقريعه للبيرة؟ فهل تراه يستطيع العودة قوياً مع غير البيرة؟ هو أصلاً لم يقرب البيرة! وماذا لو سألته عن نوع المشروب الذي لا يسير به للنوم، بل للتلظي كما

تلظت هي؟ توقع أن تغير تعاملها معه وربما أن تطرده في الصباح التالي لكنها بقيت على لطافتها رغم تسلل دفق من البرد من هذه الثغرة التي فُتحت فجأة لتسحب الدفء من البيت الكبير. كان واثقاً من تحقق واحد من احتمالين: أما أن تطرده بطريقة ما أو أنها ستعيد الكرّة بعد أن تجهز الغرفة القابعة تحت القرميد بما يتلاءم ومزاج شرقي ينام بعد شرب البيرة. صبر الهولنديين لا حد له.

في اليوم التالي، لم تتطرق لأحداث الليلة الماضية، ليلة البحث عن الأسنان الضائعة حينما بقيت السماء تبكي مثل أعماقها الناحبة. تجاهلتها كما لو أنها كانت حلماً مزعجاً. ماركيتا المجروحة الآن، مثل عذراء عزف عنها حبيبها فجأة في ليلة الزفاف. هو يعرف ذلك. لقد انكسر غصن روحها تلك الليلة، هي ظنت نفسها القيثارة التواقة لأنامل العازف العربي لكن هذه الأنامل القاسية بدلاً من مداعبتها وحملها على إبداع أعذب الألحان امتدت لتقطع الأوتار واحداً بعد آخر.

أمسى لا يرى من أيام حياته في بيتها سوى تلك الليلة. حتى نومه تحول الى كوابيس كانت ماركيتا خلاله تتسلل بهدوء الى فراشه وتفتح أزرار قميصه كما فعلت في تلك الليلة الماطرة ولم يكن يستطيع بعد الحادثة مبادلتها نظرتها الطويلة. كان ينكسر وهذا ما كان يثير فيه إحساساً بالمهانة. كانت عيونها قليلة الرمش أكثر أماكن جسدها حساسية وإحساساً، كل شيء يبدأ من هاتين العينين! لم ير بحياته كائناً يستغل عينيه كما

تستغلهما ولم يرها مرة واحدة تنظر لشيء لمحاً أو خطفاً، كانت تعب النظر عباً، حتى وهي تشرح له تفسيرها للوحة فرمير"الخادمة صاحبة الحليب" التي رأتها لأول مرة حين كانت في الخامسة من عمرها كما قالت. كانت تحدق باللوحة طويلاً بعمق وقوة وثبات مثل ميكانيكي يفكك آلة دقيقة. هي تريد خزن الدنيا كلها في جوفها.

تحولت حياته في البيت الكبير تدريجياً الى ما يشبه محاوله حمله على الزواج بجدته، هذا هو مستقبله في هذا البيت كما يراه الآن. بدأ يشك أنها استدرجته أولاً بوعد العمل في مزرعتها ثم وعدها بتوكيل محام لإحياء طلبه اللجوء، من أجل مطاوعتها وعندما تيأس منه ستختار أصعب الظروف لطرده ولربما تسليمه للشرطة، لا، لا يمكن. ماركيتا نبيلة وذات أخلاق، لا يمكن أن تسلمه للشرطة، ولكن هل عشقته هذه العجوز التي تناطح الثمانين؟ أم أنها فورة تظافر النبيذ والشتاء والموسيقى الحالمة في صنعها؟ المشكلة أنها غير مستعدة للاعتراف بهذه السنين التي ستسقط من حافة الثمانين بعد حين، فهي على غير عادة أهل البلاد في تقديس يوم الميلاد، لم تشر يوماً ليوم ميلادها وبقيت تكرر مقولة من سار بهم القطار بعيداً:

"العمر رقم لا أكثر، عمرك الحقيقي هو ما تشعر به أنت!"

ذات ليلة استيقظ في الرابعة فجراً مرعوباً بعد أن داهمه كابوس. كانت ماركيتا قد تحولت الى عجوز صغيرة بحجم طفلة في الرابعة تركض خلفه

وتصيح: بابا! ولما التفت وجد ماركيتا العجوز تبتسم له وتقول: هذه هي ابنتنا أنسيت؟ بعد يومين من حلول هذا الكابوس، استوقفته وهي في طريقها للسوق وسألته:

– وددت أن أسألك أي المشروبات تشرب. غير البيرة؟

شعر على الفور بغصة خنقته. ها هي عادت ثانية! أيقن أن النهاية قد حلت، هو في كل الأحوال لا يمكنه السير على تضاريس جسدها الوعرة، التضاريس التي تعلو قامته بأكثر من نصف قرن من عمل الخلايا والأنسجة الجاد. سيتعثر لا شك، سينقلب، سيضيع. هل من المعقول ألا يعي المرء عمره؟ ليس عبثاً أنها ولدت قبله بقرابة نصف قرن، نصف قرن ماركيتا ياعمتي! عندما خرج هو الى الحياة كانت هي قد ودعت سن التضاريس الناعمة بسنوات فكيف يمكن لدرب أن تلاقيهما ببعض سوية؟ هذا محال. سوف لن يسمح لنفسه الخضوع لذات التجربة المهولة تحت سقف القرميد عندما نام كل شيء الآها. كان يائساً من كل شيء. افترض مع نفسه أنه انشطر الى نصفين في تلك الليلة الرهيبة، هو وتوأمه، هو الملتزم والآخر المغامر، وأن محاولتها قد أفلحت في الإتيان لها بما تريد، وسأل نفسه ترى هل ستكتفي هذه العجوز بمرة؟ لا، فبانتظار أن تكلف محام، ويعاد التحقيق معه، ثم يعود هذا بالنتيجة سوف يأكل شطره الجديد المختلق الشطر الثاني لأنها ستطالبه بآلاف المرات. لا.. لا.. هي تريد

استغلاله. هو يرفض. هي عرفت ذلك وتعد العدة للانتقام منه! كان هذا هو آخر ما توصل اليه.

اتصل بزميله عامل التنظيف في الكراج محاولاً العودة فوعده العامل بالحديث مع لا زاروني فهو يبحث عن عامل جديد، ولكن نصحه بالتأخر لأن مزاج السيد ما زاروني هذه الأيام صعباً، واتفقا على موعد بعد أسبوع. أثناء ذلك، وبعد عودة ماركيتا من السوق، حاول التمارض حتى يقطع عليها مشروع سهرة جحيمية ثانية يبدو أنها تعد العدة لها. وأثناء ذهابها لحضور حفل عيد ميلاد صاحبة لها انسل بهدوء من البيت، بذات حقيبة الظهر الرخيصة التي غادر بها مركز الاستقبال والسترة المائلة للصفرة. ترك لها رسالة شكر حارة أعاد فيها مراراً أنه لن ينس صنيعها ولا رفقتها. أراد أن يبعدها عن التفكير أن لهروبه علاقة بوقائع الليلة الرهيبة فقال إنه سئم الحياة كعالة على غيره فهو قد تعود دائماً أن يكون منتجاً لا مستهلكاً وأنه واثق من لقائها في ظروف أفضل، ظروف لا يكون فيها من يتلقى التدليل، بل من يمنحه لها لأنها تستحق. عادت خطاه اليائسة الحذرة الى الشارع بعد استرخاء طويل في بيت عاشقته شعر بآثاره فوراً بشكل تعب يسري في ساقيه وقدميه. عاد من رخاء بيتها الى الكراج مضحياً باحتمال تكليفها لمحام ربما سيجبر الوزارة على إعادة النظر بقضيته. عاد مختنقاً بحزن كدخان أسود كثيف، كل ما في الحياة يطالبه دوماً بما لا يستطيع. عاد مالك بعد خسارته حرباً أخرى!

# 6

وصل أذنيه الفحيح الذي كان يحمل أنفاس ما زاروني وهو في الطريق الى إدارة الكراج:

– شبعت من خير مفراو فان دايك؟

حدث ذلك قبل أن يبلغ الزاوية التي يقطنها صاحبه رون، ولم يعرف ما يرد به كما في كل مرة يتحدث بها مع هذا الشخص المتجهم الشكاك. حاول تجاهل سؤاله الاتهامي السخيف والابتسام محيياً لكن لا زاروني أغلق ابتسامته قبل أن تكتمل عندما اقترب منه ووضع يده على كتفيه وأدارهما بشكل مهين ثم دفعه دفعة خفيفة:

– لا أريد رؤيتك مرة أخرى هنا، سأبلغ الشرطة!

بقي واقفاً لحظة مندهشاً مباغتاً بهذا التصرف العدواني الذي لم يعرف له سبباً، حاساً بطعنة تنفذ الى صدره. تناهبه خليط من مشاعر خوف وإهانة وقلق من قرب إقدامه على عمل خطر، ثم تفاعل كل ذلك بسرعة فلم يتمالك نفسه ورشق ما زاروني ببصقة ولكمة تفاداها هذا في الثانية الأخيرة لكنه أسرع راكضاً الى داخل الكراج ربما لإبلاغ الشرطة أو لإحضار السلاح فأغتنم مالك الفرصة وأحس أنه دخل معركة غير رابحة فركض بكل قواه ليغيب وراء منعطف الشارع. بسرعة الفأر المطارد غادر منطقة الكراج ومن هناك نفذ للدروب القديمة الضيقة في الحي المقابل تفادياً لاحتمال وجود سيارات الشرطة. فجأة ومثل شيطان لا يُرى الا في الخرافات

انتصب أمامه شرطي! من أين أتى هذا العفريت؟ ولماذا يقف أمامه ساداً عرض الدرب الضيق؟ جرب أن يتحايل فيعود من حيث أتى. وقف واستل تليفونه، تظاهر بتلقيه مكالمة هاتفية محاولاً الاستدارة البطيئة كي لا يثير الشك لكنه، أثناء استدارته لمح الشرطي يتحرك ثم سمع صيحة:

أيها السيد قف لحظة رجاءً!

انتهى! ها هو قد وقع بقبضتهم، لا شك أن ما زاروني اتصل مبلّغاً عن أجنبي خطير من ذوي السوابق، كان الشرر يتطاير من ملامح وجهه كله. لماذا كرهه ما زاروني؟ منذ أول لحظه لم يستسغه، ما السر؟ أيكون لذلك علاقة بماركيتا؟ نعم ربما شعر هذا البليد بطبعه، بغيرة من شاب يشتغل مختبئاً فتغدق عليه السيدة الغنية وذات النفوذ من خيراتها.. أيكون على علاقة سابقة بها؟ محال، ليس هذا هو رجلها المفضل، هو لا يصل حتى كعب قدمِها! حتى الآن ما زاروني انتصر فقد أفلح بحمل الشرطة على مطاردته وهذا ما لم يحدث له طيلة فترة ضياعه في هذه البلاد! الآن ما العمل؟ لا مجال للامتثال لأمر الشرطي حتى وإن كان لا يقصده فما الذي سيأتي بعد الوقوف؟ لا شك الأمر الروتيني اللاحق الأنيق اللطيف المظهر:

بطاقة هويتك لو سمحت سيدي!

يا له من قالب لغوي متقن صرفت أوربا وقتاً طويلاً من أجل صياغته! هو سيّد الشرطي الذي يترجاه الآن ليسمح بإبراز بطاقته! وإذا رفض السيد السماح؟

لحسن الحظ، أو لسوء الحظ، كان الدرب فارغاً، حظ سيء فلو كان مكتظا بالمارة لضاع بينهم أولاً ثم زاد من سرعته، وحظ حسن لأن كثرة المارة قد ترشّح بطلاً من بينهم يتبرع بمساعدة الشرطي فيسهل له مهمة الإمساك بأجنبي مطلوب! ركض بكل قواه ثم انعطف بدون تفكير الى اليسار وبقي راكضاً حتى أحس قلبه يكاد يخرج من بين ضلوعه فتوقف. قابلت عينيه إشارةُ الصليب ولوحة برونزية:

المقبرة العتيقة

صفقُ أقدامِ الشرطيِ على الحجر، وزعيق صفارته تعزفان لحن الموت في طريق المقبرة العتيقة. التفت كي يقدّر المسافة التي تفصله عن مُطاردهِ فلمح شرطيينَ إثنين. لا، الأمر أكثر خطورة مما توقع!

الدرب مقفرٌ الى المقبرة،

لا أحد يموت الآن،

واطمئنوا لا أحدٌ من الموتى يقوم

فقد فات الأوان!

هذه القطعة حفرها على لحاء جذع شجرة عملاقة زائر للمقبرة ويبدو انه زائر أربكه حادث موت ما.. لم تكن المقبرة العتيقة بعيدة، خطوات معدودة. يستطيع الركض بمحاذاة سياجها العالي مخاطراً باحتمال أن تقطع الطريق عليه سيارة شرطة، وهناك الاختيار الآخر: طلبُ الحماية من الميتين! سيحتمي بهم فهؤلاء مسالمون لا يشون بضيفهم. دلف للفضاء الهادئ متنقلاً بخطىً سريعة مذعورة بين القبور، وجد شاهد قبر عال فأحتمى به ومن فوق حافته العليا شاهد الشرطيين يتحدثان مع ثالث وصل للتو بسيارته!

لقد طوّقوا المقبرة ذات المدخل الوحيد فإلى أين المفر أيها الحي الوحيد بفضاء الموتى؟ ربما كانوا يبحثون عن آخر، لكن افتقاره لهوية اثبات الشخصية سيفضح كل شيء.

لم تمض لحظات حتى اجتاز اثنان منهما البوابة ومسدساهما متأهبان. ضاق درب النجاة ولم يعد ولوجه متيسراً! لا يدري من أين أتته فكرة قلب سترته ذات البطانة السوداء: "اقلب سترتك على بطانتها، أظهر الباطن المقلوب، الظاهر الصحيح عاداك"! هذا هو بيت شعر رديء قرأه في وقت ما، لكنه صالح لهذا اليوم الرديء. اقلب سترتك..

نعم، العبقرية تظهر أوقات الضيق.. خلع حقيبة الظهر ثم لبس سترته بالمقلوب، منظره من بعيد الآن لا يشبه المطارَد ذو السترة صفراء اللون..

هذا زائر مفجوع بميته يرتدي السواد! خطا بعيداً عن القبر ذي الجبهة المرفوعة، وكان الشرطيان قد انشطرا كل الى جانب في مهمة تفتيش جادة.

"ارقد بسلام عزيزنا هانس"

جملة مكتوبة بالأسود الغامق مربوطة بباقة زهور طرية من النوع الغالي ملفوفة بورق شفاف، وُضعت ربما قبل يوم أو يومين على ضريح هانس الذي مات قبل نهاية الحرب الثانية كما يشير شاهد قبره الحجري. تردد مالك أول الأمر. لا يجوز استغلال مسالمة الموتى وصمتهم! نعم لا يجوز، هذا عمل يشبه سرقة لعبة من طفل، ولكن اليس الأحياء أولى من الموتى؟

عذراً عزيزي هانس سأعيدها لك قسماً!

التقط باقة الزهور، وحملها على حقيبته، احتضنها بوقار يليق بباقة مخصصة للموتى وتقدم بخطوات حزينة متعمداً أن يراه الشرطي من بعيد. بخشوع وهدوء جثى أمام أقرب قبر واضعاً حقيبته تعلوها الزهور على الأرض الرخامية متمتماً كلمات إدعى أمام نفسه أنها صلاة أنجيلية.. لو أن الشرطي شك بشيء سيكشفه الآن فهذا القبر ليس لهانس.. هنا يرقد "ياكوب فان نورد". مكتوبة بخط عريض! ياكوب غادر الدنيا هو الآخر أثناء الحرب ذاتها، ربما مات أحدهما برصاص الآخر من يدري، إذن سيصالحهما بباقة الورد. جثا امام قبر ياكوب متمنياً من كل قلبه أن يغفر الله له ولهانس معاً فهما من بين أشرف من قابل في هذه البلاد. التقى

الشرطيان بعد تفتيش المقبرة وغادراها وبقيت سيارة الشرطة مرابطة أمام بوابتها. هم شاهدوا المطارَد ذا السترة المائلة للصفرة وحقيبة الظهر الزرقاء يدخل ولابد أنه سيخرج بعد ساعة، ربما بعد خروج زائر المقبرة هذا ذو السترة السوداء! مع ذلك، لم يطمئن قلب مالك.. أخلاق الشرطة في المقبرة ليست هي ذاتها خارجها. هنا يسري قانون الأموات. الصمت وتجنب التدخل بشؤون الغير، وما أن تطأ أقدامه رصيف الشارع حتى تصله الصرخة:

أيها السيد قف مكانك رجاءً!

كلا. لا يريد المغامرة برصيد هروبه المُجهد وخدعته التي مرّرها من أمام عيني الشرطي. ولكن الا يثير بقاءه شكوك الشرطة أكثر فيفطنون للحيلة؟ ما لهذا السيد ذو السترة السوداء لم يغادر المقبرة؟ ورطة أخرى! تعبهُ هو الذي حسم الخيار. سيبقى هنا مهما كانت النتيجة إذ لم يعد في جسده من القوة ما يكفي الا للنوم. جال في الأروقة بين اللحود النائمة، معظم سكان المقبرة ماتوا قبل عصر التلفزيون والكومبيوتر وسوف لن يعرفوا شيئاً عنهما الى الأبد! خسارة، لو تمتع الموتى بميزة سماع أخبار أهل الأرض الاحياء لخفف ذلك من معاناة نومهم الطويل تحت التراب. جذب بصره الطرف الأيمن الأقصى حيث عاليات الشجر الكثيف، ربما يتغذى الموتى على جذور هذه الأشجار الضاربة في التربة بعيداً، وقد تتغذى هي على بقاياهم، لا يهم فاللوحة منسجمة العناصر! يبدو أن هذا هو جزء المقبرة المستقبلي

حيث سيرقد الى الابد موتى الأجيال اللاحقة. كانت أرضاً كثيفة الأحراش، وغير بعيد من الجدار المحيط العالي لاح ركام تراب قد نمى العشب عليه فشكل تلاً صغيراً.. من اين أتى هذا التل؟ فكر مالك لابد ان يكون مشروع قبر مجاور! هذه هي اللقية. حفرة قبر، أو قبر مؤجل لم يكتمل ربما بسبب إجراءات إدارية لا تريد للمقبرة أن تصل هذه الحدود فتُرك محفوراً الى النصف. المكان محجوز بشجيرات متطفلة شائكة نمت الى ارتفاع ينوف على المترين وبهمة المحاصَرين تسلل من بين النباتات الشائكة وشرع بقلع الأعشاب والنباتات الشوكية من الأرض حتى أدمى يديه وأتلف أكمام بطانة سترته. القى بالعشب الناعم الى الحفرة، جعل من حقيبته وسادة ثم تمدد في القبر واهال على نفسه كومة الاشواك..

انتهى. لقد مات. لا يمكن لأذكى شرطي التفكير بان المطارد سينام ليلته في هذا القبر العتيق المهجور..

كانت ليلة رهيبة في مملكة الموتى. رأى نفسه وقد تناول مرآة صغيرة فتفاجأ بمنظره هيكلاً عظمياً وسمع نوح النائحات اللاتي تجمعن حول مثواه يصله بطيئاً من خلال تراب القبر. بعد لحظات غرق ببركة من دموع الباكين على موته سالت لتتجمع في قعر حفرته ثم تسلل البلل الى جسده المرتجف برداً. حدث ذلك قبل الوصول لقعر الليل بقليل، فزّ هلعاً ونهض ناثراً الاشواك والأعشاب حوله بعد أن تذكر أنه يبات في المقبرة وتخيل الأشباح والملائكة والشياطين يتربصون به واقفين كل خلف قبر. كانت السماء

تمطر، المطر دموع الله الباكية على مصير البشر! لم يعرف ما يفعله، هل سيغادر راكضاً فيثير شبهة من يراه، ولكن من سيراه؟ الكل موتى، لا يعرف، يكفي شيطان واحد يقظ لكي يمسك به من أذنيه صارخاً: تخدع الشرطي، ولكن لا تجرب عدتك البائسة معنا! أكره نفسه على البقاء ميتاً الى أن حلّ صباح الموتى ندياً رمادياً بلا غناء طيور ولا شمس. حتى الطيور تحترم صمت الأموات. كان الرعب من الأشباح الذين مروا لتحيته ليلاً قد بلّد حواسه، نفض الاشواك التي غطت رأسه وتحرك باحتراس، تذكر صديقه الميت هانس الذي اسدى له خدمة سيتذكرها دائماً، لقد وعده بإرجاع باقة الزهور التي استعارها من أمام ضريحه. الباقة لهانس لا ليعقوب. اختفت سيارة الشرطة. ملَّ المطارِدون على ما يبدو ولربما تفاهموا على تحرير تقرير يفيد أن التبليغ لم يكن دقيقاً. انعطف الى الجهة اليمنى سائراً بمحاذاة جدار المقبرة. الجدار الفاصل بين مملكتي الموتى والأحياء. مر بمتنزه واسع قد تجردت أوراق أشجاره بالكامل ربما كان مقبرة احتياطية تنتظر وقت حرب أو كارثة محتملة، فهم هنا يحتاطون لكل شيء. كم مرة فقدت هذه الأشجار أوراقها وهو في هذه البلاد؟ وكم مرة ستبقى تفقد أوراقها وهو في هذه البلاد؟ القى بجسده المنهك على أقرب مقعد. واستغرب كيف أنه غفى ساعات فلم ينتبه الا والظلام قد غزى الآفاق. كان المتنزه كئيباً وموحشاً ورغم سعته الا أنه خلى حتى من زاوية واحدة قادرة على إخفاء جسده حتى الصباح. داهمته موجة يأس من كل شيء، ترى أي أمل يدفعه للاستمرار بالحياة؟ استل هاتفه النقال وحاول الاتصال بسيناي آملاً بخيط

ضوء يبدد العتمة التي وجد نفسه فيها فلم يردّ أحدٌ. كان حتى البارحة فخوراً بقراره مغادرة حياة الرخاء في بيت ماركيتا طواعية لكن هذا البغل ما زاروني أفسد عليه حالة الزهو تلك، كأنما كان يريد أن يُعيده الى الحجم الذي قررت الأقدار أن يكون عليه: المشرّد مسلوب الارادة الذي تتلاعب به الظروف. عليه الآن الابتعاد عن الأنحاء الخالية القصيّة حيث كراجات تصليح السيارات، المنطقة المحددة سلفاً كمأوى يلجأ اليه المطلوبون والعمال غير الشرعيين. تجاوز منطقة الخطر بعد قرابة ساعة من المشي، ولكنه الآن جائع ولابد من "استعاره" قطعة خبز من سوق ألبرت هاين. عدّل من هندامه ومشط شعره بكف يده ليقترب من شكل متسوق لا متسول. في ظهر السوق لفتت نظرة عربة قمامة كبيرة جديدة بلونها البرتقالي. آه اللون البرتقالي هو شعار الدولة هنا ولقب العائلة المالكة. ضحك من مفارقة أن يحدث ما شاهده الآن، في بلد من البلدان النائمة: عندما يكون لقب الملك أو الرئيس البرتقالي هل يمكن أن تكون عربة القمامة برتقالية اللون؟ مستحيل. هذا هو المجتمع المتقدم، كل شيء هنا محترم حتى حاوية القمامة التي تحافظ على لونها الملكي. كان واضحاً ان العربة ملك للسوق إذ أن ذوات اللون البرتقالي مخصصة في العادة للبلاستك. مر بمحاذاتها بالضبط لحظة كان أحد عمال السوق يحمل دلواً مليئاً بقشور وبقايا فواكه وخضر ليلقيها في جوفها في صدفة كشفت له عن فضاء كبير نصف فارغ وفتحة واسعة مريحة. ابتسم للعامل محيياً فرد العامل بتحية نهاية الأسبوع "فاين فيكند" نهاية اسبوع سعيدة! وهل يعرف هو أي يوم

من الأسبوع هو اليوم؟ مع ذلك رد على العامل مثل من أنهى اسبوع عمل ومضى يتمتع بالعطلة.

# 7

احتلت حاوية القمامة فضاء رأسه، أغراه المكان أولاً بموقعه اللائذ بمؤخرة السوق وطرح على نفسه سؤالاً جوهرياً: أيهما أكثر أماناً ودفئاً الشارع أم هذه العربة الفسيحة المستقرة؟ لقد حسم مبيت الليلة! دار دورة حول مبنى السوق وقرر قبل كل شيء البحث عن قطعة كارتون كبيرة سيجعلها فاصلاً عن رطوبة الخضار ووجدها، فركنها الى جانب العربة ومضى متسكعاً في الطرقات، وقد رد اليه بعض الشعور بالاستقرار. في كل حال هو يعرف أين وكيف سيبيت هذه الليلة. لن يسرق الخبز من السوق. سيصبّر معدته، سيجد ما يأكله في جوف الحاوية!

بعد أن حل الظلام ودمس، عاد مراقباً الشارع وقد خلى من المارة، دسَّ قطعة الكارتون من فتحة الصندوق ثم رفع غطاء الفتحة وظهره الى جدار مبنى السوق ووجهه باتجاه الشارع أمسك بالحافة الدنيا بيده اليسرى ورفع رجله اليمنى خافضاً رأسه كي لا تلفت قامته الأنظار، ثم خلال ثوان معدودة القى بنفسه الى القعر فوجد نفسه ينام على الكارتون الراقد على ركام من بقايا الطماطم والبصل والبرتقال المتعفن. هذه هي روائح فراشه التي استطاع تمييزها في الليلة الأولى. لم تكن فكرة النوم مع القمامة فكرة خالصة من ابداعه، لكن اكتشاف عربة قمامة السوق كان اكتشافاً خالصاً له. كان تعرّف على عالم صناديق القمامة فجر أحد الأيام عندما ترك

باكيت الكرتون على الرصيف وقام ناهضاً فرأى زميلاً مشرداً آخر يخرج من عربة ضيقة للأزبال والنفايات عالقة بشعره كما في عملية ولادة:

يا صديقي المطرود

كلنا جئناها عابرين من درب الأوساخ

الطفل قاصداً ابويه

وانا وانت للشارع!

وبعد أن توطدت علاقة الزمالة مع هذا المتشرد سمع منه عن الفروقات العضوية بين العربات، فالمخصصة للبلاستك تتميز بقلة وساختها وجفاف محتوياتها مما يؤهلها لأن تكون بيتاً ممتازاً، لكن أكثرها ملائمة لأن تكون غرف نوم راقية هي عربات الورق والكرتون. هذه حلم مستحيل التحقق بسبب ضيق بوابتها:

– الأغبياء يضيقون فتحتها تفادياً لأن يحرق أحد المشاغبين محتوياتها بينما حريق البلاستك أكثر تلويثاً وسهولة. حتى لو كنت قطة صغيرة سوف لن تتمكن من ولوج حاوية الورق! لكن، لكي يكون نومك في الحاويات آمناً انتبه للوقت! الدخول المبكر يعني زيادة احتمال أن تُغطًى بالأزبال اللزجة التي تتوالى عليك بلا وقت محدد، هذا ليس هو أسوأ ما يمكن حدوثه، فالخروج المتأخر منها بسبب النوم الثقيل مثلاً قد يعني أنك قد

تفرغ مع القمامة في الشاحنة، وإذا صادف حظك النحس أن تكون الشاحنة ممتلئة فلا تستطيع الطرق على جدرانها ولا يلتفت العمال لوجودك، ستنام تحت أطنان من القمامة في المجمع الرئيس. سوف لن يسمع صراخك أحد. هم يفرغونها في وقت بين السابعة والتاسعة، ولكنهم قد يأتون في السادسة!

اكتشاف عربة أزبال السوق، إنجاز حياتي كبير يمكن مقارنته بإنجاز الإنسان القديم، تدجين الحيوان أو اكتشاف النار. هذه الهبة الربّانية ليست كعربة الأزبال التقليدية المركونة في تقاطعات الشوارع، بل فريدة من نوعها بكل ما توفره من مزايا لوجستية ومعاشية كثيرة، اولها محتواها الذي يوفر الطعام المجاني. ليس كل ما يلقى كقمامة هو من المتعفنات ومما لا يصلح للأكل. رغم الظلام الدامس، عرف ذلك من الليلة الأولى حين شعر بالملمس الناعم لنايلون التغليف فالتقط بضعة منها ودسها في جيبه. بعد أن خرج فجراً من العتمة رأى أكياساً تحوي شرائح لحم وجبنة مغلفة لم تنته صلاحيتها بعد، وعثر فيما بعد على خيار مغلف بالنايلون. بلاد خير. غير هذه المزايا الفريدة، هناك ميزة "وقت العمل". فأوقات القاء القمامة تتحدد بأوقات عمل السوق فلا خشية من كيس مليء بالأوساخ يلطم الرأس فجأة في منتصف الليل. آخر الميزات هو ابتعادها عن البيوت، رغم أن حلول الظلام يحوّل المكان المحيط الى قاعة لاجتماع القطط لكنها، لحسن الحظ، سرعان ما وعت أن منافساً قوياً قد حلّ، فانصرفت باحثة عن مكان

آخر. أجمل الأوقات وأكثرها إثارة لامتنانه هي الليالي الممطرة، عندما يوقظه في عمق الليل الصامت قرع رشقات المطر على السطح المعدني فيشعر بالأمان ويخاطب نفسه مبتهجاً وهو ينام على أكوام الخضر والفاكهة: "تخيل لو كنت الآن داخل باكيت كارتون يتسرب لعظامك بلل الليل القاطع!". كثيراً ما كان أثناء استلقاءه في الجوف البارد، أيام الخريف خاصة، يتذكر أيام العز في بيت ماركيتا، اللهب المشع في الموقد، الكلبة بايكا التي كانت تشعره بأهميته حين تغار من انجذاب صاحبتها له، البيانو الذي كانت ماركيتا تتحدث عنه أكثر مما تعزف عليه. آه لو لم تكن العجوز على ذلك الاتقاد، ما كان أجمل أيامه. لكنه الآن تآلف مع غرفة نومه الجديدة، هو سيد هذه العربة بلا منازع أراد أن يحتفي بتمتعه بخصوصية المكان فقصد ذات نهار خريفي محلاً لبيع الكتب القديمة، وكان يتوق لإعادة قراءة الكتب عن حياة التسول والتشرد بعد سلسلة جولات عثر على ثلاثة منها. وضعها في كيس بلاستك ومضى سعيداً.

من مكان غير بعيد عن عربته، تصل أذنيه كل فجر ايقاعات الحياة بهرولتها المألوفة، أصوات فتح بوابات المخازن، قرع أجراس الدراجات دفعاً للضجر الصباحي، نوادر عمال تفريغ حمولات السوبر ماركت. هذا هو اوان استيقاظ المجتمع وعليه هو الاستيقاظ مثل إنغريد الصبية الخجولة التي ستبدأ لأول مرة في حياتها، أيام تطبيق عملي كعاملة حسابات في السوبرماركت. هي استيقظت قبل الطيور، عليها استلام التعليمات في

الساعة السادسة ثم يدربونها على التعامل مع الزبائن المفترضين، لذلك نهضت من نومها مبكراً مثل راعية في قرية من قرى القرن الثامن عشر. وتجنباً للتأخير، وكما يفعل الفلاح عند مجيئه لموعد رسمي بالمدينة، وصلت قبل ثلاث ساعات من فتح السوق أبوابه والشوارع ما زالت صامتة لم تدسها عجلات الدراجات ولم تقرع حجرها البارد أحذية الماشين الهارعين باتجاه القطارات والحافلات في رحلة السباق اليومي. كان الضباب يملأ أحشاء الدروب فتصاب كما بضيق نفس، حين دارت إنغريد حول السوق كي تتحايل على وحشة المكان وتسرّع من حركة دورتها الدموية وهي تشد معطفها الطويل على خصرها. فجأة خُيّل لها أنها لمحت ما كاد يجمد الدم في عروقها. رأت كما لو أن رأساً بشرياً يخرج بهدوء من فتحة حاوية قمامة برتقالية كبيرة يُعاين المكان بحذر واستطلاع. أعاد الرأس المتحرك يميناً ويساراً الى ذاكرتها مسلسل تيليتوبيس الذي كانت تتابعه بطفولتها، أرض خالية وفجأة يقفز ديبسي الكائن الفضائي الممتلئ مثل كيس صغير، بعيونه الواسعة وأذنيه الأرنبيتين من بيته داخل الأرض الى سطحها! وما أن أحس بها ديبسي حتى اختفى في جوف العربة مثل حيوان أفزعه اكتشاف مأواه. ارتجفت إنغريد فابتعدت مذعورة وبقيت تراقب المكان خوفاً من أن يقفز الكائن ويركض باتجاهها. أرادت الاتصال بأمها لكنها أحست بالخجل فهي لم تعد طفلة تخاف الأشباح، ثم أنها لو أرادت أن تقص عليها القصة ليس بدافع الخوف، ولكن بداعي الغرابة، فأن الوقت مازال مبكراً كي توقظها وستعرف أمها أن الفزع هو ما دفعها الى الاتصال. بعد دقائق برز الرأس

من جديد وعاين المكان ثم حين تأكد من خلوه من المارة، قفز من العربة ومضى بخفة لائذاً بجدار السوق الخلفي فركضت الفتاة المذعورة هلعة بلا شعور الى الاتجاه المعاكس ولم يوقفها الا رؤيتها دراجة هوائية تنعطف من اليمين ناحيتها. أمضت ساعات التدريب شاردة فارتكبت العديد من الأخطاء. صباح الثلاثاء الباكر كان مالك قد غادر غرفة نومه للتو وبعض من قشور الخضراوات مازالت عالقة برأسه ورائحة مختلطة لبرتقال وتفاح متعفن وبصل مهروس تتغلغل في نسيج ثيابه الرطبة. برنامجه اليوم أن يمضي ثلاث أو أربع ساعات في الحديقة ثم يتجه للمكتبة حال فتح أبوابها. في تقاطع الطريق الى اليسار، على بعد قرابة مئتي متر من مكان نومه رأى شبح امرأتين، وخيّل اليه كما لو كانت أحداهما تتجه نحوه لتسأله عن شيء. أبطأ الخطى الى أن أدركته المرأة فحيته بلطف ولوحت له بمجلة في يدها فأيقن أنها من مجاميع التبشير التي تلاحق الغرباء وتجمّل لهم تغيير دينهم لكن أي تبشير هذا؟ الوقت هو بعد الفجر بقليل! همَّ بتسريع خطاه وتجاوزها وهو يردد جملة كان يرد بها على أمثالها:

-لا مشكلة لي مع الله، بل مع البشر!

لكنها واصلت السير مسرعة باتجاهه وهي تقول بصوت عال:

-أنا غير مَعنية بديانتك، بل بأن لا تنام بعد الآن في عربة القمامة!

سرت رعشة في جسده كما لو كان لصاً داهمه أهل الدار. أدرك أن أحداً ما رآه داخل الحاوية. خشي أن تتصل المرأة بالشرطة من مكان الحدث فكان أن صاغت الكذبة نفسها على لسانه بسرعة مذهلة:

– أنا أنام في عربة أزبال؟ كيف يمكنك تصور ذلك يا سيدة؟ سقطت مفاتيحي فيها أثناء ما كنت أروم إلقاء بعض القمامة فكان لابد لي من النزول والبحث عنها هناك.

لكن المرأة ابتسمت بحنان وهي تقترب منه حتى كاد رأسها أن يلامس رأسه وهمست:

– وهل وجدت المفاتيح التي سقطت منك يوم أمس أيضاً؟ لقد رأتك إنغريد!

معنوياته الآن منحطة. ضئيلة الى أقل ما يمكن أن تبلغه معنويات من ضبط للتو خارجاً من عربة قمامة ورأته إنغريد! من هي إنغريد؟ لا شك إنها البنت التي ترافقها، كل شيء قد كُشف الآن، هل سيطلق ساقيه راكضاً منفلتاً من بين يديها؟ وإذا صاحت في هذا الفجر كما يصيحون في بلاده: حرامي.. حرامي. خاصة وأن الفجر هو الموعد التقليدي لإتمام الحرامي مهامه؟ كلا هذا ليس حلاً. رسمت المرأة علامة الصليب على صدرها وهي تتمتم كما تتلو في صلاة:

– السيد المسيح قد أشبع الجموع من خمسة أرغفة وسمكتين، الرب دائماً يرحم الضعفاء إلهنا هو إله الضعفاء. القوي يعتمد على قوته، أما الضعيف فهو الذي يقف الله إلى جواره.

اقترب من المرأة وقال بصوت مخنوق خُيّل اليه أنه يقلد السيد المسيح:

– "إلهي، إلهي لماذا تركتني؟ إلهي في النهار أدعو فلا تستجيب، في الليل أدعو فلا هاد لي".. ما الذي افعله يا إلهي إذا لم أجد غير الحاوية مأوى؟

سالت دموع المرأة بسرعة لم يتوقعها. أخبرته وهي تنهمك في البحث عما تمسح به دموعها أنها من الكنيسة ومهمتها إغاثة المساكين، وأن لا غرض لها سوى تجنيبه هذه العيشة البائسة، وأن أرض الله تسع الجميع. اهتزت مشاعره هو الآخر وشعر أنه على وشك البكاء أيضاً بعد أن سمع دعاء الرأفة بالمساكين، لقد تحول خلال أعوام قليلة الى مسكين دون أن يعي ذلك! لكن بدلاً من إبداء الشكر للمرأة ثارت كرامته في موجة من انتقام وثأر عفوية لم يسيطر عليها فقال:

– أنا لست مستجدٍ ولا متسول مفراو! قانونكم هو من فتك بي! لو كنت أعلم ذلك لمتُ في بلدي..

لم يبدُ أن المرأة قد فهمت ما قال، لكنها رددت مع نفسها، ولكن بقصد إسماعه:

– ما يهمني أنك غير ملاحق بجريمة ما! إذا كنت غير ملاحق، أعرض عليك مناماً لائقاً..

ثم أردفت:

– ليس عندي، بل لدى آخرين. قريب منا، في هذا الحي أرملة مقعدة ضعيفة السمع بحاجة الى أنيس ومساعد في البيت، كلاكما سيكون مرتاحاً!

ما أن سمع كلمة أرملة حتى قفز شبح ماركيتا الى ذهنه بسرعة وشعر كما لو أن يده المبللة قد لمست سلكاً كهربائياً. حار كيف يرد على عرض المرأة – المنقذ، غير المتوقع، فعرض أن يتأكد من درجة اعاقة الأرملة وعمرها مدفوعاً بتجربته المريرة مع ماركيتا فسأل دون وعي:

– هل هي مقعدة تماماً؟ المساعدة فقط في أعمال البيت؟ كم عمر هذه السيدة؟

– لا أعرف بالضبط، هذا هو الاتفاق، المساعدة البيتية ثم مرافقتها الى الكنيسة والعودة معها في أيام الاحد بين الساعة التاسعة والحادية عشر.

– في كل الأحوال. لابد لي من رؤيتها لكي أقرر!

حملقت المرأة بوجهه باستغراب، لعلها تساءلت عن هذا الذي يسكن عربات القمامة ويضع الشروط على عرض أشبه ما يكون بالحلم لمن هو بحالته، وانتبه هو لتساؤل عينيها فقال:

– كما تعرفين، بعض الإعاقات الجسدية تحتاج الى اختصاص وخبرة قد لا تتوفران بي، لذلك وددت رؤيتها حتى لا أخذلها فيما بعد..

ابتسمت المرأة وقالت:

– المهم أنك تتكلم الهولندية وهذا هو شرطها، أو واحد من شروطها الأساسية أما الباقي فلنذهب الآن لنتحقق منه! أنا لن أطالبك بأوراق ثبوتية، بيننا الرب يسوع.

ورفعت رأسها الى السماء ففعل مثلما فعلت لكن منظره كان مضحكاً فهو كان كمن يبحث عن طير تاه في الفضاء. قادته المرأة نحو موقف الحافلة، قطعت له ثمن التذكرة من السائق الذي رمقه بنظرة لا تنم عن ارتياح ثم شيعهما بعينيه الى حيث جلسا معاً صامتين. لم يكن راغباً بالحديث بأي موضوع وكل ما كان يتمناه هو أن يودع بأسرع وقت ممكن وجه هذه المرأة التي ضبطته متلبساً بالنوم في حاوية القمامة. هو يعرف لا شك لو أن الصفقة ستثمر عن استقرار ما، فأن هذه المرأة ستكون هي من أنقذه، لكنه كان، بالرغم من ذلك، يود نسيانها بسرعة، وأكثر من ذلك كان يود أن تنساه هي ولا تنقل قصته الى من ستبرم صفقة الخدمة معه. ترى كيف يمكن للمرء رد اعتباره لنفسه وحمل الآخر، الذي شاهده يعيش بجوف عربة قمامة، على معاملته كإنسان؟ ثم هذا السائق ذو الوجه الشاك الذي خيل له أنه رآه في مكان ما؟ عندما تنطوي على سر يخيل اليك أن الجميع يعرفه. يا لهذا الصباح النكد. كل شيء يسير بدون إرادته منذ ساعات

الفجر الأولى. كان غارقاً بتأملاته عندما نظر بلا قصد الى امام فواجهته المرآة بوجه السائق الذي نقله لنزل سد البقر. لقد داهمت خياشيمه رائحة العفن منذ ان دلف لباب الحافلة! أية صدفة؟ كم هي شاقة رحلته؟ كم يوم صعب مر عليه بين يوم وصوله سد البقر ويوم القاء القبض عليه متلبساً بالنوم مع الازبال؟ تمنى ان لا يكون السائق قد تعرف عليه!

تجاوزت الحافلة بيتاً فخماً من ثلاث طبقات، كان واسعاً منعزلاً كمصاب بالجذام فأشارت مرافقته له:

– وصلنا. هذا هو بيت مفراو دي يونغ، هي تعيش بمفردها منذ ثلاثين عاماً.

– بمفردها في هذا البيت الكبير؟

لم يكن راغباً الحديث لكن الجملة أفلتت منه كأنما بفعل ضغط داخلي لم يكن متحكماً به. ترجّل من الحافلة وشعور بانفراج نسبي يتسلل اليه، فهناك سبب يدعو للاحتفال هو وجه السائق المغادر. لم تكن مقابلة دي يونغ صعبة كما توقع مفترضاً انهما سيبحثان عن كرسيها الأطرش التائه في أرجاء البيت الكبير. كانت هي، برأسها الذي غزى الصلع ثلاثة أرباعه وتناثرت شعرات بيض في الربع المتبقي منه، جالسة على الكرسي تحدق من خلف زجاج الشباك بالشارع كما لو كانت بلا وعي.

صاحت المرأة بها:

– مفراو دي يونغ هذا هو المساعد الجديد يتكلم الهولندية، حسب الاتفاق!

لم يبد على العجوز أنها فهمت صراخ المرأة وارتأى أن يبقى بعيداً وأن يكتفي بهز رأسه محيياً بعد أن تجاهله رأس مخدومته المستقبلية. بعد جولة من الصراخ المتبادل بين المقعدة الطرشاء ومرافقته فهم من براطم المرأة التي انقلبت أن الصفقة فشلت فاتجه الى الباب ورغبة عنيفة تدفعه للانطلاق راكضاً مختفياً من بين أيدي مرافقته، ولكن الى أين هذه المرة؟ كان يشعر كما لو أنه بضاعة بائرة لا يود شرائها أحد فما الذي تريده هذه العجوز التي تحجز كل هذه المساحات الواسعة في هذا البلد الصغير؟ هو لا يبغي منها سوى مترين فقط، سيرتب لها هذا القصر المنيف بغرفه الواسعة مقابل مترين فقط تختارهما هي له لا هو. لعلها تفاجئت بشعره الأسود ففزعت. عجائز القرى لم يرين داكني البشرة من قبل، ربما فقط في أيام سنت كلاس حيث المسكين بيت الأسود بحركاته الخرقاء.

قالت المرأة مبررة فشل المهمة:

– السيدة لم تجدك صالحاً لخدمتها!

رد بلا مبالاة، ولكن بارتياح:

– وأنا أشعر كذلك أنني غير صالح للعمل مع تلك السيدة!

استأنفت المرأة وهي تقرأ بورقة كتب عليها عنوان:

– لنذهب الى بيت آخر، قريب أيضاً. السيد يان ديككر رجل وحيد في الثامنة والثمانين لا يستطيع الكلام، كان مالكاً لمعامل جلود تصنع حقائباً وأحذية وأرائك فاخرة. إذا نجحنا ستكون مهمتك مساعدته في ترتيب البيت، الطبخ والغسل ليسا من مهامك فهناك من يدير ذلك.

تذكر أنه لم يحفظ اسم هذه المرأة التي تتجول برفقته لمساعدته في بيع خدماته الى العجائز الأثرياء، هو يعرف أن اسم ابنتها إنغريد. غريب هذا الصباح، رجل وامرأة لا يعرفان بعضهما يطوفان معاً بحثاً عن عمل لدى أصحاب القصور. سمع المرأة تتكلم كأنما مع نفسها:

– إذا فشلنا مع السيد ديككر سنتوجه للكنيسة ذاتها، على الأقل ستنام هناك..

يبدو أنها أرادت القول "ستنام هناك كما ينام البشر"، لكنها صمتت وأشاحت بوجهها عنه فيما عاودته فكرة الهروب ثانية:

"آه لو أنها لم تلق القبض عليّ في ذلك المكان، آه لو أنها لم تكتشف مكان نومي"!

قاربا دخول معقل السيد ديككر. قصر ريفي كبير وعريق من قصور إقطاعيّ القرن السابع عشر يتوسط بستاناً من أشجار الحور والزان والسنديان يكفي لسكن عشيرة بكاملها، بخيولها، ونعاجها، وكلابها، وخدمها. قبل أن تضغط المرأة على مجموعة أرقام لوح مثبت في أعلى البوابة الواسعة التي صممت قبل مئتي سنة على ما يبدو لدخول وخروج

عربات الخيول، تعالت أصوات فصيل من الكلاب غير المهذبة هارعة باتجاه البوابة بصحبة حارس راح ينهرها ويطالبها بالكف عن النباح. القت المرأة التحية بلغة كنسية تردد فيها اسم الرب خمس مرات على الأقل، قاد الحارس كلابه النابحة الى سقيفة قريبة واستمرا هو والمرأة سائرين باتجاه المبنى.

قالت المرأة وهما يبلغان ضفاف البحيرة في مملكة يان المترامية:

– السيد ديككر يرفض مغادرة القصر الى بيوت كبار السن. ليس بوسع القانون إجباره على ذلك، والكنيسة تولت مهمة إدارة القصر مؤقتاً.

– لا يمكن لأحد لومه، إنه مكان مدهش من الصعب على من عاش به أن يغادره.

– هو يعيش بمفرده لكن المكان كله مؤمّن ومحروس بمجموعة من الحرس والأجهزة المنبهة والى اليسار، هناك عبر هذه التلة الصغيرة يقع سكن...

لم يسمع بقية العبارة، بل انشغل بتفسير معنى: "المكان كله مؤمن ومحروس"، هذه هي رسالة مؤدبة ملخصها: أنك في سجن. فالبيت مؤمن ومحروس! هل كان سيناي على حق عندما قال ستبقى في نظرهم متسولاً يتوجب الحذر منه؟ ولكن أي داع يدعو الآخرين للوثوق به هو المتشرد؟ لقد وجدوه للتو نائماً في عربة قمامة!

قبل أن يصلا باب المبنى كان عليهما المرور بمحاذاة بحيرة ساحرة ذكّرته بأهوار جنوب بلاده، القصب والبردي وأنواع من طيور مختلفة، ثم قطعا درباً ظللته أشجار السنديان والجوز السامقة الى حيث مدخل القصر. تخيّل القصر قبل مئتي سنة، الصبايا الناعمات المترفات المعطرات يتنزهن عبر الممر بصحبة خادماتهن وأكفهن تحرك المراوح اليدوية برفق، والفتيان الضيوف ذوو السيوف المتدلية يتابعونهن بوجد، والعربات المحملة بالدجاج ومعدات الولائم اليومية وانحناءات الخدم، تلك هي عوالم روايات العصور الوسطى. كل هذا انتهى الى الحفيد الذي سيأتي بعد مئات السنين، السيد يان العاشر ديككر الذي يروم هو خدمته. هذا أيضاً دخول بشكل ما من بوابة التأريخ، هو الآن خادم الأمير يان ديككر صاحب معامل الأحذية المتقاعد المشلول. يا للفخر! ولكن. أن تسمع بالأمير ديككرر وقصره، غير أن تدخل القصر. وأن تدخل القصر، غير أن تدخله وترى صاحبه. هذا يشبه أن تُدعى لحفل موسيقى فتلج الممر باتجاه القاعة الفارهة الأنيقة لتجد مجموعة الموسيقيين ركنوا آلاتهم وراحوا يتبولون عليها وعلى الجدران. لا بأس، حتى نبقي على خيط التفاؤل الرفيع لابد من الاشادة بالنتيجة النهائية للمفاوضات فهو لم يعترض، ليست موافقة منه واقتناعاً بمالك على ما يبدو، بل ربما لصعوبة ايجاده الكلمات التي تساعده على الرفض فسكت وتم احتساب صمته وفقاً لقاعدة السكوت دلالة القبول والرضا.

كيف يمكن للمرء وصف حياة تجمعه تحت سقف واحد مع السيد ديككر هذا؟

حسب الاتفاق، كان يتوجب عليه المساعدة البيتية الثانوية مقابل النوم والطعام أي لملمة ملابس يان ذات الرائحة التي تذكر بمعالف الخيول المريضة ودورات المياه المسدودة ووضعها قرب الغسالة في الحمام، ثم حمل الطعام من المطبخ لوضعه أمام يان ديككر، وعندما ينتهي حمل الأطباق الفارغة، ترتيب طاولة الطعام وتنظيف الموقد وتهيئة الحطب ومراقبة الرجل في يقظته.

كانت التعليمات التي تلقاها من امرأة الكنيسة صارمة:

– إضافة الى الخدمة التي تقدمها، الأهم مراقبة السيد المخدوم فهو يقوم بين فترة وأخرى بأفعال قد تشكل خطراً عليه، في هذه الحالة اضغط على زر النجدة ولا تفعل أي شيء آخر. هذا هو الزر!

كانت هذه مهاماً ملفقة، أكيد، فمن يساعد الرجل في ارتداء ملابسه وخلعها يمكن له أن يأخذ المتسخ منها الى الغسالة وبالعكس، ومن يصنع الطعام يمكنه حمله لديككر. بكلمة أخرى لم تكن تلك هي مهامه الجوهرية كما تبين له، بل الشق الثاني وهو: "مراقبة الرجل في يقظته" فهو حسب كلام امرأة الكنيسة غير مؤذ للآخرين، ولكنه قد يؤذي نفسه وغيره في حالات خاصة:

– حذار أن تتدخل فيما يفعل مهما كان، هو إنسان وديع للغاية وغير مؤذ للآخرين، ولكن، إذا ما عورضت رغباته يتحول الى شخص خطر!

الحرص إذن على تمتع يان ديككر بحريته الكاملة في تنفيذ رغباته دون عوائق دون أن يؤذي نفسه هو واجبه الأول! لكن ما هي حدود حرية هذا الرجل ضمن مملكة الفوضى التي شكلها لنفسه وأصر على العيش وسطها؟ وكيف يمكن لأحد السيطرة على شخص مثبت الى كرسي متحرك ومراقبته وسط تلال الأثاث التي جمعها في الصالة الأرضية الكبيرة التي تزيد مساحتها على الألف متر مربع؟ الطابق العلوي يشكل ثمان صالات فارغة تماماً، أفرغت بعد أن عجز العجوز عن تسلق السلم لشلله فأوصى بنقل كل شيء الى الصالة الأرضية لرغبته في التمتع برؤية كل ما يملك. صارت تلك الصالة تشبه سوقاً لبيع الحاجيات القديمة، ثلاثة أسرة تحتل ثلاث زوايا من الصالة وكل منها مخصص لشخصين ومجهز بملاحف وملاءات ووسائد تعود للعقد الأول من القرن العشرين، فيما شغلت خزانة هائلة من الصاج الزاوية الرابعة. في وسط القاعة انتصبت ثلاث طاولات طعام مع كراسيها. كل شيء ينث رائحة العتق والعفن وتتراكم على جوانبه فضلات السنين. على الأرض الخشبية التي امتدت خطوط العفن بين الواحها، تناثرت أحذية قديمة وقمصان وربطات عنق مما كان يرتديه ممثلو السينما في خمسينيات القرن العشرين، وسبعة أزواج من أحذية "الكلومبن" الفلاحية الخشبية الصفر وقرابة مئتي عدد نصف متعفن من مجلة

Elsevier التي تحمل تأريخ سني الستينيات. الدراجات الهوائية التي لعب بها "يان" المدلل في طفولته وأراجيحه تنتظر واجمة قرب نصب خشبي لحصان عملاق مثلوم الاذنين يبدو أنه صنع خصيصاً لتخليد أحد خيول العائلة المفضلة، وبينهما بضع عصي بليارد، وعدد من سهام وأقواس وبنادق صيد من طراز "مكنزي"، وخراطيش غير مستعملة علاها الصدأ وعشرات الثريات البرونزية وستائر الخوص والقماش. كل هذا الحشد من المنزليات، جمع بلا انتظام ليسهم في تشكيل لوحة فوضى لا مثيل لها.

المليونير المخرف يرفض تبديل أي من أملاكه المستهلكة، أو تنظيف الأرض أو السقف، ولا يرضى بإزالة ما خلفته العناكب والصراصر من خيوط وهياكل حشرات منسية غطت السقف. كان يصيح بهم: "نييي" بأعلى صوته فاعتبروا ذلك دلالة على تجاوز الحدود وبلوغ مرحلة الاعتداء على رغباته!

من كل هذا الفضاء الباذخ، حصل مالك على جزء مقتطع في أعلى السلم مقابل الموقد ليشكل غريفة تشبه الزوايا التي تفرز للكلاب أو الحيوانات المنزلية، اختيرت بعناية لتطل على قاعة القصر بحيث يمكنه متابعة مجال حركة العجوز ومكان نومه بدون إثارة انتباهه.

كلما وقع بصره على العجوز اجتاحته موجة ندم على سماحه بأن تمضي الأمور مع ماركيتا الى ما مضت اليه. كان بيتها أفضل فضاء عرفه في هذه البلاد. لقد كانت أيامه هناك ثرّة وحياته تميل الى الاستقرار، فهي امرأة

كريمة مكتظة بالحيوية، قارئة ممتازة ومهتمة بالتفاصيل بشكل استثناني عيبها الوحيد هو أن شغفها بالحياة كان زائداً عن المعقول، وعابراً للأزمنة، والفصول، والأعمار. ترى هل كان ممكناً له أن يبقى معها دون أن يلبي رغبتها المجنونة؟ مثلاً لو أنه لم يهرب، ما الذي يجعله متأكداً أنها ستعيد الكرّة ثانية؟ كان يقول لنفسه بحسرة: كم كان يتوجب عليّ أن أكون سعيداً قبل وقوع الواقعة؟ فهو كاد أن ينسى ملكة اسمها النطق مع هذا العجوز الصامت الواجم الملصوق على كرسيه المتحرك، لا فعل له سوى تقليب صفحات الإنجيل بلامبالاة أو تقليب قنوات التلفزيون بلا هدف محدد، وبكم من الخبث لم يسبق له أن عرفه. كان العجوز ينظر له كي يتحرى رغبته في متابعة برنامج ما، يقرأ ملامحه وبمجرد أن يلاحظ انه يتابع المشهد بانتباه يقفز مثلما يفعل طفل أناني مدلل ويضغط بكفه التي لم تُشل بعد على ريموت كونترول ليغيره الى برنامج آخر.. كان العجوز ينظر اليه وإحساس بالانتصار يرتسم على ملامحه. كان يقول لنفسه محذراً:

هذا رجل ذو قدرة تدميرية كامنة، لو نهض من الكرسي سيحطمني، كيان معجون من الخبث الخالص! ما أغرب الإنسان حين يتقدم في مسيرة الحياة. يعود طفلاً أرعناً.

كان الوقت شتاءً. بعد العشاء، في السابعة، بعد أن يعد الموقد، يتوجب عليه يومياً أن يصعد الى غريفته. يبدأ إعداد الموقد من تنظيفه من بقايا الخشب المحترق وحمل الرماد الى الخارج والإتيان بقطع الخشب من مخزن

الوقود. كانت عملية الإيقاد من أقرب الفعاليات لنفسه. ذات مساء أثارت اهتمامه بقايا أوراق محترقة كانت تخالط رماد الخشب لم يجد لها تفسيراً، فهو يعد الحطب بنفسه، ويلقمه الموقد ويشعله بنفسه، ثم يفرّغ الرماد يومياً، هل كان العجوز يحرق مجلاته القديمة؟ لماذا؟ وهل أن اقترابه من النار مسموحاً؟ ألقى نظرة على المجلات القديمة فلم ير تغيراً على شكل تناثرها على أرض الصالة، من أين أتت الأوراق إذن؟ هل كان ذلك ما أرادت الكنيسة تنبيهه عليه؟ إذا صح ذلك فأن العجوز يمارس عملاً غاية في الخطورة والسخف، فأحراقه الورق في المدفئة قد يتسبب في حريق القصر كله. قرر أن يراقب سلوك يان ديككر بعد انسحابه من الصالة فعزم على أن يضعه في مجال مراقبته من أعلى السلم من وقت العشاء حتى وقت ذهابه الى النوم. استمر بمراقبته ليلتين الا أن شيئاً خارج المألوف لم يحدث، وفي الليلة الثالثة رآه يزحف بكرسيه الى حيث صندوق عتيق كان من المحرمات التي تليت عليه عند مباشرته العمل:

"لا تمد يدك، في كل الأحوال لحاجيات ولوازم السيد ديككر الخصوصية".

رأى كيف أمسك العجوز برزمة أوراق، بدأ يقلبها ببطيء ثم اقترب من الموقد زاحفاً بكرسيه وهو يعض لسانه مثل من ينوي القيام بعملية انتقام، ليلقيها في النار ورقة ورقة! كاد أن يصيح به ثم هبط درجتين في السلم، ولكنه تذكر وصية الكنيسة: لا علاقة لك بتصرفاته.. خشي أن يجن العجوز وأراد أن يضغط على زر النجدة لكنه لم يفعل تركه يحرق الأوراق

الى أن اكتفى وعاد الى مكانه. صباح اليوم التالي ذهل بعد فحصه رماد الموقد، تأكد من أن العجوز الخرف كان يلقي بأوراق نقدية الى الموقد! نعم، وجد بقايا ورقتين من فئة المئة إيرو لم تلتهمهما النار بشكل كامل. كان يوم الأحد هو يوم عطلته. في الثامنة صباحاً يغادر العجوز الى الكنيسة برفقة امرأتين ثم لا يعود منها الا قبل مغيب الشمس بساعة. عندما كان يان ديككر يتوسل ربه في الكنيسة أن يغفر له خطاياه، كان هو يقف مذهولاً أمام مجر الصندوق القديم الذي استل العجوز منه الأوراق البارحة! هناك نامت رزم من الأوراق النقدية مكدسة فوق بعضها، كل رزمة تصل الى سمك خمسة أصابع من فئة المئة إيرو. ارتجف جسده وهو يعاين المال، هل تنتظر هذه الرزم طريقها للحرق في الموقد؟ كل ما يحتاجه هو الفي إيرو لا أكثر، بينما يحرق هذا المجنون يومياً مالا يمكنه علمه! ترى منذ متى يمارس يان ديككر جنونه الغريب هذا؟ كم من الأموال أحرق؟ وإذا كانت النار ستلتهم هذا المال ألا يحق له أن يأخذ منه ما يقيه الجوع والبرد الى أن يتدبر أمره؟ أعاد المجر الى وضعه وهو بين مصدّق ومكذّب لما رآه، عاد وفتحه ثانية في حركة مرتبكة لا معنى لها سوى حيرته في تفسير المشهد الغريب! تغيرت حالته منذ كشفه حرائق المال، لم يتمكن من معرفة سر هذا الوضع الغرائبي ولا المنطق الذي يسير وفقاً له، ولا إذا ما كان العجوز يفعل ما يفعل بوعي أو بدونه، ولا إذا ما كانت الكنيسة أو أحد آخر على علم بهذا السلوك، ولا إن كان يتوجب عليه مفاتحة أحد ما بالموضوع. لم تكن تلك من واجباته وخشي من أن يؤدي طرح الحالة التي

شاهدها الى تخريب عملية بقاءه في القصر وعودته الى حياة التشرد لكنه لم يعد قادراً على النظر بوجه العجوز الذي كان يبدو له أحياناً مثل شيخ حكيم صامت كصمت أبي الهول وأحياناً أخرى كعجوز خرف لا يعي شيئاً مما حوله. لم يكن العجوز الواجم يمارس طقوس حرق المال يومياً ولا حتى أسبوعياً، ولكن وفق حساب عشوائي لم يتمكن من التكهن به ولا متابعته بدقة. فبعد أيام من خلو رماد الموقد من بقايا الورق النقدي وبعد أن تعب من مراقبة العجوز قبل أن ينام، خلص الى أن عملية حرق الأوراق النقدية، على غرابتها وعبثيتها، قد تكون عملية محصورة بوقت وسبب معينين، أو ربما تكون عرضاً لمرض نفسي خاص يعاني منه العجوز ويظهر بشكل نوبات متباعدة. صباح ثاني أحد في العام الجديد، وبينما كان مشغولاً في تنظيف الموقد فوجئ بوجود كتلة ورق نقدي نصف محترقة محشورة في زاوية الموقد فتأكد أن عملية حرق ضخمة قد حدثت ليلة البارحة. لم يتمالك نفسه من الركض باتجاه الصندوق العتيق وسحب المجر فرأى أن ترتيب الرزم قد اختلف عن المرة السابقة، التفت الى اليمين والى اليسار ثم رفع رأسه الى السقف كأنما يطلب من الرب إسعافه بالجواب:

"هل من المنطق والعدل أن يحرق هذا الشيخ الخرف كل هذه الثروة؟"

لما لم يجد جواباً عاد وأغلق المجر وصعد الى زاويته بعد أن شعر بدوار مفاجئ. ما الذي عليه فعله؟ ما علاقته هو بثروة يان ديككر؟ يكفيه من هذه الثروة زاويته الدافئة بدلاً من عربة القمامة، لكن أي عقل يرضى بحرق

أوراق سيحتاجها بعد أيام لإنقاذ نفسه من المأزق الذي ولجه منذ سنين في هذه البلاد؟ لو أن العجوز تبرع بها لجهة خيرية ما، لما وجد في نفسه رغبة بها، لكن أن تحرق وتعدم قيمتها بهذه الطريقة العبثية المستفزة أمر يشبه أن ترمي بوجبة فاخرة الى سلة الأزبال أمام جائع. لم يعرف كيف وجد نفسه ثانية أمام المجر وبدون تفكير امتدت يده الراجفة لأحدى الرزم، رفع الرباط المطاطي وعد ما مجموعة الفي ايرو وأعاد الباقي ثم أغلق المجر. قبض بأصابعه على الأوراق داخل جيبه كأنه يخشى طيرانها وركض بها الى حيث مكان نومه ودسها تحت الوسادة، مكانه السري الوحيد ضمن فضاء القصر. لم تستغرق العملية كلها أكثر من دقيقة واحدة كأنما كان يتوقع عودة العجوز المفاجئة من الكنيسة.

انتهى الموضوع سيغادر القصر بهدوء بعد أن يتأكد من جاهزية الجواز فمن جانبه هو، كل شيء الآن جاهز. لم يشأ تضييع دقيقة واحدة، اتصل بسيناي:

– أود إخبارك أنني جاهز لموضوع "الدفتر"!

لم يكن مسموحاً النطق بكلمة الجواز بالتلفون.

– الدفتر، آه الموضوع تعقد الآن لابد من الصبر شهراً أو شهرين احترس جيداً لا تجازف في الظهور فقد أعادوا الأسبوع الماضي ثمانية من مواطنيك قسراً، إذا كنت محتاجاً لمأوى أعرف مطعماً يحتاج عاملاً لفترة مؤقتة بسبب

مرض أحد عماله الأثيوبيين، ستعد هناك السلطة وتغسل الصحون مقابل النوم والطعام، ولكن شرطهم ألا تظهر للعلن أبداً، هم يحتاجون عاملاً لثلاثة أو أربعة أسابيع فقط كحد أقصى!

– أنا الآن في مكان ممتاز للغاية لا أحتاج لشيء الا الدفتر، يبدو كل شيء مهيئاً من جانبي بمجرد استلام الخبر السعيد منك!

كانت أشجار التنوب الأبرية الأوراق شحبت وجر معظمها الى العراء وكان ورق الألعاب النارية مازال يصبغ الأرصفة بدمه الأحمر، حين أنهى مالك مظاهر العيد الاحتفالية ونقل شجرة الميلاد الى خارج القاعة. بعد أن عاد متجهاً للمغسلة وشعور قلق بالذنب يلعب في حجرة رأسه، فوجئ بغريبين يدخلان الصالة، أحدهما قصير القامة يدفع عربة يان ديككر وكان الآخر الضخم منشغلاً بالرد على مكالمة هاتفية.

بعد أن اجتازا عتبة القاعة دنا أكثرهما ضخامة منه وسأل بنبرة تحقيقية:

– أنت الشغيل؟ ولم ينتظر جواباً فواصل سائلاً وعيناه توجهان له نظرة حارقة:

– أين الفلوس؟

بهت مالك وكادت ساقاه أن تكفا عن حمله. لم يجب بشيء وكان الشخص الثاني يتبادل الكلمات الخفيضة مع العجوز قبل أن يصعد راكضاً الى

حيث مكان نومه وكرشه يترجرج. لم تمض لحظات حتى عاد ملوحاً بيده بالرزمة المالية ووضعها في يد العجوز الذي صرخ بوجه مالك مشيراً الى الباب:

– أوت...!

أراد أن يركض الا أنه تمالك نفسه فاتجه صاعداً لمكان نومه بسرعة وجمع حوائجه على عجل ودسها في حقيبة الظهر ثم انطلق فيما يشبه العدو خارجاً من القصر. لم يفهم شيئاً مما جرى، ضج رأسه بطنين قوي كأنما ضُرب على أذنيه. من اكتشف نصف الرزمة التي خبأها تحت مخدته؟ وكيف وصل خبرها الى هذين الشخصين؟ ومن هما؟ ولأي سبب لم يستدعيا الشرطة؟ كان مشلولاً من المفاجأة ولم يخفف عنه سوى حقيقة نجاته من خطر الاعتقال الفوري. بعد أن تجاوز السور اتصل بسيناي قائلاً بنبرة أقرب للتوسل:

– قبلت العرض! أنا جاهز للعمل في المطعم الذي حدثتني عنه ابتداءً من هذا المساء، إنس ما حكيته معك من قبل، لست مستعداً بعد للدفتر!

طمأنه سيناي بأنه سيسارع للاتصال بالمطعم والاتفاق معهم لترتيب التحاقه الفوري كعامل تعويضي مؤقت، ثم عاد فاتصل به مكرراً التوصية الذهبية بتجنب المبيت في الشارع حتى لليلة واحدة، فالشرطة بدأت حملة كبرى لملاحقة المتسولين وتسفير من ليس لديه إقامة شرعية.

– قبل يومين سفروا ثمانية!

أعاد سيناي تحذيره!

لابد أن ينظر مالك لنفسه كمحظوظ والا فما كان سيفعل لو أنه لم يكن قد اتصل بسيناي هذا الأسبوع؟ ولو أن هذا لم يعرض عليه فرصة العمل؟ قريباً ستنتهي فترة عمله في المطعم الأثيوبي الذي شهد قبل قليل المحادثة المثيرة بين دورين وصديقتها لويزا. دورين التي زارته في عزلته مثل حمامة مبتسمة.

نهضت لويزا أولاً ومضت نحو المغاسل ثم قامت دورين من مقعدها ومررت كفها البيضاء بأظافرها الحمر بين طيات شعرها. علّقت الحقيبة على الكتف. بدا له أنها نظرت نحوه. استلت أصابعها جهاز الهاتف. نظرت به لحظة. قرأت أو كتبت شيئاً ثم اعادته، ربما رسالة قصيرة لحبيبها تقول له أنها آتية، كلا هي لم تُحب بعد. هي تنتظر منقذ ابيها الذي سلب لبها! نظرت نحوه ثانية، تخيّلها ستناديه لتقول له "اسعدتني رؤيتك!"، سيرد عليها بعبارة "أحيتني نظرتك". لا، سيقول لها: "دعيني أراك"، كلا هذا ليس مناسباً، لا هذا ولا ذاك، سيعتذر بتهذيب علّ ذلك يكون فاتحة للقاء: "عذراً دورين أعرف أن ذلك لم يكن من حقي. لقد سمعت القصة كلها بتفاصيلها لأننا، المنقذ وأنا من ذات البلاد وذات المدينة".

لكنها خطت خطوة نحو باب المطعم، وأخرى خارجة منه وثالثة ضيعتها مع صاحبتها في عتمة الليل. مضت الى قصرها الدافئ المنيف بينما يتعين عليه بعد ثلاثة اسابيع البحث مرة أخرى عن مخبأ في زاوية قصية في شارع ما من شوارع هذه المدن الحجرية..

"لا أحسبك ترى هذا عدلاً يا إله الكائنات. ولا أظنك تريد دفعي لحافة الهاوية. لم أت لهذه الدنيا كي أنشغل بمصير يومي. ليتك خلقتني بهيمة أجوب البراري!".

ولم يتمكن من حبس دموعه التي سالت. كان حزيناً والأخيلة الجامحة تجتاح ليله الطويل..

# 8

أعولت الريح تسوق آخر أيام الخريف الذابلة الى تخوم الشتاء البارد، حين كانت دورين تمضي ساعة مملة في سوبر ماركت أجبرها عليها الطقس، عندما انشغلت الريح العاتية بعصر غيمة كثيفة بلون دب رمادي لترش بها الطرقات وتملأ الأنحاء عويلاً وبللاً. في وقت غير مناسب، وهي على دراجتها، دق هاتفها حاملاً رسالة قصيرة فتذكرت أن اجتماعا ينتظرها مع مرشح لوظيفة محاسب. مهمة ثقيلة، فماذا لو أنها أخطأت في تقييم المرشح؟ الكلمة الأخيرة ستكون لها، قبوله او الاعتذار عن قبوله، أي، المجازفة برفد شركة ابيها بمصدر جديد للمشاكل أو ربما قطع الطريق على انسان يروم رصف أول الأحجار في بناء ما يسمى المستقبل. فكيف يمكن للمرء الحكم على آخر من جلسة واحدة؟ غالباً ما كان ضميرها ينتفض في مثل هكذا مواقف خشية الحاق الأذى بشخص لم تتمكن من سبر أغواره، كانت تتجنب القيام بهذا العمل تاركة القرار لأبيها، لكن الأب يقضي الآن إجازة طويلة في جبال هيمالايا. شعرت بالكدر بعد سماعها رنة وصول رسالة فتوقفت وتناولت جهاز الهاتف ممنية نفسها بحدوث ما يؤجل الموعد الى حين عودة الأب فكانت المفاجأة نصاً قصيراً بالإنجليزية:

السيدة "فان بيست". تحياتي، يسرني ابلاغكم أنني أكملت إجراءات السفر، أراكم بعد أسبوع في امستردام الرحلة A567 زهير عبد المجيد (رجل الحادثة مع الوالد).

ارتعدت دورين لهول المفاجأة وصاحت بدون أن تسيطر على نفسها:

لقد نجحنا.. ابي لقد نجحنا، عثرنا على الذي أنقذك!

لم تتحمل وقع الخبر المثير بمفردها، فقد كان حلماً أن تتمكن من التعرف على الذي أنقذ أباها وتُوفق في استقباله وتكريمه. هرعت الى بيت صاحبتها لويزا وهي التي شاركتها الأمل بتحقق هذا الحلم الغامض اللذيذ الذي كان يقترب بنظرهما من أقاصيص القرون الوسطى، حالما قرأت الرسالة قفزت لويزا صارخة:

– واو. كم أنا فرحة. في النهاية تحقق حلمك، ولكني آسفة للغاية ستستقبلينه وحدك!

– ستتركينني بمفردي بمواجهة بطل الفيلم! كان احساسي قوياً أنه سيأتي!

– ربما يكون هذا أفضل، أن تكوني وحدك، سيهبط فتى الشرق الوسيم من طائرته البيضاء ويراك فيصيح "يا إلهي ما أجمل هذه المرأة"؟ ومن يدري؟ كم أتمنى أن يكون فتياً..

قالتها ضاحكة وهي تهرب من أمام صديقتها التي ردت على مزحتها مهاجمة ناوية مسكها من شعرها القصير. كانت لويزا تحاول دفع صديقتها الأثيرة دورين الى نسيان تجربتها العاطفية السابقة التي انهارت انهيارا مدوياً بعد أن اكتشفت أن شريكها، وهو موظف مرموق في إحدى شركات أبيها، عنصر مهم في شبكة مافيا تتاجر بالمخدرات وتختلس بانتظام من مال الشركة، حتى أن لويزا حاولت بشكل ما تقريبها من أخيها روب الا أن دورين بقيت تتعامل معه بجفاء ورسمية واضحين.

– إذن اسمه زهير عبد المجيد، ليس هذا اسماً رومانسياً، لكن الأسماء لا تعني شيئاً على كل حال، يمكنك مناداته زوزي!

تمتمت لويزا التي ستعود الى نيويورك الأسبوع القادم ثم أضافت:

– متى ستصل الطائرة؟

– حسب الجدول الثابت، إذا لم يتغير شيء، بعد منتصف الليل!

– توقيت سيئ، هل أكلف روب بمرافقتك؟

ردت دورين ضاحكة:

–لا، لا أشعر بحاجة لذلك، أنا سأستقبل بطلاً أنقذ رجلاً من أيدي أربعة خاطفين فهل أخاف من الخطف؟ عليّ الآن أن أتفق معه على علامة تعريف كي لا يضيع منا ثانية.

عادت دورين فرتبت شقتها الصغيرة بانفعال لتستقبل ضيفها. رسمت مخططاً لتعريف الضيف على معالم بلادها وهي تعوم على سطح بحيرة من الفرح. في المساء المحدد احتاطت فوصلت المطار قبل ساعتين من هبوط الطائرة، حاملة معها العلامة التي اتفقت عليها مع زهير وهي لوحة كتبت عليها اسمه ولم تتمكن من تفادي اقرارها أمام نفسها بأنها منفعلة، نعم منفعلة للغاية وكأنها ستلاقي أحد نجوم السينما العالميين.

هبطت الطائرة وتوالى بعد قرابة نصف ساعة خروج المسافرين من البوابة الوحيدة، ولكن الضيف لم يخرج. كادت أن تيأس بعد أن سكنت الحركة أمام باب قاعة تفتيش الجوازات في مطار العاصمة وبدا أن آخر القادمين قد خرج، لكنها أقنعت نفسها بأن السيد زهير عبد المجيد قد أستوقف للتدقيق في وثائقه وصحة الدعوة الموجهة له. عزمت على التوجه الى مكتب استعلامات المطار للاستفسار وبيدها صورة لورقة الدعوة المفتوحة التي بعثتها الى السفارة، بذات اللحظة خالجها خاطر مقلق أن يكون الضيف قد خرج من الباب وضاع منها، كم ودت أن يرسل لها صورته كي تتمكن من تمييزه!

"لا اعتقد أنه سيضيع، فالموجودون قلائل، ولكن الأهم هو أننا نستطيع التفاهم بالإنجليزية، وقبل هذا كله المهم أنه سيصل!"

قالتها لنفسها مواسية واستدارت باحثة عن لوحة ترشدها لمكان مكتب الاستعلامات. مشت خطوات باتجاه سهم يشير الى مكتب شرطة المطار فباغتها وجود شخص وراءها لم تنتبه له قبل الآن، إستدارت بتلقائية فوجدته ينظر لها ملوحاً بورقة كتب عليها اسمه فصاحت:

–أخيراً، السيد "سهير" عبد المجيد، أنا دورين فان بيست ومدت يدها مصافحة ثم سألته:

– من أين خرجت؟ كدت أيأس، لم أرك، هل هذه هي أمتعتك كلها؟ أليست لديك حقيبة أخرى غير هذه الترولي الصغيرة؟

لكن الرجل الملتحي ذا الملامح الوسيمة المتعبة، الذي قدرت دورين عمره بنهاية الثلاثينيات كان ذاهلاً وشارد الذهن كمن لم ينم لأسبوع كامل. مد يده وحمل باقة الورد بدل مصافحتها وهو يقول بالإنكليزية:

– شكراً، جميلة، هي، هذه، هل، هذه، ورود، هولندية؟

ارتبكت ملامحها قليلاً وسألت:

– هل تشكو من شيء؟ أراك متعباً؟

لم يجب بكلمة فزاد ارتباكها. أبكم وشارد ذهن فعلَ كل ما فعل؟ هذا لا يصدق! خيبة أمل غير متوقعة وشيء يشبه الصدمة! كان عليها قبل كل شيء دفع أجرة وقوف سيارتها فأشرت له بيدها بلطف لكي ينتظرها بمكانه

واتجهت لبوابة الكراج. التفتت له بحركة لا إرادية ففوجئت به راكضاً لاحقاً بها حتى كادت ترتطم به. كانت حركاته خرقاء مثل طفل معتوه. لاحظت أنه لا يتمكن من ضبط إيقاع خطواته ولا كلامه، لم تعرف الطريقة الصحيحة للتعامل معه، كل شيء فيه مرتجف كأنها المرة الأولى التي يقترب بها من بشر. ربما يكون هو هكذا، معوّق وغير قادر على النطق، نعم وربما أنقذ اباها في واحدة من المجازفات التي لا يخوضها سوى من هم على شاكلته! بدا الضيف حديثاً مبعثراً منهمكاً بالبحث عن الكلمات ليصف اضطراب مواعيد الطيران، والظروف، والمصادفات السيئة. وعندها قالت بإنجليزية تعمدت أن تكون بسيطة:

– آه، لذلك تأخرت!

– نعم، تأخرت. أنا.

بقي ينظر الى الأعلى بعيون زائغة، كمن تعطلت أذانه وحواسه كلها في الدقائق الأولى فهو لم يسمع ولم ير ولم يفهم شيئاً كما بدا لها. عندما وصلا الى السيارة وربطا حزام الأمان مغادرين المرآب، قالت بزهو محاولة أنسنة الجو بما يهدئ من روع ضيفها الذي كان مثل حيوان أفلت من شرك لكنه غير واثق تماماً من زوال الخطر:

– ها أنت وصلت! هل رأيت؟ كانت فكرة الأعلان فكرتي، وها قد برهنت على نجاحها بعد أن كدت أيأس!

بقي زهير شارداً مع أخيلته ونظر لها ببلاهة مثل خروف مصاب بالطرش. أثارت نظرته فضولها فسألته:

– أرجو ألا يكون الاعلان قد سبب لك إحراجاً؟ أراك متضايقاً هل تشكو من شيء؟

انتبه كمن عاد من أعماقه مذعوراً مثل حلم سقط في شراك اليقظة.

رد:

–لا، لم تكن هناك أية إحراجات..

ابتسمت دورين ملاحظة أن ضيفها بدأ يعود من شروده فهو نطق أخيراً جملة سليمة كاملة:

– لكن صدقني، ذلك كان آخر الحلول من أجل أن نتصل بك، ولم نلجأ اليه الا لما تأكدنا أنك لم تترك شيئاً عنك في السفارة فاتجهنا للاتصال بالصحافة. أول الأمر أراد والدي النشر بالتلفزيون لكننا اخترنا بعد جدل طويل النشر في الصحف الثلاث الكبرى بناء على نصيحة السفارة ثم اللجوء للتلفزيون إذا لم تجد المساعي نفعاً. وحتى صيغة الاعلان تطلبت جدلاً طويلاً الى أن اتفقنا على صيغة:

"نرجو السيد الذي شهد الحادث الحاصل للمواطن الهولندي" بيتر فان بيست" صبيحة يوم كذا مراجعة السفارة الهولندية بالسرعة اللازمة أو

الاتصال بها لاستلام مكافأته وتسلم رسالة التقدير الخاصة من عائلة السيد فان بيست بعد تقديم الأدلة الثبوتية".

وآثرنا إبقاء الاعلان يتكرر لفترات متقطعة وكما ترى فأن صيغته واضحة القصد وموجهة فقط لمن شهد الحادث أي أنه غير مفهوم الا إذا قرأته أنت. لا زال يتكرر كل اسبوع لأننا أردناه أن يبقى ستة أشهر.

زعق الضيف مرعوباً:

– ستة أشهر؟

– نعم أردنا أن تثمر المحاولة بعد أن فقدنا الأمل.

– ولكن، ولكن. متى بدأ نشر الاعلان؟

– قبل شهرين!

– أرى أن نتصل بالصحف ونبطله!

– لا أجد ضرورة لذلك فالأجور قد دفعت مقدماً ولن نكسب أو نخسر شيئاً ببقائه.

– كلا ذلك ضروري لأني أخشى..

قال زهير جملته الأخيرة ولم يعرف كيف يتمها فسألت ضاحكة ومندهشة:

– تخشى من ماذا؟ من أن ينافسك آخر وينتحل شخصيتك ويأخذ الجائزة؟ لا تخف الابطال لا يمكن استنساخهم، أنت جئت وانتهى الأمر!

قفز ثانية كمن مسته نوبة عصبية ثم عاد فسكن وقال بصوت مضطرب:

– آه كم كانت الظروف مربكة..

ضحِكتْ دورين لتبديد غرابة الجو ثم أردفتْ:

–إنجليزيتك ممتازة لم أتوقع ذلك!

– أنا عملت سنتين مع شركة بريطانية تصنع المطابع. ومنهم اشتريت مطبعتي..

بدت المرأة اقل كدراً:

–واو ..."خَويلدخ" بصراحة خشيت أن تكون اللغة عائقاً بيننا. أنا سعيدة. سعيدة للغاية.

– نعم، واضح، وأنا سعيد باستقبالكم لي..

رغم أن أجوبته لم تكن تلقائية وكان يبذل جهداً ليرد على أي سؤال، الا ان علائم الضيق بدأت بالانحسار عن وجهه. لسبب ما كان يتحاشى إعادة قص ما جرى له هناك. كان واضحاً أنه يتحدث كمن يريد قطع الطريق على أية أسئلة أو ربما لأنه لا يريد العودة الى ما يذكره بالبلاد ولا الى

الأحاديث عنها. ربما تغيّر عليه كل شيء، الجو، والهواء، واللغة، وإيقاع الحياة فهي المرة الأولى التي يبتعد بها عن بلاده! هل هو مريض؟ مضطرب؟ أم أنه خائف من شيء ما؟ هارب من موقف ما؟ بعد برهة صمتٍ، قال ويداه تحيطان رأسه المتحرك الى اليسار واليمين:

– بعيدة هولندا، سفرتي كانت كرحلة ارمسترونغ للقمر!

ضحكت دورين من حركة رأسه وقالت مشجعة:

– أمستردام على بعد خمس ساعات فقط!

– هذا ما ترونه أنتم أما ما نراه نحن فأن أمستردام تقع في مكان ما في مجرتنا قرب القمر أو أبعد!

قهقهت بعد أن أحست بعودته الى الاقتراب من الصورة التي رسمتها له في ذهنها، فحاول مجاراتها بمط شفتيه الى أقصى ما يمكن:

– واستعنت بأعداد من الوسطاء للحصول على المعلومات من السفارة. الوضع هناك معقد، معقد غاية في التعقيد، وفي الحقيقة طلبت فقط معلومات للاتصال واكتفيت بتلفونك!

– لم أفهم، هل يعني هذا أنك لم تقدم طلب الفيزا بناء على دعوتنا؟

– بلى، قِدمْت الى هنا بدون دعوة، بفيزا تجارية، أنا عرفت بطريقة ما أنكم بحثتم عني منذ البداية، ولكني كنت في طريقي لرحلة لأوربا، فلم تكن لدي مشكلة في استحصال الفيزا. بصراحة هناك مافيات متغلغلة في كل زاوية ولم أشأ ترك أية معلومات عني هناك.

– أها..

قالت دورين وملامحها تدل على استيعاب قليل لما قال ثم عادت لتبين عدم فهمها الجملة:

– قلت "أنك عرفت أننا بحثنا عنك منذ البداية" متى منذ البداية؟

لم يكن على الأرجح مهيئاً لهذا السؤال، فأجاب بكلمات متقطعة كمن يود إعطاء دماغه الوقت:

– نعم، منذ الحادثة، وأنا، بالحقيقة، أحرص بكيفية ما، على ألا أترك أثراً..

– لكن هل كان وصولك لمبنى السفارة صعباً؟ السفر تلبية لدعوة فيه مزايا كثيرة..

وقبل الرد عليها صرخت فجأة:

–آه.. يا إلهي..

أختل توازن السيارة بين يديها حتى كادت تنقلب ومال جسم زهير مهتزاً الى اليمين والى اليسار بقوة لتلفح خصلات شعر الفتاة الأشهب وجهه فصرخ بدوره مفزوعاً:

– ما الأمر؟

–يا لحظي التعيس يمكن أن أكون دهست المسكين!

– من؟ لم أر أحداً في الشارع كان فارغاً.

أوقفت السيارة على جانب الطريق بعد أن أنارت مصابيح الطوارئ وهرعت الى الخلف تبحث في العتمة فنزل الرجل على إثرها هلعاً عندما رأى ضوء الطوارئ البرتقالي ينبعث من زوايا السيارة مذكراً إياه بسيارات الشرطة، لحق بها وهو يكاد يصرخ:

– سيدة فان بيست لم تدهسي أحداً، لم أر أحداً في الشارع كان فارغاً، من تراه سيقطع هذا الشارع الريفي في هذه الساعة؟

– كلا، أنا رأيته!

– كيف يمكن أن ترينه ولا أراه؟ ثم أن السيارة لابد أن تتأثر بالارتطام فنحس الاهتزاز أنا لم أحس بشيء!

– كيف تتأثر السيارة هو ليس فيلاً، أرنب صغير رأيته يمرق بسرعة أمامي ولم أتبينه

صاح الضيف باندهاش:

– أرنب؟ أوقفت السيارة من أجل أرنب؟ عندنا لن يمر يوم دون أن يقتل مئة شخص

– أرجوك لا أود سماع ذلك، لا أعرف كيف يعيش الناس هناك. الآن عاد لي الأمل أنه تسلل من بين العجلات.

عادا للسيارة وقد أحست بمرافقها قد تغير بعد حديث الأرنب فتلت على أسماعه شيئاً عن المدينة الغافية:

– المسافة من امستردام الى أيندهوفن أكثر قليلاً من مئة كيلومتر، سنصل بعد قليل. لابد أنك سمعت باسم مدينة أيندهوفن، هي أيضاً من مدن هولندا الكبرى، فيها مقر شركة فيلبس هل لديكم منتجات فيلبس؟ وفيها ملعب نادي PSV، واحد من أقدم ملاعب هولندا تأسس عام 1910.

أغلق أذنيه بحركة لا إرادية فانتبهت وسألته باهتمام:

– ماذا جرى، أتشعر بالصداع؟ أراك متضايقاً هل تريد التوقف قليلاً لتستنشق الهواء؟

– ها، لا، الصداع، نعم، الصداع، ربما لأنني جلست قرب المحرك وكانت الطائرة قديمة حتى أني خشيت أن تسقط!

– لو أنها فعلت ذلك لكانت أجرمت بحقنا تلك العجوز.. أنا وأبي وغيرنا.

لم يبد عليه أنه فهم فسأل بسذاجة:

– أية عجوز؟

– الطائرة العجوز الم تقل إنها عتيقة كادت تسقط؟

فتح الضيف فمه ببلاهة فبادرت دورين الى تغيير الموضوع:

– شقتي في بلدة صغيرة لا في المدينة.

– نعم، هذا ممتاز أنا أحب القرى.

– لا ليست قرية، هي بلدة لكنها أصغر من أيندهوفن، مع ذلك لدينا بيت في القرية...

كل من يرى زهير في تلك الساعة سيحس أن خوف من عاش الأهوال مازال يسكن أعماقه. لقد تعطلت حواسه عن العمل. كان مثل كائن آلي لا مشاعر وعواطف له. ولا كأنه غادر بلاده قبل يومين وهو الآن في بلاد أخرى، كأنما أتى به طائر عملاق ليلاً والقى به الى جانب دورين.

رمقته بنظرة عميقة:

– "سهير" هل لي أن أسال عن عمرك؟

– كم تقدرين؟

ردت ضاحكة:

– بين مئتين وخمسمئة وخمسين سنة!

– سبع وعشرون سنة.

– ماذا؟ أكبر مني بثلاث سنوات فقط! حسبتك في نهاية الثلاثينيات! ربما بسبب هذه اللحية الطويلة الكثة.

– أنا متعب، متعب جداً وربما كنت مريضاً أيضاً، ولكن..

– سنصل قريباً وترتاح، المهم أنك وصلت وأنا سعيدة للغاية لوصولك!

– كيف حال الوالد؟ وددت أن أراه معك في المطار!

سألها بصوت حيادي، ولكن مثل من عاد لنفسه من رحلة طويلة.

– آه أبي، هو يمضي الآن إجازة شهرين في جبال الهيملايا. هو هكذا نشط دائماً كالسمكة. الى الآن يتحدث عنك مع الجميع، وبعد عودته نظم أمسية خاصة في مقر الشركة للحديث عن اختطافه وتحريره. لقد أصبحت

بطلاً معروفاً في هولندا، لو أنك أتيت قبل اسبوع لرأيت صديقتي لويزا معي، هي صديقتي المقربة وكانت متلهفة حقاً لوصولك لكنها سافرت الى نيويورك.

قالتها ضاحكة ثم استطردت:

– حاولت أن أتصل بأبي قبل وصولك لكني بصراحة خفت ألا تأتي. سأبعث له صباحاً أعلمه بوصولك، أتعرف ستحقق له واحدة من أمنياته وربما اختصر إجازته وعاد!

– لا، لا، لا داع لذلك، الإجازة ضرورية، انقلي سلامي له.

– كلا، ستحكي أنت معه مباشرة قبلي، سأجعلها مفاجأة له. علامتان فقط استطاع أن يلاحظهما فيك بعد حادثة الاختطاف هما طولك وصوتك، كان يقول "صوت هذا الرجل له رنين خاص سأميزه من بين مئة وأكثر..".

قفز الضيف من مكانه لكن حزام الأمان أعاده الى الخلف وأدارت دورين رأسها باتجاهه سائلة:

– هل تجلس بوضع مريح؟ ربما سقط برغي أو شيء ما على الكرسي، أمس كانت السيارة في الكراج للتصليح..

رد بانفعال:

– لكن محال أن يتعرف الوالد على صوتي! لقد كنت ذلك الفجر الرهيب مرتبكاً وخائفاً حتى أني لو رأيت الوالد الآن لما عرفته.

– لكني أتدرب منذ رأيتك على هذا الرنين دون جدوى. يبدو أن لا موهبة لدي في معرفة خصائص الأصوات، فأنا لا أتمكن من سماع ما يميز صوتك! أبي أيضا كان مرعوباً من الحادثة وعندما سألناه عنك وأوصافك قال إن وجهك كان مغطى تحت اللثام حتى أنه خاف أول الأمر أن تكون أحد الخاطفين، لكن صوتك بقي في رأسه!

– نعم، ما مر به كان مهولاً، هل انتبه لتعمدي اخفاء وجهي؟ كنت لا أريد أن يرى ملامحي أحد!

– لكنه أكد أن صوتك ما زال يرن في أذنيه! احك معه قل له: هل تعرفني؟ حتماً سيتذكر صوتك!

– صوتي لا، مستحيل. حتى صوتي كنت أحاول قولبته للحديث بإنجليزية مفتعلة خوفاً من أن يشخصني. أنت لا تعرفين بغداد، ثلاثة أرباع سكانها من الملائكة ونصف الربع الباقي أناس لطفاء والنصف ربع الأخير من الشياطين وقد عاثت الشياطين فيها فساداً حتى غطى ما يفعلون الآن على جهد ألف عام من الحضارة.

– بل أنها بلاد رائعة تلك التي تنجب الشجعان الشرفاء، كم أتوق لزيارتها! مجرد مجازفتك بحياتك من أجل إنقاذ رجل أوربي لا تعرفه يجعلني أسجد لذكر اسمها!

غص زهير بريقه ولم يتمكن من تفادي موجة سعال وعطاس عنيف، تماماً عندما أوقفت دورين السيارة أمام بناية من طابقين وقالت ضاحكة بصوت خفيض وشفتاها تقتربان من أذنه:

– أكمل عطاسك في السيارة. ربما هناك تسري قواعد أخرى، هنا الناس حساسون من خرق هدوئهم الليلي لذا سننقل خطانا بهدوء. أتمنى أن يكون لديك من الطاقة ما يمكنك من الصعود الى الطابق الأعلى فليس بمقدوري حملك!

غرقت خياشيمه بضوعها وكانت البناية تنام بهدوء قبيل الفجر. فتحت الباب الرئيس وصعدا السلم المعتم ثم دخلا الشقة بهدوء ودلته بسرعة على أقسامها ومكان نومه والحمام ثم المطبخ:

– تصرف كما لو كنت في بيتك إن كنت غائبة. الشقة مجهزة بكل ما تحتاج، هل تود تناول شيئاً الآن أم تنام؟

سألته لكنه لم يجب الا بعد أن مرت لحظات وكأن السؤال قد تاه في فضاء الغرفة الى أن وصل أذنيه:

– كلا، أنا محطم من الطريق أريد النوم لو سمحت!

صباح اليوم التالي، استيقظ زهير فجأة، ورأى أمامه وجه الفتاة الصباحي يطل من باب غرفته مبتسماً، كم هي مشرقة وأنيقة هذه الفتاة؟ كان واضحاً أنه تأخر في النوم، النوم الذي حمله بعيداً عن مغامرته بحيث أنه قابل وجهها المبتسم بوجه مشدوه الملامح وكأنه يروم السؤال: ما الذي أتى بي الى هنا ومن هذه الفتاة الساحرة؟

سألته ضاحكة:

–عد الى النوم إن رغبت، وددت أن أسألك ما الذي تود أن يكون فطورك؟

نظر بوجهها صامتاً كأنه لم يفهم سؤالها ثم أجاب:

–الفطور. آه.. تكفي قطعة جبن.. لو أي شيء يصادف وجوده على المائدة..

أهو في حلم؟ آه، لقد وصل الشاطئ! نهض وقد عاد لروحه بعض الانشراح، لقد تعدت ليلة التعارف مع دورين وها هو الآن في مكان آمن لا خطر يهدده. على مائدة الافطار عرف منها عَرَضَاً أنها لم تبت في شقتها البارحة، لقد كان وحيداً ولم يدر لكن، لمَ غادرت هي الشقة قبيل الفجر؟ خوفاً منه هو القادم من مضارب الحرمان والكبت؟ وما الحكمة من وراء هذه المشقة وتكريم رجل لا تثق به؟

غابت الصباح والضحى كله ثم عادت لاصطحابه الى مطعم شبه خال حيث الغداء الاحتفالي في زاوية ساحرة تطل على بركة واسعة تحيطها الزهور وتعج بالسمك الملوّن. راحت عينا زهير تتابعان الحركة الرشيقة لسمكة حمراء وكأنه يتحاشى رد نظرات دورين النهمة له وهي تكرر التعبير عن سعادتها بمجيئه:

– لا تعرف مدى سعادتي بوصولك، كدنا نقطع الأمل، خاصة وأننا لم نعرف ما حصل بالضبط، عرفنا أن بطلاً شجاعاً أنقذ أبي، ولكن كانت تنقصنا تفاصيل الحادث فكنا نقول لمن يسأل: سيأتي ويقص علينا ما حدث، وها أنت تجلس قبالتي وتقص عليّ ما حدث، كأنه حلم! دعنا نشرب أولاً نخب وصولك..

وبعد دقائق من الحديث عن موقع المطعم المريح والطقس الذي تدهور فجأة عادت عيناها الساحرتان للتحديق به، من يجلس أمامها الآن هو شاب آخر غير شبه المعتوه الذي صدمتها تصرفاته البارحة. ملامحه المتوترة انبسطت وتلاشت علائم الاجهاد عنها وانسابت كلماته هادئة تتدفق بعناية خلف بعضها مثل موجات البركة التي يجلسان على حدودها، ومثل من شعر بالإحراج، حاول تخفيف حدة حماسها قائلاً:

– لم أحضر لاستعراض مآثر وبطولات. أنا..

– كيف؟ خلّصت أجنبياً من مختطفيه الأربعة مجازفاً بحياتك، أليست تلك بطولة؟ والآن قل لي هل استعنت بالشرطة؟ أم أن مصادفة ما يسرت لك حلاً لم يكن متوقعاً؟ كيف أنقذت الوالد يا زهير؟ وكيف عرفت بالحادثة أصلاً؟

– أنا. أنا، آه يا لذلك المساء المخيف، كنت بسيارتي التي بعتها قبل اسبوع وانطلقت قاصداً تسليمها لمن اشتراها مني. في منعطف معتم خال من السيارات فوجئت بسيارة متوقفة يتقدمها مجموعة ملثمين قطعوا عليّ الطريق مشهرين أسلحتهم. لم يكن بيدي خيار غير التوقف فتوقفتْ. تقدم مني أحدهم، بدون ان يتفوه حتى بكلمة فتح الباب وحاول جرّي الى الشارع بعنف، قاومته وتعلقت بباب سيارتي لكنه أفلح في إبعادي وجلس بمكاني بينما تعاون ثلاثة آخرون على حمل رجل نائم، كان جريحاً أو مقتولاً لم يتحرك فرموه في المقعد الخلفي ثم دسوا أنفسهم على عجل فيها وانطلقوا. بعد أن سلبوني سيارتي بقيت مذهولاً وعاجزاً عن فعل أي شيء. ركضت بدافع الشعور بالقهر والاهانة باتجاه سيارتهم التي تركوها. كنت مشدوهاً مأخوذاً بالحدث الذي لم أتوقعه، ولم يصل خيالي وقتها الا لتعليل فعلتهم بعطل مفاجئ أصاب سيارتهم المتهالكة لكن فاجأني أنهم تركوا المفتاح بها، جربت تشغيلها فاشتغلت، لم تتعطل، ولكنهم تركوها ليأخذوا غيرها كي يفلتوا من الملاحقة على ما يبدو. لحقتهم. وكانت بيننا مسافة طويلة أول الأمر لكني قدت العربة كالمجنون..

– ولكن لماذا لحقتهم؟ الم تكن تلك مجازفة؟ شخص غير مسلح يطارد بمفرده أربعة خاطفين مسلحين من أجل استعادة سيارته المسروقة؟ الم تشعر بالخوف؟ هل كانت سيارتك غالية؟

–لا، لم يكن دافعي هو مطاردتهم لاسترجاع السيارة أو مجابهتهم فهذه حماقة، ولم أكن أعرف أنها عملية خطف أصلاً. كنت أظن انهم مطارَدون فقط، قلت لنفسي أنها عصابة جُرح أو قتل أحد أفرادها والشرطة تطاردها فكان كل همّي هو أن أسترجع المخطوطات الغالية التي كانت في الصندوق الخلفي. كنت في ذلك المساء حملت معي خمس مخطوطات مهمة لمؤلفين كبار وهي نسخ اصلية سلموها لي للطبع في مطبعتي، لا أنا ولا هم يملكون نسخاً أخرى لها. كنت أطمح أن أتبع المسلحين علّهم يتركون السيارة في مكان ما ويأخذون أخرى كما تفعل العصابات للزوغان من مطاردة الشرطة فأصل للمخطوطات، أو على الأقل التفاهم معهم لكي يعيدوها وليأخذوا السيارة. كنت محظوظاً حقاً، مفتاح سيارتي الثاني ما يزال في جيبي لأني كنت أروم في تلك الأمسية تسليمها لمن اشتراها مني، وقبلها إيصال المخطوطات للمطبعة. اتصلت بالشرطة متأخراً لكنهم طلبوا الإحداثيات ولم أكن أعرف مكاني بالضبط فنصحوني الاستمرار بمتابعتهم من بعيد. بعد ساعة دخلوا لبستان نخيل واسع فأطفأت مصابيح السيارة وتبعتهم على مهل، وصلوا لبستان آخر مسيّج بسياج طيني، فتح أحدهم البوابة وغابت السيارة وراء السياج بعد ان أغلقت البوابة الكبيرة. كانوا

مطمئنين لمكانهم الآمن وخلو البستان. ترجلتُ واستدرت متسللاً باتجاه تلة صغيرة وبقيت أراقب المكان منها حائراً لا أعرف ما أفعل. ماذا لو اكتشفوني؟ أنا وحيد وغير مسلح ولا أستطيع تعيين المكان كي أطلب معونة الشرطة! راودتني فكرة طرق الباب والتفاهم معهم حول إرجاع المخطوطات فقط لكني خشيت أن يطلقوا عليَ النار من بعيد أو ان يتخلصوا مني بسبب كشفي مكانهم. مضيّ الوقت وهدوء المحيط دفعني لتجريب تسلق السياج الطيني من الزاوية البعيدة تحت سعف النخيل فرأيت السيارة مركونة داخل الفناء الواسع قرب البوابة، ليس أبعد من خمسة أمتار منها بينما نامت بكسل في الزاوية البعيدة غرفتان طينيتان متلاصقتان. راقبت المكان نصف ساعة، كان كل شيء هادئاً مثل مقبرة عتيقة، قلت لنفسي هم الآن منهمكون بمعالجة جريحهم، وربما ناموا مطمئنين بعد أن أنجزوا مهمتهم. أغراني الصمت أكثر فانتظرت نصف ساعة أخرى ولما بقي المشهد على حاله من السكون المطبق، تشجعت، خلعت قميصي وصنعت منه كيساً ربطته حول رقبتي بغية تحرير يدي من حمل المخطوطات وتركهما طليقتين لإنجاز مهمة تسلق السياج وقفزت الى داخل الفناء متجهاً بحذر الى السيارة. فعلت ذلك أول الأمر آملاً فتح صندوقها واستعادة المخطوطات والهرب بها لا أكثر. بعد أن اقتربت من السيارة انتظرت برهة ثم فتحت صندوقها واجتاحني شعور بالانتصار لا مثيل له عندما شاهدت كيس الأوراق بمكانه كما تركته البارحة. بسرعة وارتباك عبأتها بكيس القميص ثم علقته بعنقي وهممت بالعودة فرحاً بما فعلت

لكني ومن خلال نظرة عابرة كادت أن توقف قلبي فوجئت بوجود رجل مقيد ينام على المقعد الخلفي فاقد الوعي وقد أُغلق فمه بشريط لاصق! شلني الخوف فقد عرفت أنها حادثة خطف. لم تكن توقعاتي صحيحة إذن فلم يكن خامسهم جريحاً، بل مختطفاً. كان بإمكاني حتى تلك اللحظة الهرب بالمخطوطات ثم إبلاغ الشرطة عن التفاصيل، قلت لنفسي مؤنباً: وهذا المسجى كالميت؟ هل يرضى ضميرك يا زهير أن تترك هذا المخطوف؟ لابد أن تجازف وتحاول انقاذه فربما يريدون قتله، وربما كان يحتاج إسعافاً وقد لا تفلح محاولة الشرطة الوصول له بعد أن يغيروا المكان! هذا اختبار الاقدار لإنسانيتك وشجاعتك، ما الذي تنتظره؟ سيارتك وقد وصلتها ومفتاحها لديك والبوابة مفتوحة والعالم يغط بنوم عميق وقد يكون بمقدورك استحصال شرف ضخ الحياة لإنسان مهدد بفقدانها! انطلق يا زهير ولا تلتفت الى الوراء..

مسحت دورين دمعتان ترقرقتا من عينيها وتمتمت:

– متأسفة، واصل أرجوك!

توقف زهير عن الكلام بعد أن غص بالجملة الأخيرة، كان لا يقل انفعالاً عن دورين، ارتشف قليلاً من قهوته ثم واصل:

– كان الوقت قبل الفجر بقليل، تسللت بخفة وسرعة الى البوابة، كانت مقفلة من الداخل بمزلاج كبير وليس بمفتاح لحسن الحظ، حركته بحذر

وبطيء، كان يَصرُّ من القِدَم، خفت أن ينبه لوجودي فيضيع كل شيء. تمهلت في عملية الفتح وكانت عيناي تحدقان بالباب، كانت دقائقاً من الرعب! بين لحظة وأخرى كنت أتوقع خروج مسلح من الباب لكن أحداً لم ينتبه! بعد ان أكملت فتح الباب على مصراعيه عدت للسيارة، شغلت المحرك بسرعة وانطلقت وقبل أن أنعطف من نهاية درب البستان رأيت في المرآة شخصاً يخرج من البوابة راكضاً وهو يصرخ لكني كنت قد ابتعدت. بعد حين سمعت صوت سلسلة رشقات بعيدة من بنادق أتوماتيكية باتجاهي لكني كنت أقود السيارة كالمجنون، لم يكونوا يتوقعون أن يصل المكان من يملك مفتاحاً آخراً للسيارة. وبعد أن وصلت الى مكان آمن بعيد توقفت وحللت وثاق المخطوف وسحبت بقوة الشريط اللاصق الذي كان يغلق فمه فرفت عيناه. حاولت إعادته الى وعيه بالتدليك والهز وسكبت على وجهه قنينة ماء تركها الخاطفون في السيارة فاستجاب بعد دقائق. كنت أكثر منه خوفاً وارتباكاً حتى أني لم أتصل بالشرطة بعد ذلك لأن حوادث خطف الأجانب تحمل في طياتها تعقيدات لا تحصى، وليس من المستبعد أن تكون الشرطة ذاتها مخترقة فيدخل المخطوف دهاليز معتمة قد لا يكون الخروج منها سهلاً. بعد ذلك أخبرني السيد فان بيست والدك الذي كان متعباً غاية التعب عن الحقيبة التي وجدتها في صندوق السيارة حملتها له.. وبقية القصة سمعتها لا شك منه!

– يا لك من نبيل وشجاع! ولم تترك اسما، ورفضت المكافأة! كل ذلك ولا تريد أن تسمي الحادثة مأثرة!

– أنا متيقن أن الجميل يعود لصاحبه بشكل ما، في مكان ما، في زمان ما. هذه هي فلسفتي، اليس قدومي الى هنا وجلستنا هذه مكافأة؟

غرقت دورين بموج مشاعرها وسالت دموعها مرة اخرى ثم انطلقت بالحديث مع زهير كصاحب قديم.

عرفت منه انه صاحب مطبعة وعرف منها أنها الأبنة الوحيدة "للسيد فان بيست" الذي يملك أسهماً كثيرة في شركات كبرى ويرأس مجالس إدارات كثيرة ويدفع للدولة سنوياً من الضرائب قرابة مليون إيرو؛ وهو الأمر الذي حيره فشقتها المنزوية في حي متواضع، لا تتعدى الغرفتين الصغيرتين والصالة رغم هذا الغنى. شقة ابنة المليونير هذه تشبه الى حد كبير شقق الموظفين الصغار، أو حتى تلك التي يمكن لأي طالب من أسرة متوسطة في الشرق أن يستأجرها، وعندما لاح منه ما يدل على استغرابه قالت:

– هكذا هي الحال هنا، أنا يجب أن أكون أنا، لا علاقة لي بأملاك أبي، أعمل ما يتوجب عليّ حتى أستحق ما أكسب وفي النهاية الأملاك أملاكنا!

ثم أخبرته أنها تتعمد اخفاء وجوده عن أصدقائها ومعارفها انتظاراً لقدوم والدها من هيمالايا لكي تجعل من الحدث مفاجأة فوافقها بحماس:

– نعم هذا أفضل!

أسدى هذا النبأ السار لزهير خدمة لا تضاهى، فالطيران في فضاء أسئلة هذه الفتاة وحدها أيسر بكثير من ملاحقة أسئلة جمع من الفضوليين، لكنه أحس بالحرج عند قدوم المساء وهبوط الظلام وانتشار السكون في أرجاء الشقة. خاصة عندما كانت السماء تعتم والعصافير تؤوب لأعشاشها محدثة ضجة تتسرب لفضاء الشقة وتحط على الأرائك والكتب، وكفا دورين البيضاوان تزيحان الستائر لتصغر أبعاد الصالة الى أبعاد شخصين يجلسان قبالة بعضهما، كم يبدوان شبيهين بشريكين سعيدين؟

كانت تبقى معه ساعة بعد العشاء ثم تواصل برنامجها ساهرة حتى الثانية صباحاً منشغلة بموضوع بحثها عن "العنف الاجتماعي في المجتمع الصناعي" ثم تنام بضع ساعات وتنهض صباحاً للذهاب الى عملها كموظفة بسيطة في إحدى شركات أبيها. عندما قلب في رأسه فكرة نومها خارج شقتها في الليلة الأولى توصل الى استنتاج مغاير عن ذاك الذي راوده قبل ليلتين: هي تركت الشقة ليلاً ليس خوفاً منه، بل حرصاً عليه وعلى نفسها. تركته بمفرده لكيلا ترسّخ في ذهنه الانطباع الشرقي عن المرأة الأوربية التي تمنح نفسها لأي شاء متى تشاء أو متى يشاء! كانت تروم رفع مكانتها لديه ورفع مكانته لديها. بعد ليلتين، أوصلت ما برأسها له فكانت تودعه وتنصرف لبحثها ثم الى نومها القصير وهي باطمئنان تام. تخيل أن تكون دورين ابنة مليونير من بلده، القصر، والخادمات،

والسوّاق، وكابينة الحمام المطعمة بالألماز، وحنفيات المغاسل من الذهب الخالص، وصفوف السيارات في الكراج، واللغة المتغطرسة مع الآخرين، وقبل كل شيء البلادة المطلقة والاهتمامات الضيقة المنحصرة بين ضلعي زاوية حادة من دائرة الحياة لا تتعدى طرازات اللبس والسهرات وكيك الاحتفالات. وتخيّل أن تكون تلك الشرقية ابنة المليونير بجمال دورين واشراقها، فتاة لا تولي المرآة من وقتها أكثر من دقيقتين في اليوم، مشرقة بدون أطنان ماكياج في العام، وثلاث عمليات تجميل، إنهما عالمان من المتنافرات غير قابلين للمقارنة أبداً!

انبهر بأسلوب حياة مضيفته وطريقة تعاملها مع الوقت، وورود الشرفة، وتحية الجيران، ووجبات الطعام، وعلاقتها بعملها، وبصديقتها، ومعه، مع قصة إنقاذ أبيها. كانت تعيش كل يوم وكأن لا علاقة له بسابقه، كل يوم يأتي بشمس جديدة. زمن دورين لا يتكرر، كل مساء تجلس أمام البيانو وتعزف قطعة جديدة لم يسبق أن سمعها منها من قبل، أول الأمر ظن أنها تعزف له لكنه أدرك بسرعة أنها تعزف استجابة لنداء ينطلق من أعماقها. كانت تؤدي هذا العمل مثل صلاة. عندما تتحدث عن صديقتها يتخيل المرء أن لا شيء في حياتها أكثر أهمية منها، وعندما تتحدث عن عملها يتصور سامعها كأنها مسؤول عن ادارة شؤون الأرض كلها وليست موظفة بسيطة غير مسؤولة عن أحد. وكانت تسأله عن المطبعة التي يملكها كما يسأل خبير بالمطابع، بل أنها كانت تحكي عما لم يسمع به!

منذ اليوم الأول ألح عليها ألا تتقيد بوجوده الا أن فترة الشهر المقترحة كانت فترة طويلة للغاية. من أين يأتي بالكلام الذي سيملأ فراغ الأيام وجوع عينيّ هذه الفتاة التي تريد أن تعرف عنه كل شيء؟ وحتى يتحاشى تذكير نفسه بأيامه المريرة وما قد يتقافز من بين ثنايا هذا التذكير من شظايا متطايرة تجبره على خفض رأسه كل مرة اتقاء نظراتها المتفحصة، قرر توجيه وقته وجهة أخرى غير الجلوس والحديث عن ما كان. أبلغها فجأة برغبته مواصلة تعلم اللغة الذي بدأه منذ شهرين مما جعل وجهها يومض فجأة بآلاف الألوان:

– مدهش! يعجبني أن تفكر على هذا المنوال!

كانت مبتهجة بموهبته اللغوية التي لم تكن لتخفي إعجابها بها:
–لا أصدق! تتقدم بوتيرة مدهشة في اللغة الهولندية!
– درست بعضاً منها قبل شهرين هناك لقربها من الألمانية، أنا مولع باللغات رغم حرف الخاء الذي يخبط صفاء الهولندية فيحيلها الى خرخرة.
–خرخرة؟ هي أجمل اللغات!
عندما رافقها مرغماً في جولة لاطلاعه على معالم المدينة اعتمر قبعة عريضة، فاجأته بسؤال:

– تبدو كأحد أبطال مسلسل بوليسي! هل تجيد التمثيل؟
أخذ زهير مباغتاً بسؤالها:

– من؟ أنا؟ التمثيل؟ لا..

في الأسبوع الثالث أرادت أن تصحبه في زيارة الى الريف حيث مزرعة العائلة:

– ما رأيك في الابتعاد عن المدينة لنهار؟ سأريك ريفنا وبيت أبي هناك.

أحس بحرج من رفض الدعوة، صمت لحظة ثم سأل:

– هل يسكن هناك أحد ما؟

– كلا، بين حين وآخر نقيم هناك احتفالات العائلة أو يتخذه أبي مكاناً لاستقبال ضيوفه.

في الطريق الى الريف، انداحت مراعي البقر على امتداد البصر، هذا هو تعريف الريف الهولندي جموع البقر السارح والحقول المنداحة على طول المدى، تقطعها القنوات الضيقة والأشجار العالية داكنة الخضرة. لوحة متكررة كأنها استنسخت ببرنامج كومبيوتر ولصقت في أماكن مختلفة، ماء، وشجر، وضفادع، وبقر، وحقول، شجر، ضفادع، وحقول، وماء، وبقر.. لكنها طبيعة أنيقة ومرسومة بدقة تشعر ساكنها بانتمائه لقرية واحدة ساحرة لا بلاد بكاملها. هناك في زاوية قصية يقع بستان فان بيست، قصر من الخرسانة ومجموعة خيول الى جانب مرآب سيارات ودراجات نارية.

صاح زهير:

– هذه مدينة صغيرة لا ينقصها سوى بضعة مصانع تنفث دخانها بلا توقف، هذا ريف مغتصب. لقد فقدنا طفولتنا الى الأبد. أحن لرؤية سفينة شراعية وبيوت من الطين. أول ما تعلمنا رسمه في المدرسة البيت الريفي والنخلة والسفينة ذات الشراع. مات هذا الثلاثي في بلادنا، مات البيت الريفي، والسفينة الشراعية، وبقيت النخلة تعاني أمراض الشيخوخة. مات الريف كله. مات الهدوء. لا أمل في عودة السفينة ذات الشراع، وحتى المتبقي من الريف سوف تأكله المدن الحجرية. أنا أرى أن هذا الحصان الواقف هناك كان سيكون أسعد حالاً لو عاد الى وظيفته وبقي ينقل الناس في عربات بدلاً من أن يستخدم للسباق، لكن هذا مستحيل لقد اكتسحتنا الآلات. هذا هو التطور، التهمتنا الصناعة فأصبحنا بضاعة. تصوري قبل خمسين سنة تكتبين رسالة لأحد ما، يرى تعرجات خط يدك، يحس أنفاسك على الورقة، يقرأ انفعالاتك وأنت تمدين الكلمة أو تضجرين منها الآن (السوفت وير) هو من يكتب وقارئك لا يرى سوى الضوء الأسود.

– كم يعجبني أن تتكلم كفيلسوف وشاعر؟ أنت فيلسوف ريفي طبيعي!

استمر كمن يكلم نفسه:

– موحش هذا الابتعاد عن طفولتنا، الانغمار في عالم الضجيج، والسرعة، والدخان، والاستهلاك، والنفايات، هذا هو عالمنا الحالي عالم يسير بنا

وبنفسه نحو الخراب. أنا لا اتذكر وجود صندوق نفايات في بيت جدي في الريف.

– كيف؟

– كان بيتاً غارقاً في أحضان غابة نخل، يمدنا البستان بكل ما نحتاج لكننا كنا نعيش بلا قمامة صدقيني، كانت حياتنا نظيفة والسماء زرقاء قبل عصر البلاستك، الآن حتى الطيور مصابة بالربو! تصوري النخلة مثلاً، منها نأخذ التمر ونصنع العصير ومن قلبها الجمّار الذي سوف لن تعرفينه مهما شرحت لك، من سعفها وجذعها كل أثاثنا، أسرّتنا، وأطباقنا، وسلالنا، ومراوحنا، وأبسطتنا، وحتى ليفة الحمّام! ولدت وغادرت البيت الى المدينة وفي بيتنا ذات الأسرة والأثاث. لم نكن بحاجة الى صندوق قمامة! ولم يكن بيت جدي الطيني بارداً في الشتاء ولا حاراً في الصيف. ذلك كان الريف!

كان يقف الى جوارها مستنداً على حاجز الجسر الخشبي يراقب صفحة الماء الراكضة مع الريح في لعبة جذلة. طيور البرد وطيور الماء تسابق المويجات الراكضة، طار شعرها وضرب صفحة وجهه مرتين، جمعته كأنها مربية تلقي درساً على طفل متمرد، كورته على رأسها ثم عقدته، عاد وانهمر ثم ضرب وجهه ثالثة نافثاً موجة عطر نسائي فحاول ألا يصل صوت غليان دمه الى مسامعها، أبقى عيونه تتابع طيراً يعتلي المويجات

فتدفعه حتى نهاية البركة التي ينمو القصب على حافاتها كمستنقع صغير فيطير عائداً الى حيث أتى. واضحٌ أن الطير في منتهى السعادة غير آبه لشيء حتى ظن أنه سمعه يضحك.

قال كأنه يحدث نفسه:

– لن يشغل تفكير هذا الطير بيت أو عمل أو هوية، أنه يضحك من الفرح!

ردت:

– حياة تلقائية سعيدة غير مخطط لها، وحين يموت يكون مماته سعيداً أيضاً. انظر الفرق بين موت الطائر وموت الانسان، الأول يموت لوحده بهدوء بدون أية عواقب أما الثاني فمغادرته بحد ذاتها عملية تثير الشفقة. اليس غريباً ومفجعاً أن ينسج المرء طوال عمره شبكة علاقاته، فيتعارف، ويصادق، ويعاشر بشراً ويأتي الى الدنيا بصغار، ثم فجأة يضطر لترك كل شيء خلفه ويغادر؟ موت الطائر لا يعني سوى الطائر نفسه وموت انسان يميت معه الكثيرين!

– والأغرب أن الانسان لم يستوعب فكرة الموت، للآن وبعد ملايين السنين لم يتكيف معها رغم أنها الأكثر حضورا! هو يراها يومياً وهي نهاية رحلته لكنه لم يتقبلها للآن، لو رأيت كيف يتعامل الشرقيون مع الموت، كأنه حادث غريب عن الحياة بينما هو وجهها الآخر!

– هناك عندكم أيضاً؟ توقعت أن يكون الموت مألوفاً ومتوقعاً أكثر!

– هو عندنا زائر دائم، زائر مباغت، لكنه غالباً ما يأتي كقاطع للأحلام، قبل تمام المهمة بوقت طويل، لذلك يخشاه الجميع. الانسان هناك لا يرتوي من الحياة، لا اعتقد أن مهمة قطع الأحلام هي ما يشغل الموت هنا.

– كلا، الناس هنا لا يتوقعون الموت الا بعد الثمانين، عندما تكون الأحلام قد تحققت أو شاخت أو لم تعد أحلاماً، والجذور قد تيبست فليس لديها ما تفعله، آنذاك يكون سقوط الشجرة الهرمة سلساً وبلا آلام!

في تلك اللحظات، أحس بدفء خاص في كلماتها، كما لو كان قد تعرف عليها منذ خُلِقَ فقال:

– انظري هذا الطائر المائي الأسود، في الشتاء يرحل الى أهوارنا ومستنقعاتنا، نسميه هناك " دجاجة الماء" وهذا ذو الرقبة الخضراء نسميه "خضيري" وهو لا ترينه الا برفقة صاحبته تلك التي نسميها الحذّافة "ام سكة"، هنا تعيش هذه الطيور مدللة وهناك تطاردها فوهات بنادق الصيد..

–أحقاً؟ هذا يعني أننا نملك ذات الطيور"سهير"، أرأيت المشتركات التي تجمعنا؟ أنا مولعة بأسلوب حياة هذا ذي الرقبة الخضراء مع صاحبته، ماذا أسميتهما؟

– خضيري وام سكة.

أشار الى شجرة دائمة الخضرة تجاور شجرة توت:

– الطبيعة منبع الحكمة، لكنها أحياناً تتحدى منطقنا! أنظري لهذه الشجرة دائمة الخضرة، لم تعان، لم تتجرد، لم تعش مرارة فقدان الأوراق، لم تصبر كي ترى البراعم، هي دائمة الخضرة، ولكن ما ميزتها عن شجرة التوت هذه التي بقيت هيكلاً عظمياً؟ بأي حق؟ أية عدالة؟

فجأة اكتست ملامحها حلة وردية خفيفة وسألت:

– لا تخفي عني ذلك! تتكلم كسارد محترف! الم تقربك المطبعة من الكتابة؟

– أنا؟ ميكانيكي، صاحب مطبعة، نعم لي علاقات بحكم المهنة مع الوسط الثقافي فأنا أعيش بينهم لكني لست من الكتاب ولا الشعراء!

– مع أن ملامحك وسلوكيتك تشبهان ملامح وسلوكية شاعر من طراز نادر!

– أنا؟ هذه المرة الأولى التي أتهم بها بهذه التهمة الثقيلة!

– أتراها تهمة؟ ليتك تتهمني بها إذن!

ربما وجدت دورين بهذه "التهمة" تفسيراً لسرحان ضيفها وانشداهه. صمتَ ولم يرد ولم يبد عليها أنها كانت تتوقع صمته، بقيت عيناها المدهشتان على اتساعهما معلقتين بوجهه لحظات. بعد الغداء التقليدي المكون من

سندوتشات الجبن والخبز وبعض من الشوكولا، قادته الى البستان ثم أحضرت شتلة شتلَتها في بستان أبيها:

– انظر، لقد زرعتك في تربتنا! هذه الشجرة اسمها "سهير":

لو كان زهير موجوداً لصحح لها مرة أخرى: زهير وليس سهير، لكنه كان غائباً وعيناه توجهان لها نظرة طويلة قابلتها هي بأخرى متفرسة، نفضت يدها مما علق بها من تراب واقتربت منه:

– هل أردت أن تقول لي شيئاً؟

ما أجمل منظر كفيها البيضاويين منغمسين بتراب البستان؟ انتبه لنفسه وكمن ألقي على رأسه ماء بارد رد بسرعة وجسده كله ينتفض:

– كلا، كلا. لا شيء.

بقيت تحدق بعينيه بعيون يكاد الندى ينسكب منهما:

– هل أنت متأكد؟ ربما لا يعجبك أن تقول ما أردت قوله في هذا المكان، لنعد الى المدينة ونجلس في مكان ما!

– كلا، لا رغبة لي بالخروج أنا متعب قليلاً.

انكسرت نظرتها وخفضت بصرها ومشت باتجاه السيارة وتبعها بخطوات تائهة. لقد كذب عليها وعلى نفسه. هو أراد أن يقول الكثير، أراد أن يرد

على نظراتها المتسائلة ويكشف لها عن سر وسبب شروده وقلقه الذي حاولت تفسيره، أراد أن يحتضنها ويشكرها بإخلاص وود عميقين على كل اللطف الذي تخصه به، أراد أن ينفذ من اتساع عينيها ويسكن هناك في خفايا ذلك العالم المدهش، لكنها وقفت في طريق رحلته فجفل كقطاة تفاجأت بخطى صياد. رغم كل اعتراضاته على ريف دورين، أعجبه هدوء المكان ثم راوده فجأة خاطر أن يفاتحها بالانتقال للعيش هنا، مع البط وطيور الماء والزرازير واللقالق! تمنى أن تأتي هذه المبادرة منها فتقول: بإماكنك البقاء هنا إن وددت! هذا المكان أكثر أماناً من شقتها في المدينة وبلا زوارها الذين لا يكتفون الا بنشرة كاملة عن كل شيء وبدون موزعي البريد الذين يختلسون النظر له والجارات اللواتي يتهامسن عند مروره برفقتها.

منذ انتهاء الأسبوع الثاني بعد وصوله بدأت دورين الإعداد الهادئ للاحتفال الكبير لتكريمه رغم انقطاعها عن الاتصال بأبيها لمدة عشرة أيام بسبب وجوده في منطقة معزولة في الهملايا. كانت جربت الاتصال في كل الأوقات الا ان أحداً لم يرد عليها دون أن تعرف السبب، في هذه الأثناء كان ضيفها يمنّي النفس أن تنشق الأرض عن معجزة جديدة فتخلّصه من عبئ ما يحمل. لقد نجح حتى الآن في المقدمة وعرضها على جمهور محدود مكون من شخص واحد، هو في الحقيقة فتاة سليمة النوايا وقعت تحت تأثير سطوة ما تسميه "المثال الروائي الأسطوري النادر" الذي أنقذ

اباها دون معرفة ملابسات تشكّل هذا المثال، ولكنه كان نجاحاً محدوداً. فتقديم هذه المقدمة لم يكن قد حاز على ثقته الكاملة، بل أنه أحصى ما لا يقل عن خمس هفوات جدية ارتكبها أثناء تصديه لأسئلتها وملاحظاتها. حاول أول الأمر أن يجرب تهشيم الخطة بمعول التواضع فبيّن لها أنه غير متحمس لحفل تكريمه لأن ما قام به في بلاده سلوك طبيعي لا يستحق كل هذا الاهتمام، لكنها سدت الطريق عليه:

– هذا ليس من صلاحيتي، وأستطيع القول حتى ليس من صلاحيات أبي، أنه مطلب الكثيرين الذين سمعوا بالحادث ولا يمكن بأية حال التخلي عنه. ولو أننا تخلينا عنه، سيتدفق الناس على بيت أبي فرادى ومجموعات لمقابلتك والاستماع للحكاية وتوجيه الأسئلة.

ارتعب لهذا السيناريو فصمت مذعناً لكن توسلاته لها لم تتوقف لأن تلغي من برنامج الاحتفاء به دعوة السفير وطاقم السفارة الى الحفل مبرراً طلبه بعذر لم يكن مفهوماً من قبلها:

– كل مسؤول في دولتنا محسوب على حزب، وكل حزب عدو للحزب الآخر، ودعوة سفير محسوب على حزب ما، يعني الانحياز لحزب هذا السفير أي أن من دعاه سيكون عدواً لباقي الأحزاب، ذلك يسبب إحراجاً لي هناك في الوطن.. أتفهميني؟

– أنا لا أفهم، تصورت ذلك يعزز سمعتك هناك، هذا واجب علينا أن نرسل لبلادك رسالة شكر وامتنان.

– أعرف ذلك وأقدره، ولكن ما يصح هنا لا يصح هناك إفهميني..

أخيراً وتحت ظلال طبقة خفيفة من حيرتها بما يعني أنها لم تقتنع بحجته، تم الاتفاق على الغاء دعوة الدبلوماسيين. هيأت دعوة لعشرة كممثلين رسميين للشركة وعشرة من أصدقائها وعشرين من أصدقاء أبيها لكن معضلة أخرى بقيت تؤرقه هي حضور التلفزيون المحلي والصحافة! لم يجد في رأسه أي تعليل منطقي لو تجرأ وطلب منها التخلي عن دعوة التلفزيون والصحافة المحليين غير مقته للأعلام والاستعراض، لكنه أحس بتماديه في طلباته. هي من ناحية أولية تنظر لدعوة الاعلام كجزء من متطلبات اللياقة كما عبرت ذات مرة له:

– من غير المعقول الاحتفاء بمنقذ شخصية معروفة مثل والدي في أجواء سرية.

هذا كان السبب العائلي، الاجتماعي ولم يكن أسوء فصل في هذه المسرحية المريعة فالأكثر إثارة للهلع هو:

– لابد أن يعرف الناس بمأثرة هذا الأجنبي الشرقي، لابد أن يبدلوا أراءهم بتلك الشعوب!

فدورين، المبهورة بزهير وما صنع، لا تتوقف عند حدود الانبهار بشخصه، بل بالتربة التي أنبتته، وهي لذلك، تطمح لمفاتحة التلفزيون لكي يخرج أحد المخرجين من معارفها الحادثة كعمل فني! نعم هذه الكارثة الصغيرة التي في طريقها للاكتمال الآن، ستعني اعتماد المخرج كلياً على سرده للأحداث أمام كاميرات التلفزيون أي أن وجهه سيشتهر ويتجاوز الحدود فقد يصل الفيلم بشكل ما، ربما عن طريق السفارة الى بلاده وعندها سيتعرف عليه الجميع. لا هذا مستحيل ستحل نهايته! هذا إعتراف موثق بالصوت والصورة لا يمكن لزهير أن يسمح به، ولكن ما الحل؟ خطوة أخرى أبعد في طريق التحريمات بعد "لا تكريم"، "لا سفير"، "لا دبلوماسيين"، ستثبت بعقل المرأة مزيداً من الأسئلة، وأسئلتها لا تذهب الى فراغ، كل سؤال يحمل معه انشطاراته من الأسئلة الفرعية لماذا، وأين، ومتى وعلام، وكيف، ستلقيها بوجهه تحت حزمة من الأنوار الكاشفة المنهمرة من عينين طالما حُبس بأروقتهما العميقة.

مرات تلعب الأقدار لعبتها الغامضة التي لا يفهمها أحد، لكنها تجئ كما لو كانت استجابة لنداء إستغاثة! فقد فاجأته صباح السبت عندما كانا يستعدان للاحتفال بعيد ميلادها الذي سيحل بعد يومين، وهي مغتمة الوجه مبللة العيون، بخبر نقل والدها الى المستشفى بعد حادثة انهيار ثلجي في جبل (k 2) في الهملايا. هز الخبر كيانها فبقيت تدور في الصالة محاولة انتزاع تفاصيل الحادث من محدثها الذي كان يتحدث الإنجليزية المشوشة.

لم يتمكن زهير الذي فقد صلته بالأرض وعاش أيامه الأخيرة طائراً، من اخفاء انفراج أساريره بالخبر، أحس بمشاعر غريبة، مريضة، متوحشة ووجد نفسه لأول مرة يفرح لمصيبة إنسان يعيش الآن من نعمته!

بعد أن انتبه الى أن عينيه قد تفشيان سر أعماقه حاول إيجاد وسيلة لتفادي الأمر. غطى وجهه بيديه بخراقة مدعياً الصدمة ممنياً نفسه أن سروره بالخبر لم تلتقطه عيناها، ثم اتجه ليخفف عنها، لكنها فاجأته بأن ارتمت على كتفه ناشجة فأجفل أول الأمر ثم وجد كفيه تعبثان بغابة شعرها بدون شعور، احتضنها ولم ينتبه لنفسه الا حينما اتسعت عيناها تحدقان به بارتعاش مخيف. لقد نسي نفسه ولم يعد بمقدوره حتى تذكر ما الذي فعله بالضبط حين كان جسدها بين يديه!

مهما كان، حرره نبأ تأخر وصول والدها على ما يبدو من كابوس ملاقاته بعد أسبوع وخضوعه للتكريم الأصعب الذي لا يريد؛ فتكريم ابنته ما كان الا أولياً ومن يدري أية أسئلة ستخرج من فم رجل الأعمال هذا؟ أفرغ هذا الخبر جزءً من الضغط الهائل الذي كاد يفجره من الداخل. هذه مرحلة خلخلة لابد من استثمارها، مثلاً اختلاق الأعذار للاختلاء بنفسه كي يعيد معها فحص ردوده على الأسئلة المحتملة من الوالد وضيوف حفل تكريمه. هكذا تخيل المشهد: كل زائر يقترب منه ويطرح ما يدور بباله من الاسئلة وعليه ألا يقع في فخ نسيان الاجابات أو تحريفها. إذن تأجل قدوم كابوس الحفل التكريمي الذي كان يجثم على صدره. ولكن الآن، صار اتصاله

الهاتفي بالرجل الراقد في احدى مستشفيات الصين ملزماً. لم يسمح المستشفى لدورين بالحديث مع أبيها الا بعد عشرة أيام:

– اعتباراً من الغد يمكننا الاتصال به، لقد عاد الى الوعي!

شعر زهير بكومة ثعابين تتحرك في جوفه. صدمته حالة النفاق التي سيعيشها وهو يعبر عن فرحته بنجاة أبيها وهو الذي ابتهج قبل أيام بخبر حادث الانهيار الثلجي الذي كاد يودي بحياته. في صباح اليوم التالي تمت الصلة بالمستشفى وحكت دورين باكية مع أبيها، ولسبب ما تخلت عن سيناريو المفاجأة الذي اقترحته من قبل ربما خشية على أبيها من انفعال غير ضروري فلم تطلب من زهير مفاجأة أبيها بصوته، بل قدمت للموضوع:

– أبي هذا هو "سهير" صديقنا الشجاع الذي أنقذك يريد التحدث اليك!

أمسكت آلاف الشياطين بحبال زهير الصوتية تعبث بها وتشدها كما تشاء حتى كاد أن يسمع مأمأته كخروف:

– مرحبا.. سيد. فان بيست.

لكزته بلطف على جنبه ضاحكة:

– قل بيتر لا سيد فان بيست، أنت الآن من العائلة!

لم يتكلم سوى همهمات لم يتمكن من التحكم بإيقاعها:

– تحية. وأمنية برؤية المريض. معافى بأسرع. لا أريد مضايقتك الآن، سنحكي الكثير فيما بعد.

وكان لشدة اضطرابه أنه نقل التلفون اليها قبل أن يكمل جملته. وضع يده على جبينه محاولاً مسح آثار اهتزازه العنيف وبقيت هي صامتة تستمع بتركيز لصوت أبيها وفجأة تغير جرس صوتها وأعتم:

– ماذا بابا؟ لا، هذا مستحيل! لا يمكن. أبي، لا أعرف، ولكن ما تقوله فظيع! يا للهول، كيف يمكن أن يكون ذلك؟ سأحاول، نعم كما تريد. سأتصرف بدون إثارة شكوك. أنت تعرف كيف تخفي ابنتك مشاعرها..

حين سمع زهير هذه الكلمات ورأى عينيها تنتقلان اليه غاص قلبه الى أسفل قدميه وسد شيء ما مجاري الهواء في صدره. التقطت عيناها اللقطة فأنتابها للحظة شعور غامض بوجود ما هو مهم وخطير قد جرى بين ضيفها وأبيها هناك مما لا تعرفه، ولكن كيف يمكنها معرفة ذلك؟ لم تفتها ملاحظة اضطرابه كلما اقترب موعد عودة والدها، وحتى في مكالمته التلفونية كان كمن يخفي سراً. سيناريو أكثر إثارة للرعب هو أن الضيف لا يريد رؤية أبيها! منقذ يتحاشى مقابلة من أنقذه! ما سر رغبته في الاعتكاف في البيت؟ هل هناك خطر يهدده؟ وهل لهذا الخطر علاقة بعملية إنقاذ والدها؟ بدأت الشكوك تجول في رأسها عن حاجته للمساعدة،

لا شك أنه في ورطة، ولكن كيف يمكنها حمله على الكلام؟ للحظة انتابها هاجس مرعب هو أن يكون زهير ضحية لملاحقة مافيا، وأنه يريد أن يتجنب لقاء أبيها كي لا يمضي بتنفيذ الخطة التي رسموها له، نعم وصلت شكوكها لهذا الحد لكنها لم تستطع المضي أبعد، ما الذي تريده هذه المافيا؟ قطعاً تريد شيئاً آخر غير المال، هنا انتبهت دورين أن دور المال في القصة كلها لم يكن محورياً أبداً. الخاطفون تركوا حقيبة أبيها في صندوق السيارة ولم يأخذوها معهم، وحتى زهير لم يرض بأية مكافأة! للحظة بدأت العملية كلها كأنها بحث وراء ما هو أبعد من مقايضة بفدية مهما كانت قيمتها. أيمكن أن يكون المطلوب شخص أبيها؟ لمن؟ وما السبب وما دور زهير في العملية؟ لماذا صمت طيلة أربعة شهور؟ هل كان محتجزاً؟ هل يدفع ثمن مغامرته؟ ربما ظفروا به واحتجزوه وكلفوه بمهمة يخجل الآن من البوح بها! لم يكن لديها شك بأنه يحاول تجنب الظهور في الأماكن العامة، هل بعثوه لتنفيذ أوامر فتمرد عليها؟ وكيف ستعرف ذلك؟ بعد تفكير عميق، قررت استدراج ضيفها بهدوء لكي يكشف نفسه لها. رسمت في رأسها خارطة للسبل التي ستسلكها، فجلست بعد الغداء قبالته ووجهت عيونها اليه ثم همست:

– سوهير!

رفع رأسه اليها بفزع مثل ضبي أحس بوقع خطى قريبة:

– نعم!

لما رأت توثب ملامحه، صمتت وتاهت عليها السبل، فلم تجد المدخل الصحيح النافذ لكي تدفع بأسئلتها خلاله فلا تعود راجعة اليها. للمرة الأولى تظهر له شكوكها بخصوص وضعه. كانت موسيقى جاز رشيقة تلعب بهدوء في فضاء غرفة الجلوس وهي تجلس قبالته وكفها تقبع على الطاولة الى جانب زهرتي ياسمين استقرتا في آنية من الكريستال، تأكد الآن بأن مصائد عينيها قد اصطادت ارتباكه أثناء المكالمة مع أبيها. كررت ندائها:

– سوهير!

امتدت كفه بلا وعي الى الأمام لتقبض على الحمامة البيضاء فارتعشت عينا دورين وتراقصت خصلات شعرها واهتزت شفتاها مثل جنح فراشة متفاجئة بأصابع تمسكها وسحبت كفها هي الأخرى بلا وعي منتفضة فأسقطت آنية الكريستال وبلل الماء فخذها الذي التصق بقماش فستانها الأبيض. سحب الفخذ الأبيض المندى عيني زهير، حتى كاد بحركة هستيرية لا ارادية ينحني عليه ويقبله اعتذاراً لكن عيناهما التقتا وقالا بوقت واحد بارتباك:

–عفواً.. أنا.. آسف.

على ماذا يتأسف هو؟ على حركته التي لم تتوقعها فسببت جفولها أم على سوء فهمه لها وعلى ماذا تأسف هي؟ على هزيمة كفها المذعورة التي أربكته؟

– أنا لم أقصد أن..

قال محشرجاً بما يشبه التبرير فردت:

– ولا أنا قصدت...

ثم ابتسم الاثنان بمزيج من خجل واحساس بذنب وكأنهما تفاهما على تقاسم مسؤولية الابقاء على السر. عرفتْ أن حركته كانت تهدف حملها على الصمت والكف عن أسئلتها. لم تزحف كفه زحفاً كما تزحف كف رجل لتحضن كف أمرأه ناقلة رسالة القلب، بل سقطت على كفها بعد أن عجز عن ايجاد عبارة، ربما كانت: أرجوك لا تسأليني! أو: أجّلي الخوض بهذا الموضوع أو: لا صحة للذي ببالك. بعد تلك الواقعة أدرك أنه على وشك الانفجار. لقد تمدد السر داخله وكاد يفرقع. قربت دورين منه الى أقل المسافات، أحس بأحقيتها بمعرفة كل أسراره، لم تعد فتاة غريبة أبداً بعد أن وقف على قوة اندفاعها من أجل مساعدته. ذلك بالضبط هو أخطر مراحل القصة!

فكر أن هذا هو الوقت الأنسب لإبلاغها الحقيقة. سيصارحها ولن يخف عنها شيئاً مادام أوان مفارقة بيتها قد حان والاجازة قد قاربت الانقضاء.

لقد أحبا بعضهما لكن هذا الحب لا يمكنه أن يكشف عن نفسه الا إذا كشف هو عن نفسه أولاً.. كان يدرك أن محتوى السر الذي ينطوي عليه يقع خارج مديات توقع هذه المرأة الرقيقة الناعمة. لقد أصر طويلاً على تجاهل نداءات أعماقه وصرخات عيونها المطالبة بالبوح بما يثقل قلبه من أسرار لكن هل يمتلك هو القدرة على دحرجة السر من بلعومه؟

كان يجلس في الصالة فيما تقف هي لترتيب نوتاتها على لوح البيانو، بدون توقع منها أطلق في الفضاء الهادئ سؤاله الأول من نوعه:

– دورين أتثقين بي؟

استدارت مثل مهرة عرفت بقدوم صاحبها، خمّنت أن يكون هذا السؤال بداية لدخولها أعماقه فأرادت أن تلج وتركض ما أن فتح الباب أمامها. تركت ورقة النوتة على مفاتيح البيانو دون أن تثبتها وقدمت باتجاهه هامسة بتلهف:

– نعم سوهير، أثق بك أكثر من أي شخص آخر، لابد ان تعرف ذلك!

بقي متردداً كمن تورط وبدأ يحاول الافلات من عينيها فبادرت هي لإعادته:

– لو لم أكن أثق بك لما قاسمتك العيش في ذات الشقة وأنا لم أعرفك من قبل!

رد بسرعة:

– نعم، أعرف ذلك، أنت امرأة مدهشة!

– وبعد؟

–وأنا. ممتن لك الى أقصى حدود الامتنان..

شعَّ وجهها وعرضتْ ابتسامتها:

– وبعد؟ هذه آراء ومواقف، أنا أتوق لسماع شيء آخر غير الآراء، حقائق جديدة مثلاً!

– آراء وحقائق. أنا أحكي أيضاً عن حقائق!

لم يعد قلقاً مثلما كان من قبل، ولا مثقلاً، بل خفيفاً كأنه تحرر من حمل ثقيل، ولم يفتْ ذلك عليها فردت:

– نعم، عندما تقول لي:" أنت مدهشة" هذا رأي قد يصح أو لا، لكن عندما تقول: أنني قلق ومتعب، هذه حقيقة.. و.

قاطعها:

– ستعرفين كل شيء، الآراء والحقائق وكل ما تفكرين به، بعد عودتك من لندن!

اتسعت عيناها وصاحت:

–حقاً؟ ولكن لماذا ليس الآن؟ ما الذي يمنع؟

– لكي تكون سفرتك مشوّقة، فأنت تنتظرين بعدها حدثاً سعيداً، اليس كذلك؟

– ياربي! تقول سعيداً، كم أفرحني ذلك! أتعدني؟ تصارحني بكل شيء؟ أعرف أن ثمة ما تخبئه ولكني..

قاطعها ثانية لكي ينهي الموضوع ويوقفه عند هذا الحد:

– ستكون مفاجأة، نعم سوف لن أكتم عنك شيئاً بعد الآن!

قنعتْ دورين بما حصلت عليه، ورفعت إبهامها له علامة التأييد. كانت بمزاج رائق حين اقترب موعد سفرها الى لندن، فأبوها سيصل الى البلاد بعد عودتها بأيام قليلة، ولكنها الآن في هذه اللحظة بأعلى درجات المزاج الرائق! فقبل وصوله ستعرف زهير على حقيقته، زهير الخالي من الأسرار. ستعرف منه كل شيء قبل أن تنظّم حفلة التكريم وستساعده على الهدوء، فهي متأكدة أن البلاد آمنة وأنه داخل حدودها آمن، عكس تصوراته التي تعود بالأساس، ربما، للواقع القاسي الذي عاشه هناك.

في آخر يوم، لاحظ زهير أن ملامحها الرقيقة بالأصل رقّت أكثر، وزادت طموحات عيونها عن ذي قبل. كانت تبعث له إشارات آمان لكي يهبط ولا يخاف، لكنه بقي خائفاً وطائراً، متوجساً مما تفكر به ولم يتمكن من سبر

أغوار نفسها العميقة. كان يضيع بين المحار والشعب المرجانية والغابات البحرية ويعود منهكاً دون صيد ثمين. ترى أي سؤال كبير يدور في رأسها عنه؟ أين تكمن شكوكها؟ مساء الخميس، قبل أن تودعه أعادت على أسماعه تعليماتها لكيلا يسأم من قضاء نهارين وليلة بمفرده، حاول أن ينظر بعينيها بدون أن ينكسر لكنه لم يتمكن، والتقطت عيناها انكساره فلم تترك الفرصة تمر:

– هل غيرت رأيك؟ ربما تريد أن نحكي الآن! لدي أكثر من ساعتين، نستطيع التحدث!

– كلا، لسنا بعجلة، الم يكن اتفاقنا التحدث بعد عودتك؟

– في كل الأحوال، حتى لو ارتأيت أن نتحدث عبر التلفون، قصدي، أحياناً يشعر المرء بحاجة ملحة للحديث عن أمر ما، في وقت معين، آنذاك لا تتحرج، هل سنتفق على ذلك؟

– أعتقد أن اتفاقنا الأول سيبقى سارياً، اطمئني.

غادرتْ مضيّفته البيت تاركة بفضاء الشقة شيئاً من عطرها والكثير من الأسئلة التي يتوجب عليه ايجاد أجوبة مقنعة لها. بقي أمامه يومان للاستعداد وايصال ما يريد ايصاله لها. انتهى وقت المراوغة. عليه أن يتصرف. عليه أن ينتزع نفسه من مستنقع الأسئلة والاحتمالات الذي بقي يتخبط به! سهر ليلته الأولى حتى نهايتها وفي الصباح جمع ركام الورق

الذي كتبه ومزقه ثم دسه في كيس بلاستك وأغلق الكيس بإحكام وألقاه في حاوية الأزبال. لم تطاوعه الكلمات ولم يهتد لما يخفف من وقعها فبدت له كل كلمة ثقيلة مثل حجر. نام متعباً بانتظار معجزة تأتيه بحل!

# 9

بعد أن حطّت طائرتها القادمة من لندن متأخرة عن الموعد المحدد بسبب كثافة الضباب، أرادت دورين أن تُعلم ضيفها برسالة قصيرة لكنها فضّلت مفاجئته. وصلت الشقة متأخرة عن الموعد المتفق عليه، فقد كان اتفاقهما أن تصل قبل العشاء الذي سيشهد كشف كل المستور. أتت له بكتاب نادر عن حضارة ميزوبوتاميا هدية سوف لن تفصح عنها الا بعد أن يبوح لها بالسر الذي كان يثقل عليهما معاً. ضغطت على زر جرس الباب طويلاً ولما لم يفتح أدارت المفتاح ودخلت ضاحكة:

–هاااالو. لص يريد الدخول، سوهير الم تسمع الجرس؟ مشغول باللغة، أم بطبخة الدجاج؟

كان الظلام قد امتص معالم الصالة وبدا فضاء البيت بارداً خاوياً يزيده وحشة صوت ساعة الجدار، تك.. تاك. تك.. تاك، ما الذي حدث؟ لا يبدو أن أحداً في البيت. كان اتفاقهما أن يحضّر طبق الدجاج في الفرن، وكان يعرف على وجه الدقة وقت هبوط طائرتها ووصولها. مساء أمس بعثت له آخر رسالة قصيرة رد عليها بعبارة هزلية أنعشت فيها الأمل بتملصه من شرنقة الحزن والذهول والشرود التي بقي ملتفاً داخلها منذ مجيئه:

"الدجاجة كانت نشطة فلم أتمكن من مسكها".

تلك كانت رسالته التي ردت عليها قاصدة جره لمزيد من المزاح:

" سأبعث لأبن الجيران لمساعدتك أو ربما ابنة الجيران الجذابة، ما قولك؟"

أضاءت الصالة بأصابع مرتعشة، تمنت أن يكون قد اختبأ في مكان ما فيفاجئها قافزاً فينهي هذا الاختبار، لكن لا أحد غير صوت الساعة تك. تاك.. تك.. تاك. أسرعت الى غرفته، رنت لمكان تعليق ملابسه فسرت بجسدها قشعريرة وعاينت موضع حقيبة الترولي، لا شيء! اختفى كل ما يخصه! انتابها احساس من سُرق، فصاحت بفزع:

"سو..هير"!

هو لا يخرج بمفرده الى أي مكان. كاد جسدها أن يكف عن الحركة وأحست بالاختناق، سرت بأوصالها برودة جافة وصلت أناملها فتهالكت على المقعد أمام المرآة التي فاجأتها بوجهها وقد اصفرّ وشحب. ما الذي يحدث؟ هل يمكن أن تكون سفرتها سبباً في تعرضه لسوء؟ هل اختطفته جهة ما كانت تترقب خلو الشقة الا منه؟ أيمكن أن يكون هذا هو السر؟ أن جهة ما كانت ترصده ولم يشأ لسبب ما الافصاح عن ذلك؟ ربما كان هذا هو سبب ارتباكه وركونه للبقاء في البيت! كيف ستتصرف؟ هل تبلغ الشرطة أم تنتظر تفسيراً لا تعلم من أين يأتي؟ في هذه الأثناء داهم نظرها مظروف أبيض كبير من مظاريف الشركة وضع بشكل ظاهر على الطاولة

أمام مكانه اليومي الخالي منه الآن، رمح قد انغرز في صدرها للتو.. أمر كبير، خطير قد حدث! سر آخر يخيفها يختبئ الآن في جوف هذا المظروف المرعب!

وضعت كفيها على وجهها وصاحت بصوت مختنق:

خطفوه وهذه هي رسالتهم!

وقفت مثل تمثال تنظر الى الظرف مترددة لكنها تشجعت بعد لحظات وخطت باتجاه الطاولة والتقطت الرسالة فهالها ما كُتب على غلافها بحروف كبيرة: الى دورين.

ثم على وجه الغلاف الآخر:

عزيزتي دورين،

"عندما تقرأين كلماتي هذه أكون قد وطأت بلاداً أخرى، بل قارة أخرى!

لم تع شيئاً مما قرأت، ما هذا؟ كانت تتوقعها رسالة اعلام من جهة ما، لكنها منه هو! هذا هو خط يده! عاد لها بعض الأمل رغم قسوة عبارة "أكون قد وطأت بلاداً أخرى"، لكنها على الأقل كلماته. نظرتْ لوجهها في المرآة التي تقابلها لكي تتشجع، مسحت عينيها ومضت متابعة قراءة ما كتبه بحروف بارزة بما يشبه الوصية:

لابد لي قبل كل شيء من مصارحتك بأنك تعنين لي الكثير، الكثير جداً بحيث أجرؤ وأكتب لك هذه الرسالة بمجازفة هي أكبر وأخطر من تلك التي حدثت قبل نصف عام في بغداد. إذا كان اعترافي هذا (بأنك تعنين لي الكثير، الكثير جداً) يعني لك شيئاً، استمري بقراءة الرسالة بتمعن وهدوء وبدون انفعال حتى نهايتها. بعكسه، أي إذا كنت أعني لك القليل، إذا كنت شخصاً أنقذ أباك لا أكثر، أتمنى عليك احترام شرطي هذا وهو تمزيق الرسالة والقاءها بأقرب صندوق قمامة قبل قراءتها فهي ليست لك وقراءتك لها عندئذ ستكون كما لو أنك تقرأين رسالة رجل غريب لواحدة أخرى غيرك! هل سنتفق على ذلك؟ هذه رسالة لامرأة تفهم زهير كما رأته وليس كما هو في خيالها. امرأة مستعدة للاحتفاظ به مادام يتمسك بالحقيقة، حتى لو كانت تلك الحقيقة قاسية. إذا ما مزقت الرسالة أخبريني برسالة تلفونية قصيرة كي أوفي بتعهداتي وأسدد تكاليف اقامتي ومصروفاتي وكل ما كان ترتب على تلك الإقامة. مع كل ذلك أكرر عليك مرة أخرى أن تتفحصي ثبات قدميك وقوة التربة التي تقفان عليها، فما ستطلعين عليه من سر قد يكون مزلزلاً، لست واثقاً من أنك لا تغيرين نظرتك لي، سأبدو في نظرك ربما كمخلوق أتى من كوكب آخر. كل شيء يعتمد على مدى قوة ما يربطك بي، فلا تتورطي بقراءة الرسالة إن كان ذلك المخلوق الذي بيننا ما يزال غير واثق من نفسه. فكري أكثر من ألف مرة، وإذا ترددت مرة واحدة من هذه الألف مزقي الرسالة قبل فتحها!

لم تتردد دورين حتى ولا ربع مرة من الألف التي اقترحها زهير ففتحت المظروف لتقرأ:

دورين

حذرتك على غلاف هذه الرسالة من التسرع بدخول هذه المغامرة قبل أن تتأكدي من سلامة عدتك. نعم، يتوجب عليّ التأكد من توفر شروط خاصة لكي أحرضك على الاستمرار في متابعة هذه اللعبة الخطرة، أي متابعة قراءة رسالتي، وهنا أصارحك بشكوكي بقدرتك على الاحاطة بقواعد لعبنا نحن الشرقيين. نحن قوم نكشف دائماً عن مواهبنا في الوقت الضائع، لا نكترث لصافرة الحكم، ولا نعترف بالخطوط الفاصلة بين ملعبنا وملعب الخصم، ونحتج بعد كل قرار أو نتيجة ليست لصالحنا لنرمي بالذنوب كلها على الساحة والريح، والجمهور، ونلعب دائماً منتظرين الفوز، حتى لو كان نصف فريقنا مصاباً بالشلل الرعاشي. هذه مقدمة لإدخالك جو اللعبة.

أسألك أولاً، ما الذي تعرفيه عن زهير؟ هل يكفيك شهران لكي تقولي هذا هو النصف الذي أسعى اليه؟ هل تكفي حادثة واحدة لكي أتنزه؟ لكن مهلاً، لكي أحافظ على قدر من التوازن فلا أبدو بنظرك مفزعاً أكثر مما أنا عليه في الواقع، يحق لي في كل الأحوال تطمينك أن زهير لم يكن يريد أن يكون نذلاً في أي وقت، المعضلة هنا هي كيف يُعرّف النذل؟ هل

يمكن أن نتفق على تعريف واحد للنذالة يقنعنا كلينا؟ أنت الأوربية وأنا الشرقي؟ سأقترح عليك إذن تعريفاً محدداً للنذل يتلاءم والحالة:

النذل هو زهير الذي توفرت له فرصة الرحيل السري دون علم دورين فرحل دون أن يترك أثراً بعد أن حصل على ما أراده من العلاقة بها!

هو تعريف مضحك بعض الشيء، أحياناً لا يمكن التعبير عن المأساة الا بنكتة. أما زلت بعد كل الذي قرأته مصرة على إكمال الرسالة؟ إذن سيعني ذلك أنني محظوظ بالتعرف عليك، حتى لو أتى هذا التعارف عبر هذه الصدفة الغريبة، هذه الصفقة بيني والشيطان. والآن نبدأ التسلل عبر تفاصيل حقل الألغام الذي اتفقنا أن تضعي أقدامك فيه باحتراس وحذر وأعصاب متماسكة. نعم سنلج التفاصيل التي أدعوك للتجول بين تضاريسها بهدوء..

لا شك أن اضطرابي قد شغلك وأثار ريبتك، نعم لم يكن بمقدوري إخفاء هذا الاهتزاز الذي كان يجتاحني منذ قدومي وطيلة فترة بقائي في بيتك، لأن السر الذي أردتك ان لا تطلعي عليه كان أكبر حجماً مما أستطيع حصره بين دواخلي، فكان يهدد كل لحظة بالتمرد والقفز من أعماقي. هذا السر يخص أقرب الناس اليّ، هو صديقي، ورفيق العمر كله، هو الذي تشبه قصته قصتي الى حد التماهي فنحن ضحايا ذات البلاد. حلٌ لغزه سيكون مدخلاً لحل لغزي فهما متداخلان. سأقص عليك حكايته بالتفصيل

لأن هذا من أهم حقوقك الآن كما أظن، وواجبي لكي أجيب عن كل مالم أجبتك عنه طيلة فترة وجودي معك. اسمعي:

صاحبي إنسان حاول أن يحتفظ بنقاء الضمير في زمن تلوث خلاله كل شيء. كان الزمان زمان جنون أعمى لاعقل له يتكرر في التأريخ، بشكل أفعال همجية يعود الإنسان فيها الى طبيعته الأولى المتوحشة وتوظف حواسه الخمس لمطاردة ابن جنسه الانسان الفريسة والايقاع بها بأسرع وقت. صديقي هذا آوى متهماً بريئاً محاصراً وأنقذه من موت محتّم حين يسّر له سبيل مغادرة البلاد، لكن عسس الحكومة الساهرين على ديمومة بقائها وبطشها اكتشفوا فعلته فطاردوه وامسكوا به وأشبعوه إذلالاً وتعذيباً حتى شارف على الموت فأودعوه المستشفى بنية اعادته فيما بعد لحياة التعذيب الأبدي ثانية. على غير انتظار عمت الفوضى المستشفى ووجد صاحبي نفسه خارجها دون ان يعرف ما الذي حصل. أطلق ساقيه الضعيفتين راكضاً وبعد شهر وبوساطة من متنفذ من معارفه تمت بظروف السرية المطلقة، ترك بلاده التي لم يغادرها من قبل، الى فرنسا البلاد الغريبة التي يجهل كل ما بها، حاملاً قصته الموجعة. لم يكن دربه سهلاً، اقترب من ضفاف بحيرة الموت المخيفة مرتين مرضاً وجوعاً. لكن في نهاية الرحلة، لم يستمع لقصته أحد، ولم يجد أمامه حلاً غير التشرد والضياع والدوس على طموحاته بقوة الى أن تتضاءل وتصل لما يطمح له أي خفاش ليل. تسائل مع نفسه طويلاً عن ما يسمى بالحظ، ما الحظ؟

من يقرر أن يكون إنسان ما محظوظاً؟ وكيف يتم اختيار المحظوظين؟ وما الصلة بين الحظ والسعادة؟ بين الحظ والارادة الشخصية؟ ما نسبة كل منهما للآخر في خلطة ما نسميه بالتوفيق؟ بقي متشبثاً بنفسه، أحس بالكون كله يرفضه دون سبب. ربما سأسأله حين أراه أن كان فكر بالانتحار، قد يكون ذلك ما فكر به، لكن ربما بصيغة جديدة مستحدثة، لأني أعرف أن الانتحار الكلاسيكي كان يبدو له على الدوام اقراراً بشرعية ما يفعله العالم ضده. لم تبق فرصة لصاحبي، ضمن محاولات العيش على الكفاف، قبل الانزلاق من الحافة الزلقة للعوز الى هاوية الجريمة، لم يجربها! ثم بدأت الشكوك تفترسه واهتزت ثقته بشيء اسمه العدالة. تعرفين كم هو صعب أن تهتز قناعة الانسان بوجود العدالة؟ نعم أنه أمر مزلزل، لأن ذلك الانسان سيحاول آنذاك خلق عدالته بنفسه. سيسير وفقاً لقوانينه هو كي يصل لحالة التوازن التي تنقذه من السقوط تحت الأقدام. في لحظة فريدة من احساسه بلا عدالة العالم الذي يعيش به وحياته المسكونة بالأشباح والجوع والبرد والذل والخوف، وقد بدأ جسده العليل يحاسبه على ليالي التجمد في الهواء الطلق لشتاء طويل مكفهر متيبس الروح، في تلك اللحظة من حياته التي تنز الماً، أحس صاحبي المطارد، بقوة خفية تقوده باتجاه تغيير نفسه بالكامل. قوة تدفع حياته التي أمضاها باحثاً عن العدالة الى درب لم يكن يتوقع يوماً سلوكه. ربما انشطر الى نصفين تحت وقع الضربات المتلاحقة على رأسه الحالم! ربما أصيب بالفصام، لا أعرف بالضبط، لكن الذي وصلني عنه أنه انتظر طويلاً حلاً ما، لكن عبثاً. آخر

الحلول كان التفكير بإعادة صياغة نفسه من جديد، نعم كان حالماً ورقيقاً كما عرفته دائماً، لكنه صدم بعنق وبلادة صفاته وصغر زاوية نظره للعالم، فهي كلها، كما أثبتت الحياة، لا تتناسب مع هذا الزمن. وجد نفسه متخلفاً عن مسيرة مجتمع لا يفقه غير منطق الربح والقوة، وبغير هذا التغيير سينفق دون أن يلفت انتباه أحد. ذات يوم أحس صاحبي أنه دفع الى نفق لا يمكن له مقاومة قوة جذبه الهائلة وبقي يرتجف وهو يعيد على نفسه سرد خساراته الماضية والوصايا التي يتوجب عليه بعد الآن اتباعها كي لا يمضي في رحلة الخسارات حتى النهاية. ففي خضم تلك العتمة الحالكة، وقبل أن يسقط من حافة اليأس الى هاوية الضياع سمع بطريق الصدفة خبراً صاعقاً هز كيانه كله: منظمة انسانية أهلية فرنسية تبحث عن سجين شرقي تعرض للتعذيب او الملاحقة لقضاء فترة علاج وتأهيل مجانيين في فرنسا لفترة محدودة! سأل نفسه فجأة: لماذا لا أكون أنا ذلك المعذب؟ وأنا أحتاج قبل كل شيء علاج النوم على فراش مثل ملايين الناس؟

تصوري فظاعة الأمر! كان هاتفه القديم من نوع نوكيا بشريحته التي تحمل رقمه في بلاده ما زال لديه وهو كل ما كان يحتاجه الآن كي يبعث برسالة للمنظمة الباريسية من باريس فتصلها على أنها من العراق. وقعت المنظمة الباحثة عن الضحايا في الفخ بعد استلامها صوراً لجسده المعذب فوجهت الدعوة له على رقم تليفونه. كان الأغراء أصعب من أن يقاوم، مغامرة لا مثيل لها لا يقدم عليها الا من أوشك على الموت جوعاً. إنه

شيء صعب التصديق. خطة ليست من صنعه هو اطلاقاً. لا، هو لم يخطط لشيء، لقد القى القدر أمامه في الوقت المناسب تماماً خطة جاهزة للنجاة والانتقال من أسفل درجات سلم الحياة الى واحدة أعلى بكثير. بقي أسبوعاً معلقاً مثل منتحر القى بنفسه من جسر عال وأحس بالندم على ذلك، لا هو قادر على استساغة الموت والتسليم به ولا العودة لليابسة. كم تردد لمرات قبل أن يقرر في آخر لحظة القدوم للمطار؟ كم كان شاقاً عليه أن يمثّل؟ لكن صدقيني لم يفعل ذلك الا لأنه فقد كل أمل، أنا أعرفه كما أعرف نفسي، هو لم يخطط لذلك لأني أعرفه ليس موهوباً في مجال التمثيل أبداً. لقد كان شخصاً آخر ذلك الذي قاده الى تلك المتاهة، هل هو الشيطان أم الملاك لا أعرف ولا أظنه هو نفسه يعرف! بل حتى لا أظنه سأل نفسه: افترض أن الخدعة نجحت في مرحلتها الأولى كيف سأتدبر أمري بعدها؟ ترك التفكير في هذا الأمر وكان عليه فقط أن يحترس من جريان الكلمات الفرنسية على لسانه! كان هذا أكبر التحديات، فلغة البلاد قد أضحت لغته اليومية بعد سنين من التشرد فيها، سنين من الاقامة غير الشرعية في الزوايا المعتمة والحياة الرمادية الداكنة كخفافيش الليل مع مدمني المخدرات والمتسولين وأنصاف المجرمين. سنوات من الزوغان المتواصل عن أعين الشرطة والمخبرين في طريقها الآن للانتهاء، إن أجاد أداء الدور الذي وضعه القدر أمامه.

تم اللقاء واستقبلوه كضيف محترم، ومضت الليلة الأولى مثقلة بالكوابيس وفي الصباح أتت امرأة وقدمت نفسها: ارسولا، سأرافقك طيلة فترة وجودك في بلادنا!

هنا بدأ فصل جديد في هذه المسرحية. كانت اورسولا التي تنتظر صاحبي نيابة عن المنظمة فراشة لا امرأة، رقيقة مثل السحاب، وهو التراب المتصلب من فرط قسوة لا يستحقها نحتته كالصخر، دافئة مثل قلب أم وهو المرتجف من شدة الوحشة وبرد الشتاءات التي قضاها في العراء، لقد أبهرته، بقي يتأملها باندهاش. فوجهها المصاغ بدقة وعناية لا مثيل لهما يدعو الشيطان نفسه لأن يتردد قبل أن يشركها في واحدة من خططه. لا، الشيطان لا يتردد، بل سيعتذر حتماً، لا طاقة للشيطان على ذلك. مثل رواية من العصور الوسطى، بعد أيام من مرافقتها له وقع بأسر هذه المرأة! أدرك أنه يحبها كما لم يحب أحداً من قبل! نعم يحبها لكنه حب يائس لا يسنده منطق، حب غير مصرّح له بالظهور، لأن ظهوره سينزع كل الأقنعة. نعم أحبها ولم يكن ذلك غريباً، بل أنه أكثر احتمالات الكون حظاً في التحقق، إذ لا يمكن لأي كائن على الأرض أو حتى في السماء ألا يحبها. هذه هي قناعة صاحبي الآن. كان الوقوف خارج نطاق جاذبية اورسولا هذه مستحيلاً. إن لم تجذب الناظر اليها ملامح وجهها، فضحكتها، أو طريقة كلامها، أو مشيتها، أو تلقائيتها، أو نظرة عيونها المدهشة التي تتسع أولاً حتى كأنها تريد استقبال العالم كله. هي روضة صغيرة من

رياض الجنة قد هبطت على الأرض. هبطت لأجله. هذه هي الهبة التي ينتظرها الصابرون على العذاب والاذلال والقهر والتشرد، أفلا يستحق هو أن ينقذه هذا الملاك الغريب؟ اليس المنطلق أنه بعد أن عجز البرد والجوع والخوف والتشرد والنفي والاقصاء عن حرفه ودفعه الى عالم الاجرام والرذيلة يستحق الآن أن يكافأ بمن يمد له يد الحب؟ وهو في كل حال لا يريد اورسولا مقاماً نهائياً، هو يعرف أنه لا يستحقها الا كمعبر يوصله الى ما يريد. طيلة هذه الفترة كان كمن يحاول صناعة كرة من ماء، يجهد في صياغة فكرة إعادة خلق ذاته وما قبلها مبقياً على اللحظة الحاضرة فقط كي يخرج مشروع مشاعره من حدود المستحيل الى أولى أمتار الممكن. أن يلغي كل شيء، ويطلب منها طلباً صعب التحقق هو نسيان كل شيء، والنظر لحياته ابتداءً باللحظة الآنية. هل يمكن ذلك يا دورين؟ هل تعتقدين بإمكان فصل الماضي عن الحاضر والابتداء من اللحظة المعاشة الآن؟ صاحبي فكر بذلك، ولكن المعضلة كانت أكبر من أن تختصر بماض قابل للإلغاء، المعضلة أن الحاضر قد بُني على كذبة كبرى هي الماضي! إذا انهار الماضي سيتكوم الحاضر على أنقاضه ركاماً! لمرتين التقت أعينهما ثم انكسرت عيناه هو. لمرتين كاد رأساهما أن يقتربا من بعضهما فشعر بالرهبة. لمرتين جالت الخيول المتوحشة في عروقه فظهر غبار حوافرها الحار المتطاير أحمرً على وجهه. كان يقول لنفسه ما أصعب أن يكون المرء منفرداً بامرأة أوربية جميلة ومحترمة؟ كانت تصوب له نظرات متسائلة تريد جواباً. تحدثت له عن اعجابها بإصراره على الثبات على

موقفه، ولمّحت له برغبتها أن يحصل على الاقامة فيبقى هنا، ربما أرادت ان تقول: هنا قربي.. معي.. لي! جزّأت كلامها بين لسانها وعينيها، وكانت تنتظر جواباً. لكن الثمرة التي انتظر قطافها نضجت قبل الأوان. لقد أتت فرصة الرحيل الى بلاد تحترم آدميته، وجد طريق الخلاص من محنته لكن القدر امتحنه بأخرى. كان عليه، لكي يتسنى له مغادرة بيتها، أن يبحث أولاً عن طريقة للحصول على المبلغ المطلوب للمغادرة. كان يبيت في بيتها الفارغ الا منه، بحث في مكتبها فلم يجد غير الأوراق والوصولات، أرأيتِ؟ هذا هو الأبن الذي يسرق من محفظة أبيه، الأبن الذي لم يكن أهلاً لثقة من وثق به، شعر باحتقار لنفسه فعاد الى مقعده. فكر ثانية ويبدو أنه توصل الى حقيقة صادمة هي أنه إذا لم يتدبر أمر المبلغ الآن، ومنها هي بالذات، وبأي شكل كان، فهذا سيعني فشل خطة المغادرة نهائياً وربما انكشاف أمره. عاد واتجه هذه المرة للبحث في خزانات الملابس ذات الرائحة العطرة. وقعت عيناه فجأة على ملابسها الداخلية فأرتعد وصاح، رأى كل شيء، كل مالا يجوز له رؤيته، مثل أي لص يرى ويأخذ مالا يحق له رؤيته وأخذه! أعاد ترتيب الملابس كما كانت، أغلق الخزانة عندما لم يجد شيئاً. ضرب رأسه في الجدار مرتين. وقت السرقة وقت مرعب، أما سرقة من أحسن اليك، فهو عمل يقع خارج إطار الأخلاق البشرية! لا شيء، لا يوجد مال في بيتها، افترسه اليأس فعاد الى طاولة المكتب حانقاً فاصطدمت قدمه بحقيبة مركونة الى قائمة الطاولة. تردد قبل أن يفتحها لكنه لم يقاوم اغراء فتحها، أهاااا. هذا هو الكنز المفقود، هذا هو بنكها

المتخم بالأوراق النقدية، عملة اوربية، جنيهات أسترلينية، كرون سويدي ودنماركي، رزم من الدولار، هذه فلوس تكفيه للعيش سنة أخرى، امتدت يده الى رزمة جنيهات واستل منها عشر أوراق لا غير ثم أغلق الحقيبة. الآن لابد أن يكون في منتهى الصدق مع نفسه، صادقاً كما يليق بهذه المرأة. عليه أن يتصرف بشجاعة وثقة ببراءته. إذا كانت شجاعته لا تسعفه في الثبات أمام أسئلتها، عليه على أقل تقدير أن يرد على أسئلته الصعبة مثل: ما الذي يريده هو؟ الاحتفاظ بها دون أن تعرف حقيقته؟ هل يمكن أن يبقى معها بجناحي ملاك يخفيان تحتهما ما سرق؟ هي أحبته مثلما أحبها! ذلك واضح، ولكن هل سيوهم نفسه بان الحب قادر على التغاضي عن الخطايا الكبرى؟ جلس وراء طاولة الكتابة ولم ينتبه حتى عندما حملت له بلابل الفجر أولى أنغام الصباح. كتب لها رسالته المفصلة ورحل تاركاً قصته خلفه..

انتهت يا دورين قصة صاحبي! وأنا الآن أحاول إيجاد حل للسؤال الصعب الذي أرادني الاجابة عنه:

هل سيغلب إحساسَ تلك المرأة بأنها كانت ضحية خدعة، إحساسٌ آخر هو أن الذي خدعها قد منحها من حيث لا تدري مجد إنقاذه من الموت والانحدار؟ ما رأيك أنت؟ هو سألني عن حظوظه في أن تتفهم هذه المرأة ما دفعه لفعل فعلته الشنعاء وأنا بدوري أحيل سؤاله لك. ما رأيك؟ فكّري الآن، لو أنه أتى الى هنا بدلاً مني الم يكن ذلك أفضل؟ هو يعيش مشرداً

بلا مأوى دون أن يرتكب ذنباً، وها هو الآن مهدد بالوقوع بين أيدي الشرطة التي ستخفره وتعيده الى ما وراء الحدود، الى الموت! لمَ لا يكون هو البطل بدلاً من المتسول الذي لا يعرف أين سينام الليلة القادمة؟

أنا أنقذت أباك بصدفة ربما، بل ليس من غير المنطقي أيضاً، أن من يجد في نفسه الشجاعة لإنقاذ رجل من بين مخالب عصابة مرة واحدة، قد لا يجدها في نفسه إذا تكرر المشهد مرة ثانية، فأنا كنت صاحب الفعل الوحيد، اللحظي، لكن صاحبي كافح سنيناً مقاوماً السقوط! جازف بنفسه من أجل ألا ينساق مع القطيع أفلا يستحق أن يُعامل مثل البشر؟ لو كان بيدي لأهديت مأثرتي له! أنا شخصياً أتنازل عن حقي له! ولكن كيف بوسعي مساعدته؟ لو حدث هذا معك، تخيلي أن تكوني أنت مكان تلك المرأة، وأنك أحببت هذا الرجل، هل ستمنعك الحقيقة واكتشافك انه خدعك من الاستمرار في حبه؟ أنا لا أدري لأن مشاعر المرأة وأحكامها تبقى عصية على فهمنا نحن الرجال، خاصة الشرقيين، نحن لا نتمتع بصفة التسامح أبداً، بل أن موقفاً واحداً لا يرضينا قد يبقى في ذاكرتنا طول العمر أما المرأة الأوربية فأنا أجهل كيفية تعاملها مع مثل هذه الأمور الحساسة!

الآن أقترح عليك استراحة لدقائق ومع ارتشاف قهوتك حاولي الإجابة عن أسئلة صاحبي. عديني أن تفعلي!

هل انتهيتِ؟ لعلك الآن تسألين: وأين هي المكاشفة التي وعدتني بها؟ وما علاقة ذلك بك؟ نعم دورين! ها أنت قد عرفت الآن الحقيقة كاملة، فما حكيته لك هو تحوير بسيط لقصتي سقته لتجنيبك صدمة الاكتشاف! أنا لست الشخص المجهول الذي أنقذ أباك من الخطف! أنا عامل المطعم مالك زهير عبد المجيد الذي بحث عن تليفونه الضائع! أتتذكرين ذلك المساء حين كنت مع لويزا في المطعم الأفريقي؟ لقد استمعتُ بالتفصيل لقصة اختطاف أبيك أثناء محادثتكما ورأيتك أمامي بوجهك البريء وعيناك تدعواني. كل شخص منا في هذه الحياة يثبّت في ذاكرته لقطة تختصر الآخر الذي يعرفه، الأم غالباً ما تثبت في ذاكرة الأبن بصورتها وهي تنحني نحوه في حالة المرض أو وهي تستقبله بعد غياب، المعلم القاسي سيثبت في ذاكرة التلميذ بوجهه المحتقن، أما ذاكرتي فقد طبعت كفك الناصعة بأظافرها الحمر وهي تغوص تحت موج الشعر الأشهب ثم تظهر من جديد، لتختصرك. أنا بحاجة لك، وأنت تبحثين عن مجهول يشبهني، تبحثين عن مُحسن لا يُريد أن يراك ولا يريد أن يأتي! ومثل السجين الذي نراه في الأفلام قافزاً من نافذته العالية الى جوف شاحنة تمر تحته، قررت القفز الى عالمك المجهول. صممتُ على لعب اللعبة الخطرة. كل ما يلزمني هو صلة شخصية بك، عنوانك الشخصي، عنوان شركة أبيك أو رقم هاتف. نعم رقم هاتف.. وأتصل بك مدعياً القدوم من بلادي البعيدة. لقد كانت حجة ضياع هاتفي فكرة شيطانية لا أعرف كيف اهتديت اليها، هل هو المعلم من استفزني حين عيرّني بالهروب؟ أم كان القدر؟ هاتفٌ

صاح بي لكي أحصل على رقم تليفونك وأربط مصيري به وبصاحبته.. وعندما نجح المسعى بعد حجة ضياع هاتفي نظرت لرقمك وتحته دورين فان بيست فاصطكت أضلعي ببعضها ثم تنافرت. انتظرت أياماً ثم أغمضت عينيّ وبعثت رسالتي القصيرة من ذات هاتفي القديم وكأنها مرسلة من بغداد! لقد فعلتُها بحماقة لا نظير لها فهو ذات الرقم والاسم الذي دخل لهاتفك! ربما تتذكرينه فينهار كل شيء! ذلك ما بقي يقلقني حتى بعد أن نفذت خطتي ووصلت بيتك! بقيت أعوّل على أمل مسحك الرقم في ذات اللحظة ونسيانك إياه فأية أهمية لرقم نادل مطعم أجنبي لا تربطك به أية رابطة اتصلت به في ظرف طارئ؟ ولكن في كل مرة اسأل نفسي: ما الدليل على صحة افتراضي؟ رعبٌ لا مثيل له. أعترف لك أن هذا بحد ذاته مريع، وفظيع، وشنيع، ومثير للقرف، ولكن ربما لن تصدقينني لو قلت لك أن هاجساً راودني بعد أن حُفظ رقمك في جهازي كان يركلني كي أهرع خلفك وأحكي لك الحقيقة وأطلب مساعدتك كشخص عرفته منذ زمن بعيد، ليتني فعلتها! لقد تحايلت عليك ليس من أجل الوصول الى مكافأة، ولا الى تكريم، بل كي لا أسقط في محرمات الجريمة، اشتغلت قواي الباطنية بكل طاقتها لترسم أمامي طريقاً لم أكن حتى لأجرؤ على التفكير به. كنت بحاجة الى انسان عظيم يمد لي يده بعد أن تخلى الجميع عني، وكنت أنت ذلك الإنسان المدهش الذي رأيت في عينيه آخر آمالي، كنت شريكي بهذه الفعلة، تقديرك لفعل المنقذ، ابتسامتك الملائكية وعيناك اللتان تختصران حيوية الكون وجماله هو ما جعلني أثق بأن خطتي معك سوف

لن تخيب. لو تعرفين أي إحساس عجيب انتابني قبل أن تطأ قدماي عتبة شقتك المعتمة، فأنا الآن في شقة مظلمة مع فتاة ساحرة عرفتها بالصدفة، فتاة تثق بي وربما كنت في نظرها أكثر الناس شرفاً وشجاعة ونبلاً. شعرت كأنني أسطو على بيت قبيل الفجر، وأحسست بمقاومتي على التمثيل تقارب نهايتها ولا أعرف كيف حاصرني سؤال بقي يطن في رأسي مثل زمرة نحل ضاج، ماذا لو كانت دورين قد كشفت قصتك؟ ماذا لو أنها انتبهت لتكرار الرقم وقادتك بذكاء لتحبسك مثل خروف ابله أتى للمسلخ بكل بلادة واستسلام؟ الم تسألك ضاحكة: تخشى من ماذا؟ من أن ينافسك أحد وينتحل شخصيتك ويأخذ الجائزة؟ قد تكون كشفتك هذه الفتاة ما الذي يمكن أن تواجهه؟ تهمة نصب واحتيال، ستكون موضوعاً للصحافة الباحثة عن الاثارات مع صورتك وعنوان صارخ:

"محتال أجنبي يخدع عائلة هولندية ثرية بطريقة شيطانية.."!

هذا مقترح لأحد العناوين، ثم بعد ذلك الاعادة مخفوراً! بلغت مقاومتي حد الانهيار كدت أقرر الهروب من شقتك ليلاً لكني عدت لنفسي بعد أن وعيت أنني دخلت مسلكاً ذا اتجاه واحد، فاذا كانت حيلتي قد مرت، سيضعك هروبي في مأزق فتلقين باللوم على نفسك، ومن المؤكد أنك ستبلغين الشرطة للبحث عني وتدخلين متاهة أخرى. لقد زادت قصتي الآن مهمة أخرى هو فعل كل ما بوسعي كي أجنبك دفع ثمن تحايلي!

بحلول صباح أول يوم لم أكن متيقناً أنني الآن بنظرك ذاك الذي أنقذ اباك.. رغم أنك تركتني طليقاً ولم يبن في عينيك الساحرتين أي ظل لشك من أي نوع! يا لحقارتي هل تمكنتُ من خداعك؟ لا خطر مباشر يهددني، انا الآن في هدنة. لا خوف عليّ الا من إثنين: أن يفعلها القدر فيستجيب المنقذ بطريقة ما لدعوتكم، وهذا الجهاز الذي ربما مازال يحتفظ برقم هاتفي! قررت أن أتخلص من العدو القريب الذي تطاله يدي فانتظرت فرصة دخولك الحمام وبحثت بسرعة عن ارقام نداءات تلك الليلة فلم أجده. تأكد لي أنك قد مسحت الرقم. مات أحد العدوين!

كانت خطتي الأولية أن أبقى في بيتك فترة انتظار الجواز، فترة قد تطول الى شهر. وإذا ما قدر للإقامة أن تمضي بدون عوائق، فان المكافأة الموعودة، والتي لا أريدها أن تزيد عن تكلفة الجواز والسفر بأية حال، ستصرف لي. بعدها إذا ما تحالفت معي الظروف سأرسل لك من كندا رسالة مفصلة أحكي لك فيها الحقيقة كاملة، لكن في كل الأحوال سأعيد لك مبلغ المكافأة وأحسب معك تكلفة اجمالية لإقامتي في شقتك. هذا هو الترتيب الأولي لمخطط القصة، آنذاك سيخف جانب الخدعة فأنا لم أكن "مستغلاً" بل "مضطراً". مضى الأسبوع الأول في بيتك وأنا بين الوعي واللاوعي، في أحيان كثيرة كنت لا أصدق أنني فعلتُ ما فعلتُ ولا أقتنع أنني تمكنت من تمرير خدعتي. كان الخوف قد سكن مثل فأر في زاوية قصية من روحي، كل لحظة يقفز فيكشفني أمامك متردداً مرعوباً. كلما

أقبلت عليّ بوجهك أتخيلك وقد تسلمت خبراً من المنقذ سيطيح بي! هل تتذكرين تلك الساعة عندما عرضتِ على أن أكلّم أباك؟ شعرت أني أتعرى فأمسكت لا ارادياً بسترتي وشددتها علي وأحسست بالعرق يرشح من جبهتي ويسيل على امتداد عمودي الفقري. بدأت الشكوك تفترسني عندما سمعت منك جملاً لم أفهمها فسرتها كشكوك من أبيك بي، ترى هل عبّر السيد بيتر فان بيست لابنته عن انكاره لصوتي؟ هل قال لها أنه لم يسبق أن سمع هذا الصوت؟ وقتها لو كان لدى مهرباً ألجأ اليه لغافلتك وهربت! نعم أهرب الآن بدلاً من الامساك بي كثعلب يعض على عنق دجاجة، لكن الى أين؟ لقد أضفت الى سجلي تهمة جديدة ومتهِمين جدد، لا منفذ للهرب أبداً، لقد ولجت نفقاً لا رجوع منه، دلفت لدرب أما يفضي بي الى شواطئ الأمان أو أنني سأتعفن في الطريق في مكان ما وينتهي كل شيء! وجدت نفسي مجبراً على مسايرتك ومرافقتك في برامجك الترفيهية إذ لم يكن الرفض مبرراً من قبل شاب آت الى أوربا فلا يتحمس لحضور مباراة مع أتلتيكو مدريد في ملعب المدينة التاريخي. المعضلة أن الملعب هو ذات المكان الذي كنت أنام في باكيت كارتون تحت أحد سلالمه زمان التشرد! كانت ستكون مزحة سوداء لا نظير لها لو أن أحد زملاء زمن الشارع قد صادفني وأنا بملابسي الأنيقة مع فتاة شهباء ساحرة. بقي هذا الهاجس يطاردني وشعرت بالفزع يستولي عليّ عندما تعمدت أنت كما بدا لي، التوقف طويلاً للاستراحة قرب مدخل الملعب وكأنك تتلفتين للعثور على من يعرفني، كما لو كنت تريدين عرضي على المارة والمتفرجين الذين

اصطفوا أمام شباك التذاكر. هنا بالضبط كان مكان تجمع المجموعة المتشردة في مناسبات المباريات حيث تتاح لنا فرص استجداء سيجارة بطريقة أقل اذلالاً، أو متابعة زجاجة بيرة لم ينهها صاحبها فيتركها على المدخل، كنا نستغل حالة الانتشاء والكرم التي تسم التجمعات الكبرى أو الاستجداء الصريح من قبل البعض الذي مضى أبعد في رحلة التشرد ووصل مرحلة لا شفاء منها. ورغم أن الجو الماطر منعني من مزية اخفاء عينيّ خلف نظارة شمسية الا أنني حاولت تغطية ملامحي وراء القبعة التي اعتمرتها والمعطف المطري اللذين انتزعا قهقهتك وسؤالك عن تجريبي التمثيل من قبل! مرات كثيرة كدت أنهار وأحكي لك عن السنوات الأربع، الأعجف، الأصعب، الأحلك، الأمرّ في حياتي حتى إذا ما قارنتها مع فترة فتوتي أثناء سنين الحصار الجائعة. أردت أن أحكي لك كيف فقدت الحياة الرطوبة الضرورية التي تمنع رئتيها من التخشب، وكيف جفت أيامي تدريجياً وغادرتها طراوتها. كنت هارباً من كل شيء، من بلادي، من قانون بلادك، من ماركيتا، من يان ديككر، من امرأة الكنيسة، كنت هارباً اليك دون أن أدري! هل تتذكرين سؤالك لي إن كنت كتبت شيئاً؟ كدت بعد هذا السؤال أن أتهاوى على بعضي! لا أعرف للآن كيف زاغ عن عينيك اضطرابي وتلعثمي. ظننت آنذاك أنك تقصدين تأليفي قصة إنقاذ أبيك.. والآن هل ستعذرينني يا دورين الآن بعد أن عرفت الحقيقة؟ هل ستتفهمين وجعي وحالتي التي أجبرتني على لعب لعبتي الفظيعة التي لا مثيل لها الا في الروايات البوليسية؟ كنت أسأل نفسي، ولكن ماذا لو امتد الشهران

الى شهور وماذا لو أن مهمة الحصول على الجواز فشلت؟ كيف سأتعامل مع دورين؟ ثم أنني، حتى مع احتمال نجاح تنفيذ الخطة، لم أكن أفكر بفقرة ابلاغك الحقيقة دون أن أحس بثقل يطبق على أنفاسي. فالحقيقة التي بدأت أعيشها وكانت تتضح أكثر كلما زادت ساعات وجودي معك، أنك قد جعلت مني معياراً. ليست المشكلة الكبرى أن تعذريني أو لا تعذريني فهذا الجانب يخصني نفسي، بل المشكلة أن يتهاوى الهيكل المقدس التي بنيته أنت بأعماقك لي. تدريجياً بدأت أقلق على مصيرك فكلما أبحر أبعد في مديات الرحلة معك، أشعر كما لو أنك قدتني بقارب الى مسالك لا يمكن لك العودة منها بمفردك. أنتِ وقعتِ تحت تأثير ما أسميته بمأثرتي التي "تختصر الأخلاق كلها"، ذلك كان أكثر ما يرهقني، هذه المنزلة العالية التي وجدت نفسي مرفوعاً اليها دون استحقاق فهو تمثيل من نوع خاص، يشبه أن يحاول المرء أداء دور إله. وبفعل من تأثرك واعجابك "بنموذجي الإنساني الفريد" شعرت بعمري يتضاعف وكأنني غدوت شيخاً يتلقى فروض العرفان من فتاة صغيرة. كان لهذه المكانة المغالى بها، حتى وأنا أدرك أنها غير مستحقة، مأثرة واحدة هي أنها منعتني من أن أفقد السيطرة على نفسي وأنا أشاطر فتاة ساحرة شقتها.

نعم أعرف أن ما اقوله لك الآن هو مفاجأة هائلة كان يمكنني الابقاء عليها سراً دفيناً لن تعرفيه أبداً، ولكني لا أتمنى أبداً أن يكون هذا هو ما كان يجب أن أفعله بنظرك، لا أتمنى أن يكون صمتي عن كشف الحقيقة

المرعبة أثمن لديك من كشفها. ولأني لا أريد أن أكتم عنك شيئاً وجدت نفسي مجبراً على مصارحتك بالحقيقة كاملة مع استعدادي الكامل لتحمل ردود فعلك كلها. أعرف أن مغادرتي المفاجئة هي مفاجأة محرجة لك أمام أبيك واصدقائك، أتعرفين، لو كان الأمر بيدي لمنعتك من الاتصال بأبيك، ولكني فوجئت بكل شيء، بسفره، وبالانهيار الثلجي، بتحمسك لتكريمي واصرارك على حضور التلفزيون. ذلك كله لم يكن ضمن تفكيري، لأن الكذب لم يكن مهنتي يوماً كي أستعد لعواقبه. كانت حاجتي هي أن أحصل على أقل من الكفاف. بقيت أصارع في أعماقي فكرة إنهاء اللعبة حتى تداعت مشاعري داخل روحي وتحولت الى حطام عندما وجدت نفسي فجأة فرحاً بخبر الحادث الذي كاد يميت أباك، كدت أفقد احساسي بالانتماء لنفسي، أمسيت غريباً عنها. ترى كيف ستتصرفين مع أبيك؟ صدقيني أنا أبكي مما سببته لك، مرات أقول لنفسي أن أسلم الطرق هي أن تنقلي لوالدك البلاغ البسيط التالي:

" زهير عاد لبلاده بسبب استدعاء سريع ملّح وقد أعطيته ما يستحقه".

وبعدها سيكون الانقطاع منطقياً فأنت قد كرمت "المنقذ" بغياب أبيك وانتهى الأمر. نعم هو كذبٌ أعرف أنك غير جديرة به لكني لا أجد حلاً يحفظ لي بعض الأمل فيك غيره! عندها سيكون ذلك الذي ستلتقيه في كندا أو أمستردام بعد سنة أو سنتين شخصاً آخر لا علاقة للمنقذ به، سيكون مالك وليس زهير، مالك الذي لم ير أباك ولم يعرفه! ستكون قصة

مستقلة لا علاقة لها بسابقتها. مرات الوم نفسي لأن ساعة ما أتت، امتلأت عندها بيقين غريب أنني لو كشفت لك الحقيقة لتقبلتها، لكني لم أفعل. تلك كانت لحظة الاختلاء معك في البيت الريفي. كنت قريبة مني كما أنا وليس من زهير المنقذ، زهير الذي لا تعرفين عنه شيئاً! أردت أن أقول لك: "أنسي كل شيء عني وأنظري لي الآن، هل أعجبك؟ أنا ابن اللحظة الراهنة، لا عليك بما مضى، أنت تعجبينني الى حد تيقني من المجازفة للفوز بك، المجازفة بكل شيء. لننس ما جعلنا نجتمع ولنبدأ من هذه اللحظة، أنظري، كل المأثرة التي اجترحها من أنقذ أبيك هي أنه كان نبيلاً أصر على انقاذ إنسان من موقف خطر وصعب، ثم أنه كان أميناً غني النفس لم يرض بالمكافأة، اليس كذلك؟ قارني ذلك بما فعلته أنا، أنا أيضاً جازفت بحياتي من أجل إنقاذ انسان من الموت! ورفضت أن أخفي محفظة امرأة غنية، فما الفرق؟ ومن يدري لو كنت سائق السيارة التي استخدمها الخاطفون ربما فعلت ما فعل؟ احكمي عليَّ من الآن وحتى نهاية التأريخ وتهاوي الكون كله، أعدك ألا أجعلك تندمين. اكتبي تأريخنا ابتداء من هذه اللحظة..

**ألأسوء لم يحدث بعد!**

ثمة بارقة تفاؤل تبدد عتمة هذه القصـــة الســـوداء، فســـحة أمل قد تعيد الحياة اليّ، هي أن ألأســـوء لم يحدث بعد. الخطيئة الكبرى التي كانت تغمز لي وتفرش بســـاطها الناعم الأمين تحت أقدامي بديلاً عن درب

الشوك والضواري الذي كنت أروم السير به لم تتمكن مني! تصوري مثلاً لو أنني مضـــيت في اللعبة الى منتهاها الذي لا عودة منه واتصـــلت بالسفارة بإسمي هذا ومن هاتفي الذي سيوهمهم انني أتصل من هناك– تماماً كما فعلتُ معك– وطلبت منهم انهاء مفعول الإعلان وابطال الدعوة مدعياً أنني الشـخص المنقذ، وأنني توصـلت لإيجاد صـلة بكم! آنذاك أكون قد أحكمت قبضتي على رقبة "المنقذ" وخنقته حتى الموت! لو أنني فعلت، لن يبق من ينافسني في الساحة وسأكون أنا بطل الفيلم الوحيد. هذا الفصـل المدمر لم يكن بعيداً عن خيالي الجامح، خاصـة في غمرة انهماكي بهندســة الحيلة ووقوفي على الثغرات التي تقلل من مقاومتها للاختبار. كنت مقتنعاً مع نفسـي أن ترك الاعلان في السفارة سـائباً قد يفاجئني بما يخرب كل شيء، رغم يقيني أن لا مسوغ منطقي سيدفع ذلك الرجل الذي فعل فعلةِ خيرٍ قبل أربعة شـهور ومضـى، الى الاتصـال بسفارة بلد أوربي من أجل استلام مكافئة رفَضَها حينها. لم اشأ الوصول بمستوى النذالة الى هذا الحد. الى حد سلب "المنقذ" حقه الافتراضي في الكشـف عن نفسـه فلا مطامع لي في هذا الحق.. لو أنني فعلت ذلك عندها سـيصـح تعليل فعلتي بسـعيي لكسـب ود البنت السـاحرة دورين لغايات مصلحية نذلة. سنؤسس مستقبلنا الزاهر على كذبة لن تكتشفيها

أبداً! لكن ألأســـوء لم يحدث فأنا مازلت إنســـاناً أخطأ لكيلا يموت ولم يخطئ حباً بالخطأ نفســه، ألا ترين؟ ألأســوء لم يحدث بعد.. شــكراً لك لأنك أنقذتني، شــكرٌ ســأبقى أردده كل حياتي. أنت من يتوجب أن يُكلل بالغار لا أنا، أنت الوفية، النقية، المتألقة، التي احترمت فيّ كل خلية بجســدي، أنت التي برهنت لي أنني أســتحق رجولتي لأنها امتحنت أمام جمال طاغ، متدفق، في سكون الليل وخلو المكان فلم تهتز. أنت التي لم تنس ما فعل غريب مع أبيها فبقيت تنتظر مجيئه لتشـــعره بقيمته، أنت من يتوجب أن يُحتفى بها، امرأة لا مثيل لها ســـاهم وجودها في إنقاذ إنســان، ومهما كان موقفك مني بعد أن عرفت الحقيقة فأني ســأحتفظ لك في ذاكرتي بـأجمـل الصـــور، وأقـارنـك دائمـاً بـأنقى العطور، وأعـذب الأصـــوات، أنت امرأة من جمال خالص. ولو قدر لنا أن تلتقي ثانية، فستكون تلك الساعة أكثر ساعات عمري جمالاً. اتخذي قرارك وسأنفذه، حتى لو كان الثمن أن أموت، مثل أبطال الأفلام الرومانسية، فسوف لن أتردد أبداً. لك أن تثقي بذلك، مهما كان موقفك مني..

# 10

انتهت دورين من قراءة الرسـالة مصـابة بدوار لم تشـعر بمثله بحياتها. مدت يدها لهاتفها وطلبت برسـالة قصـيرة صـديقتها لويزا التي عادت من نيويورك قبل يوم:

لويزا، عدت للتو من لندن. لويزا، حدثَ ما يجعلني لا أتحمل المبيت بمفردي. لدي الكثير مما يقال، الكثير مما قد يجعلني أصـرخ كالمجنون، أنتظرك فلا تتأخري!